دراسات في رسائل النور



تأليف
الأستاذ الدكتور
سامي عفيفي حجازي

تأليف
الأستاذ الدكتور
أحمد عبد الرحيم السايح

بسم الله الرحمن الرحيم

قضايا معاصرة

- الترقيم الدولي : 977-5323-84-3
- رقم الإيــداع : ٢٠٠٥/١٠٦٤٣
- الطبعـــــة : الأولى (٢٠٠٥)

- النـاشـــر : شركة سوزلر للنشر
- العنـــوان : ٣٠ شارع جعفر الصادق - الحي السابع - مدينة نصر - القاهرة جمهورية مصر العربية
- تليفـون : ٢٦٠٢٩٣٨ (٢٠٢) +
- تليفاكس : ٢٦٣٠٥٣١ (٢٠٢) +

30 Gafar EL-Sadek St., 7th Nasr City Cairo – Egypt.

Tel. : + 202 2602938

Tel. Fax : + 202 2630531

http://www.sozler.com.tr

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين الذى علّم الإنسان ما لم يعلم. والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين. محمد رسول الله المرسل رحمة وهداية للناس أجمعين.

أما بعد..

فإن الإمام بديع الزمان سعيد النورسى علم من أعلام الفكر الإسلامى الذين أضاءوا الطريق، وقدموا إلى المجتمعات الإسلامية. ما يصحح لها مسيرتها فى الحياة.

لقد كان النورسى مفتاحا من مفاتيح الخير. نهل من القرآن الكريم، وتربى ونشأ فى بيت تقوى. فأفاض الله عليه، وفتح له كنوز المعرفة. فاغترف منها ما شاء الله له أن يغترف.

ولما كان منهله القرآن الكريم ورفيقه فى حله وترحاله. فقد استطاع أن يقدم فى كليات رسائل النور كل ما من شأنه أن ينير الطريق، ويرشد الحائرين.

عالج فى كليات رسائل النور قضايا كثيرة تهم المسلمين والمجتمعات الإنسانية.

وكان تفكيره ينطلق من ثوابت ومعايير قرآنية. ومع هذه الانطلاقة كانت أساليبه تجديدية، تواكب العصر، وتشد الإنسان إلى المعرفة الصحيحة، وحسن التعامل مع قضايا عصره.

إن الإمام النورسى كان مجددا وإماما، وكان كذلك موسوعيا فى تفكيره وغير مسبوق فى تأليفه. وكان رحمه الله يتميز بسلاسة الأسلوب، وجمال العبارة، وتنوع التراكيب.

ولقد احتلت قضايا الإنسان، والأخلاق، والحوار، محور اهتمامه لأنه كان يهتم بالإنسانية، وينظر إلى علاقاتها مع بعضها. كما كان ينظر إلى المسلمين نظرة عناية.

إن الإمام النورسى وضع كليات رسائل النور لتنقل المسلمين من الاغتراب

الزمانى والاغتراب المكانى.

وقد أثبت فى صدق وإخلاص: أن الأمة الإسلامية. تملك رصيدا ضخما من القيم الهادفة التى يمكن أن تجعل الأمة فى منأى عن الذوبان والانسلاخ.

وإن الكاتب الذى يسبر أغوار كلمات الإمام النورسى فى "كليات رسائل النور" ليستطيع أن يؤكد: أن كلمات النورسى فيض وعطاء من الله سبحانه وتعالى. يدور الناس حولها ينهلون ويغترفون.

ولقد جاءت بحوث هذا الكتاب. تعتمد على كليات رسائل النور وإذا كانت تعرض لقضايا معاصرة فإن الناس أشد ما يكونون حاجة إليها.

المؤلفان

أ.د/ أحمد عبد الرحيم السايح **أ.د/ سامى عفيفى حجازى**

تمهيد

هو الإمام بديع الزمان سعيد النورسى. المولود فى قرية "نورس" الواقعة بشرق الأناضول عام ١٢٩٣هـ – ١٨٧٦ م. المتوفى ٢٥ من شهر رمضان عام ١٣٧٩ هـ – ١٩٦٠ م.

لقب ببديع الزمان لظهور ذكائه ونبوغه منذ الصغر، وهو من أسرة كردية صالحة تقية تعمل بالفلاحة والزراعة، وكان أبوه رجلاً ورعًا عابدًا. وكان يضرب به المثل، لم يذق حرامًا، ولم يطعم أولاده من غير الحلال. حتى أنه إذا عاد بمواشيه من المرعى شد "كمم" أفواهها لئلا تأكل من مزارع الآخرين.

وكانت أمه امرأة صالحة لا ترضع أطفالها إلا وهى على طهر ووضوء ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً.

وفى هذا الجو النقى كانت نشأة بديع الزمان النورسى، ولذا ظهرت آيات النبوغ والذكاء عليه منذ طفولته، حيث كان دائم السؤال والاستطلاع لكل ما استغلق عليه فهمه، فكان يحضر مجالس الكبار ويصغى إلى ما يدور بينهم من مناقشات فى مسائل شتى ولا سيما علماء قريته الذين كانوا يجتمعون فى منزل والده ليالى الشتاء الطويلة، ويمر بخاطره مرة سؤال ظريف إذ يقول عن نفسه.

"لقد حدثت خيالى فى عهد صباى: أى الأمرين أفضل؟ قضاء عمر سعيد يدوم ألف ألف سنة مع سلطنة الدنيا وأبهتها على أن ينتهى ذلك إلى العدم، أم وجودًا باقيًا مع حياة شاقة؟.

فرأيته يرغب فى الثانية ويضجر من الأولى قائلاً:

"إننى لا أريد العدم بل البقاء ولو كان فى جهنم !!!

كان أنوفًا عزيز الجانب، لا يقبل الضيم، وينفر من الظلم منذ صغره. وقد تأصلت وقويت هذه الأخلاق عنده عندما بلغ مبلغ الرجال. وانعكست على كل تصرفاته مع من قابلهم من مسئولين وحكام، راجع المجموعة الكاملة لمؤلفات رسائل النور[1]، وراجع الأستاذ إحسان قاسم الصالحى فى شخصية بديع الزمان سعيد النورسى[2].

---

(١) الشعاعات، ص٢٧٨. (٢) نظرة عامة عن حياته وآثاره، ص ٧٠، ط الثانية، ١٩٩٦م.

الفصل الأول

الحـوار القرآنـى

بداية يحسن بنا أن نعرض لمفهوم الحوار حتى نمضى قدما على ضوء تحديد المفهوم فنقول:

الحوار: الرجوع عن الشيء، وإلى الشيء..

يقال: حار إلى الشيء وعنه. حواره ومحارا ومحاورة: رجع عنه وإليه.

وفى الحديث: "من دعا رجلا بالكفر وليس كذلك حار عليه" أى رجع إليه ما نسب إليه.

يقول لبيد الشاعر:

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه   يحور رمادا بعد إذ هو ساطع

والمحاورة: مراجعة المنطق والكلام فى المخاطبة[1].

والمحاورة أيضا: المجادلة.

والحوار بمعنى تراجع الكلام قد ورد فى القرآن الكريم فى ثلاثة مواضع.

الموضع الأول: فى قصة أصحاب الجنة قال تعالى: ﴿ **فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا** ﴾ (سورة الكهف. آية رقم ٣٧).

والموضع الثانى: فى نفس قصة أصحاب الجنة قال تعالى: ﴿ **قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا** ﴾ (سورة الكهف. آية رقم ٣٤) أى وهو يراجعه ويجادله[2].

والموضع الثالث: فى قصة المرأة التى حاورت الرسول ﷺ. قال تعالى: ﴿ **قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما** ﴾ (سورة المجادلة. آية رقم ١).

---

(١) راجع ابن منظور، لسان العرب، جـ ١، ص ٧٥٠.

(٢) انظر: سعيد حوى، الأساس فى التفسير، جـ ٦، ص ٣١٨٤.

ويفهم من المواضع الثلاثة . ان الحوار مراجعة الكلام، وتداوله بين طرفين[1].

والتحاور أيضا: التجاوب . لذلك كان لا مندوحة فى الحوار من متكلم ومخاطب . ولابد فيه من مراجعة الكلام، وتبادله، وتداوله .

وإذا كان الحوار تجاوبا بين الأضداد كالمجرد، والمشخص، والمعقول، والمحسوس سمى جدلا . والجدل هو النقاش والخصومة .

وهو منطقيا: قياس مؤلف من مقدمات مشهورة أو مسلمة . وغرض الجدل: إلزام الخصم، وإفحام من هو قاصر عن إدراك مقدمات البرهان[2].

والجدل أصلا هو فن الحوار والمناقشة.

قال أفلاطون: "الجدلى هو الذى يحسن السؤال والجواب" .

وغايته الارتقاء من تصور إلى تصور، ومن قول إلى قول . للوصول إلى أعم التصورات، وأعلى المبادئ.

واقتبس المحدثون عن أفلاطون هذا التعريف، وأطلقوا الجدل على الارتقاء من المدركات الحسية إلى المعانى العقلية .

ومن المعانى الشخصية إلى الحقائق المجردة، ومن الأمور الجزئية إلى الأمور الكلية[3].

وقبل أفلاطون زعم سقراط: أن العلم لا يعلم ولا يدون فى الكتب بل يكشف بطريق الحوار[4].

ويذكر العلماء: أن قاعدة القواعد فى النظام الكونى هى حوار الكائنات . وإنها جامدة . ليأخذ بعضها من بعض، ويعطى بعضها البعض.

كما هى طبيعة الحاجة . فيكون الانسجام، والشد والعقد، والاستمرار .

---

(١) راجع الندوة العالمية للشباب، أصول الحوار، ص ٩ .

(٢) راجع حسين حمادة، الحوار القرآنى . مجلة النماذج . مجلد ٧ ع ٨ ص ٣٦ بيروت .

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

فالحوار ليس قصرا على الكلمات اللسانية المسموعة. إذ قد يتجاوز إلى الإشارة الموضحة، والبسمة المشرقة، والحس الخافق، والعمل الصالح، والموقف الصالح حتى الصمت. لا يبعد أحيانا أن يتأتى حوارا.

وإذا كان قد سبق أن قلنا: أن من معانى الحوار مراجعة الكلام وتداوله بين طرفين فإن المجادلة تشترك مع الحوار فى كونها مراجعة الكلام وتداوله بين طرفين.

- إلا أن المجادلة تأخذ طابع القوة والغلبة، والخصومة، وأصل كلمة الجدل فى اللغة العربية يفيد الشدة والغلبة.

وقد تستعمل فى المناظرة، والمخاصمة. لأن المناظرة والمخاصمة. يحتاجان إلى قوة فى الكلام والحجة[1].

والجدل الاصطلاحى: دفع المرء خصمه عن إفساد قوله بحجة أو شبهة.

أو يقصد به تصحيح كلامه وهو الخصومة فى الحقيقة.

ويكون الغرض منه إلزام الخصم والتغلب عليه فى مقام الاستدلال.

فيظهر من معنى الجدل: القوة، والخصومة، والغلبة. وهذا ما لا تجده فى الحوار[2].

والجدل ورد فى القرآن الكريم فى مواضع كثيرة. يهمنا منها الآن ثلاثة جاءت غير مذمومة.

قال تعالى: ﴿ **أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن** ﴾ (سورة النحل. آية رقم ١٢٥).

وقال تعالى: ﴿ **ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن** ﴾ (سورة العنكبوت. آية ٤٦).

وقال تعالى: ﴿ **قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله** ﴾ (سورة المجادلة. آية رقم ١).

---

(١) أنظر خالد عبد الله القاسم، الحوار ص ١٠٥ ط دار المسلم. الرياض.
(٢) المصدر السابق.

فالجدل لم يؤمر به، ولم يمدح فى القرآن. إلا مقيدا بالحسنى. قال تعالى: ﴿ وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾ (سورة النحل. آية رقم ١٢٥).

وقال تعالى: ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن ﴾ (سورة العنكبوت آية رقم ٤٦) فلفظة الجدل مذمومة إلا إذا قيدت[١].

إذن الفرق بين الجدال والحوار: أنهما يلتقيان فى أنهما حديث أو مناقشة بين طرفين. لكن يفترقان بعد ذلك.

وقد تترادف كلمة الحوار والجدل فى أحيان قليلة - كما سبق أن عرفنا.

وإذا كان مفهوم الحوار هو التجاوب. فمن البداهة القول بأن الإنسان: كائن عقل واجتماع.. كائن علاقة وحاجة..

ومن البداهة القول: أن هذه الأحوال أحوج حاجاتها: اللقاءات المتحاورة. لتكون المجتمعات الإنسانية على بينة من أمر علاقاتها، وعلى تناسق مؤتلف، وتفاهم واع، وترابط سليم..

وقد لا يخفى على أهل العلم.. أن الحوار يولد الأفكار الجديدة فى ذهن المتحاورين.

كما أن الحوار يعمل على توضيح المعانى، وإغناء المفاهيم بما يفيض إلى تقديم الفكر.

وإن المتأمل فى القرآن الكريم. يجد أن هذا القرآن الذى أنزله الخالق لإصلاح حال الخلق.. قد عالج قضايا العباد. بما تستجيب به النفوس، وتتقبله العقول.

- فتارة يعالج الأمر بالقصة.
- وتارة يعالج الأمر بالمثل.
- وتارة يعالج الأمر بالحوار.

---

(١) المصدر السابق ص ١٠٩.

- وتارة يعالج الأمر بالمناقشة.

وما جرى مجرى هذا ما يجعل للموضوع وقعا، وتأثيرا.

والحوار له أثر كبير على تقبل السامع أو المحاور نفسه. حيث إنه وسيلة حية استهدفت إنسانية الإنسان.

وقد لا يخفى على أهل النظر والعلم. أن الحوار يساعد على تقريب المسائل بين المتحاورين. كما أنه عامل لحل كثير من القضايا والمشاكل..

ونحن ندرك أن الرسول ﷺ حاور وفد نجران. كما أن إبراهيم عليه السلام حاور أباه وقومه.

وقد حكى القرآن الكريم صورا ونماذج كثيرة من هذه الحوارات. مما يعتبر منهجا أصيلا من حيث الاستيعاب لمختلف أنماط السلوك البشرى، ومن حيث الاستغراق لأغوار النفس الإنسانية.

وليس هناك من شيء أنفع من تربية البشر، وإصلاح الشعوب، وتقويم النظر من حوار بناء، يعالج شطط الإنسان وجموحه. الأمر الذى يؤدى إلى أن تتحرك نفس الإنسان من خمود، وأن تستيقظ من سبات.

ومن يطالع كليات "رسائل النور" للإمام بديع الزمان سعيد النورسى يجد أن الحوار بمفاهيمه ومعانيه التى ترقى بالإنسان قد جاءت فى مواضيع كثيرة أهمها:

١ - حوار الإنسان مع نفسه. وهذا يؤدى إلى الالتزام بالقيم حينما يسعى الإنسان إلى تزكية نفسه والسمو بها.

٢ - حوار الإنسان مع الإنسان. وفى ظل هذا الحوار تقوم العلاقات الإنسانية بين الأفراد والجماعات، والأمم والشعوب. لأن الإنسان فى المجتمع الإسلامى والإنسانى. جزء من كل. يحمى المجتمع ويحتمى به، ويعطيه ويأخذ منه.

وليس هناك انفصال فى الإسلام بين مسئولية الفرد نحو المجتمع، ومسئولية المجتمع نحو الفرد.

٣ - حوار الحضارات. لأن العناصر الخارجية، ضرورة حتمية لا تستغنى عنها حضارة مهما سمت، وارتقت.

ويكاد أن يكون معروفا: أن "كتاب الملاحق فى فقه الدعوة[١]" للإمام بديع الزمان سعيد النورسى. عبارة عن مجموعة مكاتيب جرت بين النورسى وطلابه الأوائل.

وطابع "الملاحق" العام طابع توجيهى إرشادى. تدرك فى سهولة، ويسر. أنه يفصح عن أهمية رسائل النور. ومنهجها فى الدعوة إلى الله فى هذا العصر.

ونجد فى "الملاحق" مكاتيب ودية يبين فيها طلاب رسائل النور مدى استنطاقاتهم الروحية من رسائل النور، واستفادتهم العقلية منها. وكيف أنها حولت مجرى حياتهم، وفتحت أمامهم آفاقا معرفية واسعة جعلتهم كيف يتحاورون، ويتجاوبون مع الدعوة، وكيف يتفاعلون مع حركة الحياة.

وتتضمن "الملاحق" أيضا. خواطر وردت على قلب حكيم الزمان بديع الزمان النورسى. يذكرها لطلابه بصدق، وإخلاص.

فضلا عن توجيهاتها لتقويم السلوك، وكيفية التعامل الحوارى مع الآخرين، والحث على الإيمان العميق، والعمل المتواصل، والترابط الوثيق الذى يبنى المجتمع، ويوجد الثقافة الفاعلة البانية[٢].

وقد يبدو واضحا أن "الملاحق" تمثل مرحلة متقدمة من الحوار البناء الذى يأخذ بالإنسان إلى المسار الصحيح، ويجنبه عقبات كاداء، ويرشده إلى أنبل المواقف.

والملاحق فى فقه الدعوة تتضمن ثلاثة كتب مستقلة.

- كتاب "بارلا" وهذا الملحق أو الكتاب يضم المكاتيب الحوارية التى تبدأ منذ نفى النورسى إلى ناحية "بارلا" وإقامته الإجبارية هناك إلى أن اقتيد مع طلابه إلى محكمة الجزاء الكبرى فى "اسكى شهر".

---

(١) راجع الإمام النورسى، الملاحق فى فقه دعوة النور جـ ٧.

(٢) مقدمه الملاحق ص ٥.

- كتاب "قسطموني" وهذا الملحق أو الكتاب. يتضمن المكاتيب التي جرت بين النورسي وطلابه بعد قضائه مدة محكوميته في سجن أسكي شهر" ونفيه إلى قسطموني.

- كتاب أمير داغ" وهذا الملحق أو الكتاب يقوم على جزأين:

الجزء الأول: عبارة عن مكاتيب النورسي بعد براءته من محكمة "دنيزلي" وإقامته الجبرية في "أمير داغ"[1].

ومما هو جدير بالذكر. أن "الملاحق" تمتاز بالطابع الدعوي في مخاطبة المحبين والمناصرين للدين حتى المعارضين له. ويبدو أنه لهذا السبب كانت الموضوعات حوارا مع النفس، وحوارا مع الإنسان.

وقد لا يخفى.. أن رسائل طلاب النور التي وصلت إلى الحكيم النورسي كانت تجاوبا. ولهذا كانت حوارا حيا.

وكانت رسائل النورسي حوارا يوضح ما ينبغي أن يقوم به المخلصون من كياسة، وعقلانية، وتسامح مستنير.

يقول النورسي تحت عنوان "مهمة رسائل النور": إن رسائل النور لا تعمر تخريبات جزئية، ولا ترم بيتا صغيرا مهدما.

بل تعمر أيضا تخريبات عامة كلية، وترم قلعة عظيمة. صخورها كالجبال. تحتضن الإسلام، وتحيط به.

وهي لا تسعى لإصلاح قلب خاص، ووجدان معين. بل تسعى أيضا - وبيدها إعجاز القرآن لمداواة القلب العام المجروح، وضماد الأفكار العامة المكنومة، من الوسائل المسندة التي هيئت لها وركمت منذ الف سنة.

وتنشط لمداواة الوجدان العام الذي توجه نحو الفساد. نتيجة تحطم الأسس الإسلامية، وتياراته، وشعائره. هي المستند العظيم للجميع، ولا سيما عوام المؤمنين.

---

(1) المصدر السابق ص ١٠٩.

نعم.. إنها تسعى لمداواة تلك الجروح الواسعة الغائرة بأدوية إعجاز القرآن والإيمان.

وأمام هذه التخريبات الكلية الرهيبة، والشقوق الواسعة، والجروح الغائرة.. ينبغي وجود حجج دافعة، وأعتدة مجهزة، بدرجة حق اليقين، وبقوة الجبال ورسوخها..

فرسائل النور النابعة من الإعجاز المعنوى للقرآن العظيم. تؤدى هذه المهمة أتم أداء، وتحظى فى الوقت نفسه بكونها مدار انكشاف لمراتب غير محددة للإيمان، ومصدر رقى فى مدارجه السامية غير المتناهية"(١).

يعلم الله سبحانه وتعالى أننى وقفت طويلا أمام هذا النص الذى جادت به قريحة النورسى منطلقا من القرآن الكريم.

إن هذا النص دل فى وضوح على أن حوار الحكيم النورسى كان حوارا ينطلق من القرآن الكريم.

والنص الذى معنا – فيما أوصى من تعاليم، وفيما جاء به من توجيهات استهدف إنسانية الإنسان. ليصل بالإنسان إلى الحياة الإنسانية، ويرتفع بمستواها.

ومما هو مؤكد.. أن الإسلام الحنيف منهج متكامل رفيع، ورائد فى قيادة البشر وهدايتهم، ومنحهم غاية السعادة فى النفس، والمجتمع، والدين، والدنيا، والآخرة.

وذلك بفضل ما جاء به القرآن من جلال الوسيلة، وكفاية، الفطرة والوفاء بالغاية.

ومن خير صور العطايا التى أهداها الإسلام، ومنحها البشر.. ما جاءهم به من كريم الأخلاق، وباهر السجايا..

ما يمكن أن يعتبر منهجا أصيلا من حيث الاستيعاب لمختلف أنماط السلوك البشرى، والشمولية لحياة الناس.

---

(١) راجع الإمام النورسى، الملاحق فى فقه دعوة النور جـ٧، ص ١١٨.

ومن حيث الاستغراق الكامل لكل أغوار النفس الإنسانية، وأعماقها، وشتى الخواطر الواردة عليها.

وقد لا أكون مجانبا للصواب. إذا قلت: أن الإمام الحكيم بديع الزمان سعيد النورسى. أدرك بفكره الثاقب، وحسه القرآنى، ووعيه بأمته الإسلامية.

أن ترك الإنسان من غير توجيه، ومن غير تدخل يؤدى إلى فقدان الإرادة، وفقدان الشخصية، وفقدان المقاومة، والمغالبة، وفقدان التمييز والاختيار.

ثم الخصومة، والضياع، والذوبان، والانسلاح عن ماضى كان مشرقا ورائعا..

ومن هنا جاء النص الذى نقلته من "الملاحق" طريقا يوصل الإنسان إلى حوار يجعله ذا قوة واستطاعة، وذا ارتباط بالمجتمع، وذا يقظة واعية بالذات، ومعرفة بالقيم الإنسانية.

وتطالع - أيها القارئ - وأنت تتابع صفحات الملاحق العناوين التالية:

- حوار مع فريق من الشباب[1].
- محاورة مع نفسى[2].
- محاورة مع الذين لهم علاقة برسائل النور[3].
- حوار مع النفس[4].
- يا نفسى المغرمة بالفخر.
- يا نفسى الغوية.
- نعم يا نفسى[5].

---

(١) المصدر السابق، جـ٧ ص ١٧٤.
(٢) المصدر السابق، جـ٧ ص ٢٣٠.
(٣) المصدر السابق، جـ٧ ص ٢٣٣.
(٤) المصدر السابق، جـ٧ ص ٢٩١.
(٥) الإمام النورسى، الكليات مجلد ١ ص ٢٤٨، ٢٤٩.

ولا شك.. أن مطالعة هذه العناوين، والوقوف حولها - أعماقا وأبعادا - يدلك على أن الحكيم بديع الزمان سعيد النورسى. كان ينطلق من القرآن الكريم فيحاور النفس.

ومحاورة النفس ترقى بالإنسان إلى مراقى الفلاح.

كما أن محاورة الآخرين دليل صحة وعافية.

ومحاورة الناس أجمعين تصل بالإنسانية إلى التفاهم، والتوادد، والأمن.

وهذه المحاورات التى تنطلق من القرآن الكريم توضح لك. أن الإسلام دين استهدف كمال النفس، وجمال الذات، وسمو الوسيلة، وجلال الغاية.

والمنبع الحق الذى يؤتى ثماره - فى فكر النورسى - ويعطى نتائجه. لابد أن تتوافر له عناصر رئيسية لا غنى عنها. من التخطيط والمرونة، والتدرج. ثم الدعوة إليه، والترغيب فيه، والحث عليه...

ووجود القدوة التى تطبقه، وتتحلى به، وتضرب أكمل الأمثال فى توخيه، وتعطى أمثل النتائج فى اعتناقه، والحرص عليه.

وفى كثير من محاوراته - رضى الله عنه - يقول: أعلم.. للإنسان والعالم، والمفكر. وأنت لو قرأت ما جاء فى "ذيل القطر" لوجدت أن جملة "أعلم" تتكرر سبع عشرة مرة.

وفى كل مرة يلفت إلى أمر آخر.

وفى الرسالة الخامسة "حباب من عمان القرآن الكريم" تتكرر جملة "أعلم"[1]. وفى كل مرة تعمل على ترسيخ مبدأ أو تأصيل قاعدة.

وفى الرسالة السابعة زهرة من رياض "القرآن الكريم" تأتى كلمة "أعلم" لتؤدى حوارا جديدا.

- اعلم أن ما يوصل إليك بحسب الظاهر من الوسائل إما له اختيار أولا.

---

(١) الإمام النورسى، المثنوى العربى النورى، جـ٦، ص ١٦٤ - ١٩٥.

- اعلم يا من يستمد من الأسباب.
- اعلم يا قلبى..
- اعلم أن دنياك كمنزل ضيق كالقبر.
- اعلم يا من يريد أن يرى شواهد تجليات اسمه "الحفيظ".
- اعلم أيها السعيد الغافل.
- اعلم أن من سنة الفاطر الحكيم.
- اعلم أن الفذلكات المذكورة فى أواخر الآيات.
- اعلم يا قلبى.
- اعلم يا من يشوق المسلمين على الدنيا.
- اعلم يا من يدعو المسلمين إلى الدنيا
- اعلم أيها الغافل.
- اعلم أن السموات مصنوعة[1].

ومحورات الشيخ النورسى التى انطلقت من القرآن. اشتملت على هذا المنهج الحق. بكل شعبه وعناصره، ومقوماته، ووسائله.

وتبدو هذه السمات وضيئة ظاهرة، فى كل جانب من جوانب المحاورات التى أدارها.

وذلك لأن الإسلام نظام الحياة الإنسانية، الفاضلة، المستقرة، نظام لحياة الفرد والمجتمع معا.

وإن الإمام النورسى. عمل فيما أجرى من محاورات على تنبيه إرادة الفرد ليأخذ زمام الأمر بيده، ويقوم على تنمية الوعى بالمجتمع، وعلى صيانة هذا المجتمع من الانحلال[2].

---

(١) راجع الإمام النورسى، المصدر السابق جـ ١، ص ٢٦١.
(٢) راجع الإمام النورسى، الشعاعات جـ ٤، ص ٣٤٩، ٣٥٠.

ولذلك تجد أنه فى "الشعاع الثالث عشر" يبعث برسائل كثيرة إلى طلابه. ترسم لهم المنهج السوى. الذى يصل بالناس إلى شاطئ الأمن والاطمئنان.

وفى الشعاع الرابع عشر[1]. يؤكد لطلاب النور: أن رسائله دافع جوانى لمحاورة الناس له بصفة أن النورسى خادم القرآن العظيم.

والشعاعات مدارس تربوية تستهدف التربية القويمة، والخلق الرضى، والسلوك السوى، والأدب الجم، ورياضة النفس.

إن محاورات الإمام النورسى التى جاءت فى الشعاعات أكدت أن جانب الوجدان فى الإنسان ليس هو العاطفة وحدها، ولكنه التفاعل والتحاور مع النفس، ومع الآخر فى مجتمعه، وفى مجال الحياة التى يعيش فيه.

إنه فى الحقيقة إدراك الجمال، والتعاطف معه، وإدراك الحسن، والعمل على أن يكون محسنا.. وإذا قيل الجمال. فهو جمال السلوك، وجمال القوة، وجمال الصنع، وجمال العلاقات مع الغير.

ومما يشد انتباه الباحث فى رسائل النور ما جاء فى "المذكرة الخامسة من اللمعات"[2]. حيث يقول: "حينما سار سعيد الجديد فى طريق التأمل والتفكر. انقلبت تلك العلوم الأوربية الفلسفية وفنونها التى كانت مستقرة إلى حد ما فى أفكار "سعيد القديم" إلى أمراض قلبية. نشأت منها مصاعب، ومعضلات كثيرة فى تلك السياحة القبلية..

فما كان من سعيد الجديد إلا القيام بتمحيص فكره، والعمل على نفضه من أدران الفلسفة المزخرفة، ولوثات الحضارة السفهية.

فرأى نفسه مضطرا إلى إجراء المحاورة الآتية مع الشخصية المعنوية لأوربا. لكبح جماح ما فى روحه من أحاسيس نفسانية منحازة لصالح أوربا..

فهى محاورة مقتضبة من ناحية، ومسهبة من ناحية أخرى.

---

(١) المصدر السابق، جـ ٤، ص ٥٣٣.

(٢) راجع الإمام النورسى، اللمعات جـ٣، ص ١٧٦.

ولئلا يساء الفهم لابد أن ننبه: أن أوربا اثنتان:

– إحداهما: هى أوربا النافعة للبشرية بما استفاضت من النصرانية الحقة، وأدت خدمات لحياة الإنسان الاجتماعية. بما توصلت إليه من صناعات، وعلوم. تخدم العدل والإنصاف.

فلا أخاطب فى هذه المحاورة هذا القسم من أوربا.. وإنما أخاطب.

– أوربا الثانية: تلك التى تعفنت بظلمات الفلسفة الطبيعية، وفسدت بالمادية الجاسية، وحسبت سيئات الحضارة حسنات لها، وتوهمت مساوئها فضائل. فساقت البشرية إلى السفاهة، وأوردتها الضلالة والتعاسة[1].

ويستمر النورسى فى محاورة أوربا الثانية.

قائلا: "يا أوربا الثانية".

يا أوربا التى نأت عن النصرانية وابتعدت عنها.

يا أوربا الثانية الفاسدة إنك تستندين إلى أسس واهية نخرة[2].

فيا أوربا ما ورطك فى هذا الخطأ المشين إلا دهاؤك الأعور.

– يا أيها الأوربا. إنك أخذت بيمينك الفلسفة المضلة السقيمة فى يسارك المدنية المضرة السفهية.

– فيا أوربا أهديت بدهائك الأعور لروح البشر هذه الحالة الجهنمية.

– فيا أوربا تزعم أن كل ذى حياة من أصغر السمك إلى أكبر الملك مالك لنفسه ويعمل لذاته[3].

– مخاطبى ليس ضياء باشا بل المفتونون بأوربا.

– والمتكلم ليس قلبى بل تلميذ القرآن[4].

---

(١) المصدر السابق، جـ٣، ص ١٧٧.

(٢) راجع الإمام النورسى، المثنوى العربى النورى جـ٦، ص ٢٦٨، ٢٦٩.

(٣) الإمام النورسى، اللمعات جـ٣، ص ١٧٧ – ١٨٤.

(٤) الإمام النورسى، الكلمات جـ١، ص ٢٢٨، ٢٢٩.

"ثم ينتهى من هذا الحوار الهائل إلى مقارنة حية تؤكد أن تعاليم الإسلام التى شعرها الخالق لإصلاح حال الخلق. جاءت لتنقل البشرية إلى حياة مشرقة بالفضائل.

وما جاء من مقارنة يضع الإنسان الواعى أمام عظمة مبادئ الإسلام الحنيف لأن هذه المبادئ تسدى المعونة للإنسان كى يدعم فطرته.

ومن المقارنات النافعة التى جاءت فى محاورة النورسى لأوربا.

– إن الذى يتلقى الدروس منك – أوربا الفاسدة – ويسترشد بهديك يصبح فرعونا طاغية. ولكنه فرعون ذليل، وتلميذك متمرد ولكنه متمرد مسكين.

– أما التلميذ المخلص الخالص للقرآن الكريم. فهو عبد عزيز وهو لين هين ولكنه لا يتذلل لغير فاطره الجليل، ولغير أمره وإذنه. فهو صاحب همة عليا، وعزيمة صادقة.

– إن تلميذ الفلسفة يفر من أخيه أثرة لنفسه، ويقيم عليه الدعوى. أما تلميذ القرآن. فإنه يرى جميع عباد الله الصالحين فى الأرض والسموات إخوانا له، ويشعر من أعماق روحه بأواصر شوق تشده نحوهم[1].

ومما لفت نظرى، وشد انتباهى فى محاورته ما أشار إليه من أن أوربا اثنتان:

– أوربا النافعة. – وأوربا الفاسدة.

وقد كشف النورسى فى وضوح عن مساوئ أوربا الفاسدة. ولذلك حرص على أن يحذر الأمة من تقليدها فى هذا الجانب.

وأوربا الفاسدة عملت ما فى وسعها لإذابة الشعوب، وانسلاخها عن عقائدها، ومذاهبها، وحضارتها. لتصبح مسخا شائها تابعا لغيره.

لقد عمل الفساد من الفاسدة على تضليل المجتمعات الإنسانية وخداعها، والتمويه عليها، وقلب الحقائق، وتشويه الحقيقة، وتصنيع الكلمة، وزخرفة القول،

(١) الإمام النورسى، اللمعات جـ٣، ص ١٧٧ – ١٨٤.

والدخول إلى المخاطب من نقطة الضعف، والاستغفال لإغرائه، والإيقاع به.

ولكم تهاوت أمم، وشعوب، وأجيال - قلدت الفاسدة في فسادها - وتساقطت في هاوية الضلال والانحراف، والفساد الخلقي، والعقدي، والاجتماعي. بسبب تصورات "الفاسدة" المزخرفة، الخداعة. التي يرقص السذج، والجهال على نغم إيقاعها.

ولكم عاني الإنسان والمجتمعات والشعوب من أولئك الذين يصنعون والفساد، ويصدرونه في موجات. تقتحم الديار والبيوت.

لقد قيدت الإنسانية إلى هاوية الضلال، والانحراف.

ولقد كانت لصناعة الفساد في كل جيل وفي كل عصر دور تخريبي في حياة الناس.. إلا ان البشرية لم تشهد في مرحلة من مراحل حياتها. وضعا كان فيه للفساد خبراء، ومتفلسفون، وأجهزة، ومؤسسات. كالعصر الذي شهد جزءا منه الإمام سعيد النورسي. حيث اتخذ الفساد صبغة الفلسفة، والنظرية، والمبدأ الذي يقتنيه الأتباع.

ولقد بدا لي واضحا ان الإمام بديع الزمان سعيد النورسي لم يستسلم لهذه التيارات. ولذلك بعد أن كشف عنها في محاوراته. وضع الأساليب المثلى لمن يريد من أبناء الأمة تطهير المجتمعات منها. وتجد أساليبه ومواجهته واضحة فيما يلي:

- نوافذ النور.
- مفاتيح النور.
- نور المعراج.
- كنت أبحث عن النور.
- لا أشبع من مطالعة الرسائل.
- الرسائل من العلوم الإيمانية.
- الرسائل مرشدة.

- الرسائل قوت وغذاء.
- العقل والقلب معا فى رسائل النور.
- مهمة رسائل النور.
- النساء فى طريق النور.
- الحاجة إلى رسائل النور.
- العلاج الوحيد : رسائل النور.
- الالتحاق برسائل النور.
- انتصار رسائل النور.
- رسائل النور سانحات قلبية.
- الحقيقة القرآنية فى الرسائل.
- حسن مسبق برسائل النور.
- الرسائل تؤدى المهمة.
- مكاسب العمل لرسائل النور(١).

وقد لا يكون المرء مجانبا للصواب إذا تأكد لديه أن هذه الرسائل النورانية جاءت لمواجهة تحديات العصر.

ورسائل الإمام بديع الزمان سعيد النورسى - والتى أشرنا إلى بعض منها - جاءت لتؤكد للناس وللمجتمعات : أن الأمة الإسلامية أمة المعيارية. ويكاد أن يكون مفهوما.. أن الأمة الإسلامية هى أمة المعيار الذى وكل إليها أمر الشهادة على الناس، والقيادة بهم. بما تمتلك من قيم معصومة محفوظة فى الكتاب والسنة.

والمعيارية فى شخصية الأمة، والتى جاءت كليات رسائل النور تكشف عنها تعنى : أن الأمة الإسلامية فى أفرادها ومجموعها تبقى بمأمن من التحديات. لأنها عند التزامها بقيمها تعرف. ماذا تأخذ، وماذا تدع.

---

(١) الإمام النورسى، الملاحق جـ ٤، ص ٢٧ - ٢٨٧.

فالتحديات الفاسدة - من أوربا الفاسدة[1] - وغيرها - لا تستطيع فى ظل تمسك الأمة بمعياريتها. أن تذيب ثقافة الأمة ولا أن تلغى هويتها، ولا أن تسيطر على قيمها.

ويكاد يكون مفهوما: أن التحديات الفاسدة إنما تمتد ابتداء فى داخل المجتمعات الفاقدة للمعيار، ومركز الرؤية.

لذلك تتركز وسائل التحديات فى محاولة إخراج الامة عن قيمها المعيارية. لتصبح مهيأة لتقبل ما يلقى إليها. دون القدرة على اختياره ومعايرته بالشكل المطلوب.

إن إشراقات ولمعات النور التى وضعها النورسى تعتبر من المنبهات الثقافية والمواجهات الضرورية. لإعادة شحذ الفاعلية، واستعادة بناء الذات، وإنهاء حالة الاسترخاء، والكسل.

ويؤكد النورسى فيما ذكره من رسائل المواجهة: أنه لا توجد مدرسة تتناول بالرعاية والعناية النفس الإنسانية. كمدرسة الإيمان. لأن الإيمان يخط المسار، ويضع المنهاج، ويحول بين النفس وبين دواعى الانحراف. بما توفر من قيم فعالة، تعالج ما قد يبتلى به الإنسان.

وقد لا يكون المرء مجانبا للصواب. إذا ما تأكد لديه. أن ما تعانيه المجتمعات من هزائم فكرية، واجتماعية وغيرها هو نتيجة لانهدام الشخصية أمام المفاسد.

إن الحضارة وصلت إلى اعلى مستوى من الرقى العمرانى، والتقدم العلمى الهائل. ولكن قصة البشرية رغم التقدم الحضارى فيها مساوئ كثيرة زلت فيها أقدم البشر، وضاعت عقولهم.

فقد أطلقت الحضارة فى جانبها الإفسادى حرية الإنسان، وحررت غرائزه من كل ضابط.. وتحولت الحريات إلى انحراف فى الغريزة، وإلى شذوذ فى الطبيعة، وإلى عدوان على حريات الآخرين..

---

(١) أوربا الفاسدة فى حوار الإمام بديع الزمان سعيد النورسى تبقى رمزا لكل مفسد فى الأرض.

ومن تعاسة الحضارة المادية. أنها عكست كرائم النعم. عكسا أسقط الإنسان فى وديان الهلاك والدمار. وسقطت بالإنسانية دون عالم الحيوان، فراجت خسائس العادات، وذمائم الصفات.

لقد راجت العلوم بلا ريب. ولكن هذه الحضارة. التى علمت الناس كيف يسبحون فى الماء بالغواصات، وكيف يطيرون فى الفضاء، وفى الهواء، وفوق السحاب، وعلى كواكب المجموعة الشمسية. عجزت حتى اليوم عن تعاليم أبنائها وشعوبها كيف يسيرون على الأرض فى طريق الخير بغير عوج والتواء..[1].

ويقينا جاءت الخطوات الست فى كليات وسائل النور لتحرير الإنسان.

- لأن أول دعامة فى منهج النورسى هى:

تحرير العقل والفكر وإن شئت فقل: تحرير الإنسان من أصفاد الجهل وظلمته. لأن الجهل يقتل مواهب الفكر، والنظر، ويطفئ نور القلوب، ويعمى البصائر، ويميت عناصر القوة والحياة، ويفسد على الناس مناهج الاستقامة.

- وثانى دعامة هى: تحرير الإنسان من أغلال الحجر العقلى، وسيطرة التبعية العمياء.

- والدعامة الثالثة: تحرير الإنسان من طاعة الأهواء والانقياد الأعمى لمغرياتها. لأن طاعة الأهواء من أقوى عوامل انحراف الإنسان فى سلوكه، والتوائه فى نظره وتفكيره.

وهؤلاء الذين يطيعون الأهواء لا يستقيم لهم رأى، ولا تعتدل لديهم موازين، ولا يخضعون لحق ليس فى جانبهم.

والمتأمل فى الخطوات الست التى جاءت فى صيقل الإسلام. يجد أنها تؤهل الإنسان للعطاء، وتنمى فيه القدرة على الإبداع بما تفتح له من آفاق التفكير..[2].

---

(١) الإمام النورسى، صيقل الإسلام جـ٨، ص ٥٥١.

(٢) الإمام النورسى، اللمعات جـ٣، ص ١٧٧.

وقد كان لابد أن أعود إلى المذكرة الخامسة من اللمعات حيث وجدنا أن النورسى حاور أوربا الثانية التى تعفنت. ولم يحاور أوربا النافعة للبشرية.

إذن كانت محاورته لأوربا الثانية من أجل إنقاذ الإنسان. لأن الإنسان فى التصور الإسلامى قمة الكائنات الحية التى تعيش على وجه البسيطة، وأفضلها، وأكرمها. لما أودعه الله فيه من مزايا، وميزه من صفات.

والباحث بعمق يجد أن تفكير الإمام النورسى التقى مع تفكير الفيلسوف القرطبى ابن رشد حيث قال: "إن ألفينا لمن تقدمنا من الأمم السابقة نظرا فى الموجودات، واعتبارا لها بحسب ما اقتضته شرائط البرهان. أن ننظر فى الذى قالوه من ذلك، وما أثبتوه فى كتبهم.

فما قالوا منها موافقا للحق قبلناه منهم، وسررنا به، وشكرناهم عليه،. وما كان منها غير موافق للحق نبهنا عليه، وحذرنا منه، وعذرناهم"[١].

وإذا كان النورسى لم يحاور أوروبا النافعة[٢]. فإن ذلك راجع إلى إيمانه العميق بأن الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها[٣].

ويكاد أن يكون معروفا عند أهل العلم. أن التقاء الحضارات – وهو معلم من معالم التاريخ الحضارى للإنسانية، وتفاعل هذه الحضارات عندما تلتقى – هو قدر لا سبيل إلى مغالبته أو تجنبه.

والحضارة الإسلامية هى عمارة الأرض، وترقية الحياة على ظهرها خلقيا، وعلميا، وأدبيا، وفنيا، واجتماعيا. وفق منهج الله.

وبناء على هذا المفهوم فإن المجتمع الإسلامى هو المجتمع المتحضر. لأن المجتمع المتحضر هو الذى تكون القيم الإنسانية، والأخلاق الإنسانية هى السائدة فيه[٤].

---

(١) ابن رشد، فصل المقال ص ١٧، ط بيروت.

(٢) أوربا النافعة: تبقى رمزا لكل ما هو مفيد.

(٣) جزء من حديث رواه الترمذى وابن ماجة..

(٤) أنظر الدكتور على أحمد مدكور، الثقافة والحضارة، مجلة الدارة ع ٤٤ ص ٥٢ السعودية.

ولا يفوت الباحث. أن يدرك: أن الإسلام حين يدخل المجتمعات البدائية ينشئ الحضارة المناسبة لهذا المجتمع.

وحين يدخل المجتمعات المتقدمة صناعيا أو زراعيا أو غير ذلك. فإنه يستخدم ما لديها من معطيات ويقيم حضارة هذه المجتمعات مستفيدا مما لديها.

وحين يحتك بمجتمعات متقدمة فى ألوان من العلوم والفنون – كأوربا النافعة التى أشار إليها النورسى – فإنه يأخذ منها ما يتوافق مع قيمه ومبادئه.

وإذا كان هذا هو مفهوم المجتمع المتحضر. فإن التخلف الحقيقى. هو تحويل منجزات العلم الهائلة إلى قوى باغية للتدمير والتسلط، وتسخير إمكانيات العلم غير المحدودة فى نشر الفوضى، والعادات غير الخلقية بدلا من استخدامها فى إعلاء القيم الإنسانية..

إن مهمة العلم فى مفهوم المجتمع الإسلامى المتحضر. ليست قهر الطبيعة أو الانتصار عليها. بل التلطف مع الطبيعة، والجد فى اكتشاف قوانين الله فيها[1].

وإذا كان هذا هو عمل الإسلام حينما ينشئ حضارة. فإن هذه الحضارة التى دعا إليها. تتميز بأنها منفتحة الحدود الفكرية والنفسية، والمادية.

ويبدو لى أنه لهذا السبب. لم يحاور الإمام النورسى "أوربا النافعة" وكأنه أراد بهذا أن يعلم الناس: أن الحوار يكون فيما هو بعيد عن المسلمات. لأن المسلمات لا تحتاج إلى حوار. فحوارها هو التفاعل معها، واللقاء.

أما أوربا غير النافعة. فلابد من الحوار معها. لأن الإنسان الواعى، المدرك لرسالته فى الحياة. لابد أن يراعى حدود الروابط الإنسانية. وأن يتبادل مع هذا الغير الشعور الإنسانى الكريم.

ومحاورة أوروبا غير النافعة. يعنى أن هناك تجاوب إنسانى وقائى تستريح إليه

---

(١) راجع المصدر السابق.

النفوس، وترضى عنه. وذلك لأن الإسلام الحنيف دين يهتم بالروح، كما يهتم بالجسد. دين يرنو إلى الغايات، والقيم الفاضلة. ويتوخى فى محاوراته: سلوك الحياة المثلى. بعيدا عن المغريات، وشهواتها المردية.

ولا ريب أن هذا النوع من الحوار. يؤدى إلى التطلع الذى يرقى بالإنسانية. وكل ما يرقى بالإنسانية يجد الناس فيه راحتهم وهدوئهم. كما يضع أمام الناس علامات مضيئة. يجدون فيها ثباتهم، وتشع على سلوك المؤمنين انعكاسات مشرقة من عالم الاستقرار والطمأنينة.

وإذا كان الإمام النورسى لم يحاور أوربا النافعة. لأن حوارها أن يتفاعل معها أصحاب الحضارات.. فإن الإسلام الحنيف دعا إلى الاستفادة من كل ما هو مفيد.

ومن يتعمق غاية الحوار القرآنى الذى انطلق منه النورسى. يجد أن هذا الحوار يهدف إلى غاية تتضمن توضيح المعانى، وإغناء المفاهيم، وتكامل الوعى الإنسانى.

ولا شك أن المجتمعات والأمة إذا وضحت أمامها المعالم استطاعت أن تخرج من غربتين:

- غربة الزمان.
- وغربة المكان.

أما غربة الزمان. فهى بعد الأمة عن ماض حضارى مشرق. لم تعد تربط الأمة به عوامل الثقافة الفاعلة البانية.

وأما غربة المكان. فهى بعد الأمة عن وضع حضارى معاصر تجهل عنه كل شيء مما مثل فجوات حضارية كبرى. ليس من السهل على الأمة الإسلامية تجاوزها أو تجاهلها.

ولذلك كان لابد لهذه الأمة فى مفهوم الإمام بديع الزمان سعيد النورسى. أن تعود إلى التفاعل الحضارى، وتخرج من الاغتراب الزمانى والمكانى[1].

---

(١) الإمام النورسى، صيقل الإسلام جـ٨، ص ٥٥١.

وليس هناك من وسيلة فى فكر النورسى غير الفهم الصحيح للدين، والأخذ بالعلم فى إطار من حرية الفكر، وسياسة عقلانية، وتسامح مستنير.

وقد يدرك أهل المعرفة. أن التفاعل الحضارى ضرورة إنسانية. لابد منها لقيام المجتمعات، وتقدم الإنسان. فى كل ما من شأنه أن يأخذ بيد الإنسان، ويشيع فى المجتمعات الإنسانية: الأمن، والاستقرار.

وإذا كان الحوار ضرورة حياتية. فإن الانغلاق قاتل للإنسانية، والتبعية الحضارية هى الأخرى. قاتلة لكل إبداع.

ولعل الباحث يدرك أن الإمام سعيد النورسى لا يريد للأمة أن تنغلق على نفسها. لأن الانغلاق ليس بالموقف اللائق بالعقلاء..

وكذلك التبعية الفكرية والحضارية. ليست بمفيدة أو ملائمة لمن يمتلكون خصوصية حضارية إسلامية.

والعزلة الحضارية والجهل صنوان.. كلاهما تخلف.. وكلاهما حجاب يمنع وصول الضوء. وكلاهما عقبة كأداء فى طريق التقدم والتطور..

ويكاد يكون مؤكدا.. أنه لا توجد حضارة قامت بذاتها، واكتفت بذاتها، مستغنية عن غيرها.. وإنما هى نتيجة تطور حضارى دائم، وتفاعل وحوار بين حضارات أخرى تفاعلت هى بدورها مع غيرها من الحضارات فى الزمان والمكان.

والنمو الحضارى إنما يعتمد على التجارب الحضارية الأخرى. وكلما ازدادت فرص الالتقاء والتحاور. ازدادت فرص الحياة والنمو، والاكتساب، والتعلم.

ومن يتأمل كليات رسائل النور. يجد أن الأمة الإسلامية تملك رصيدا ضخما من القيم الهادفة، وتوجيهات الإسلام.

وهذه القيم كفيلة عند استثمارها بأن تجعل الأمة الإسلامية فى وضع يسمح لها بأن تنمى فلسفتها الحضارية، والفكرية، والثقافية، وتتسابق مع أمم الأرض فى بناء حضارة إنسانية.

والأمة الإسلامية وهى تتطلع إلى مستقبل مشرق. لابد وأن تخوض معركة بناء الذات وتجديدها. من خلال الحوار الذى دعا إليه الإمام الحكيم النورسى، مسوقة بقيم، وأفكار، ومواريث، لها فى وعيها فاعليتها القوية البانية.

بقلم الدكتور/ أحمد عبد الرحيم السايح (*)

(*) ولد فى عزبة السايح – مركز أبو تشت – محافظة قنا.
تاريخ الميلاد: ١/٩/١٩٣٧
المؤهل: الدكتوراه فى العقيدة والفلسفة. فى كلية أصول الدين القاهرة – جامعة الأزهر
العمل: أستاذ فى كلية أصول الدين جامعة الأزهر وجامعة قطر وجامعة أم القرى مكة المكرمة.
العنوان: القاهرة – بريد مساكن مدينة نصر – ص ب ٨٠١٢.

إن الخطاب القرآنى هداية ربانية تجسد الرحمة الإلهية، ودين إلهى ينظم الحياة الإنسانية فى جميع جوانبها وكافة ميادينها، ولذا اهتم القرآن أول ما اهتم بتحرير العقل البشرى والفكر الإنسانى من الأساطير والأوهام، ووجهه توجيها يتمشى مع طبيعة الخلق وحقيقة الفطرة على أسس واضحة المعالم، ثابتة على مفاهيم بينة المسالك.

لأن سلامة العقل هى التى تتوقف عليها دلالة النص وفهم المعنى المراد، ولأن المخاطب بالخطاب القرآنى "الوحى" أولا وآخرا هو العاقل أى ذلك الذى يتمتع بالأداء الفعلى لقواه العقلية.

نعم لقد حرر الخطاب القرآنى العقول من أغلال الوثنية وحطم كافة الفلسفات الوضعية الجاهزة، ومنح المسلمين حرية التفكير وحرية العقيدة فكان المسلمون الأولون هم قادة أهل الأرض بقدر علمهم وعملهم بتعاليم القرآن الذى هو الترجمة الأزلية لكتاب الكائنات.. والمفتاح لحقائق الشئون المضمرة فى سطور الحادثات.. والقول الشارح والبرهان القاطع.. والترجمان الساطع لذات الله وصفاته وأسمائه[1]. كما أنه كتاب الشريعة التى هى بسعة دساتيرها وقوتها تشير إلى أنها نظام الكون ومن وضع خالق الكائنات كما يقول صاحب كليات رسائل النور: إن ناظم الكائنات بهذا النظام الأتم الأكمل هو ناظم هذا الدين بهذا النظام المعجز[2].

وكما أنه كتاب ذكر كذلك هو كتاب فكر، وكما أنه كتاب واحد إلا أن فيه كتبا كثيرة فى مقابلة جميع حاجات الإنسان التى توصله إلى السعادة فى الحياة الدنيا والنعيم فى الحياة الآخرة.

ولذا كان أثر الخطاب القرآنى بارزا فى إيقاظ الوعى الإنسانى بأبعاده المتعددة التى تتلخص فيما يلى:

---

(١) راجع بديع الزمان سعيد النورسى مجموعة كليات رسائل النور، مجلد إشارات الإعجاز جـ ٥، ص ٢٢.

(٢) المرجع السابق. وراجع المكتوبات والملاحق.

أولا : الكتاب المقروء ممثلا فى الكتاب المنزل قال تعالى : ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ (سورة الحجر آية ٩).

ثانيا : الكتاب المفتوح وهو الكيان المشهود ممثلا فى الكون كله. قال تعالى : ﴿ **سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم** ﴾ (سورة فصلت آية ٥٣).

ثالثا : الكيان الناطق ممثلا فى القدوة المعصوم وهو الرسول ﷺ وسنته الشريفة القولية والعملية قال تعالى : ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾ (سورة الأنبياء آية ١٠٧).

• ماهية الخطاب القرآنى وأهميته:

قضت مشيئة الله تبارك وتعالى خلق بنى البشر بعقول ومدارك متباينة إلى جانب اختلاف الألسنة، والألوان، والمنطلقات والأفكار.

وهذه وتلك تفضى إلى تعدد الاتجاهات والأحكام، وتختلف باختلاف قائليها، وإذا كان اختلاف ألسنتنا ومظاهر خلقنا آية من آيات الله، فإن اختلاف مداركنا وعقولنا وما تثمره تلك المدارك والعقول آية من آيات الله كذلك، وبرهان من براهين قدرته البالغة.

ولذا يقول الإمام بديع الزمان : إن الخطاب القرآنى يخاطب كل طبقة من طبقات البشر فى كل عصر من العصور وكأنه متوجه توجها خاصا إلى تلك الطبقة بالذات. إذا لما كان القرآن يدعو جميع بنى آدم بطوائفهم كافة إلى الإيمان الذى هو أسمى القضايا وأدقها وإلى معرفة الله وأنوارها، وإلى الأحكام الإسلامية التى هى أهم المعارف وأكثرها تنوعا. فمن الألزم أن يكون الدرس الذى يوجهه لتلك الطوائف من الناس، درسا يوائم فهم كل منها[1]. كما يقول : إن الخطاب القرآنى يوقفنا على الترجمة الأزلية لهذه الكائنات.. نعم إنه يمثل لسان الغيب فى عالم الشهادة ثم يقول : وكما أنه كتاب واحد فإنه فيه كتبا كثيرة[2].

(١) راجع بديع الزمان، كليات رسائل النور.

(٢) راجع كليات رسائل النور، مجلد الكلمات ٢٧٤، ٤٢٤.

ولذا يدلل بديع الزمان على تميز الخطاب القرآني وشموله لطوائف بنى البشر فيقول: "والحال أن الدرس واحد، وليس مختلفا، فلابد إذن من وجود طبقات من الفهم في الدرس نفسه، فكل طائفة من الناس حسب درجتها تأخذ حظها من الدرس ومن مشهد من مشاهد القرآن الكريم[1].

كما يفيد أن المحاورة في خطاب القرآن الكريم لم تأت عرضا وإنما تمثل مغزى وهدفا أساسيا من أهداف القرآن التي تبعث إلى تحقيق جوانب الإصلاح والخير للأفراد والجماعات. ولذلك تتناول البيان القرآني لتدعيم أصوله وفروعه جملة وافرة من الوسائل التعليمية[2]. التدعيمية، وما من أساس أو تكليف إلا وقد سبقه معه ما يثبته ويؤكده ويلطف منه إن كان خيرا، وينفر منه إن كان غير ذلك بوسيلة من وسائله المتعددة.

وعلى ضوء ما تقدم فالمستقرئ لآيات الخطاب القرآني يقف على صدق ما أشرنا إليه من التنوع وأنه لم يقف عند درجة واحدة أو يقتصر على جانب معين كأمور الحياة الدنيا أو أمور الآخرة بل نجد فيه كل جوانب هذه وتلك.

ولذا عمل بديع الزمان على إيقاظ الخطاب القرآني في كافة الجوانب لتوحيد قبلة الفكر. التي جمعها الخطاب القرآني في تعاليمه وآدابه وتشريعاته.

ومن الواضح أن الخطاب القرآني أسس بنيان الفكر الإنساني وتوجيهات العقل البشري على الوحي الإلهي المعصوم ممثلا في كتاب الله المقروء وكتاب الله المنظور فحمى بذلك العقل من الحيرة والضلال في قضايا لا يقدر على الاستقلال بها، أو الكشف عنها كمسائل الغيب بالتعبير القرآني أو "عالم ما وراء الطبيعة" بالتعبير الفلسفي.

ولذا كان للخطاب القرآني دوره في إرشاد العقل إلى الطريق الأقوم، ودله على المنهج الأسلم في فقه القضايا التي لا يستطيع العقل الاستقلال بها لأنه يفقد فيما

---

(١) كليات رسائل النور، مجلد الكلمات.

(٢) ومن هذه الوسائل القصة والقسم والاستدلال والحكم والأمثال والتأكيد والتكرار وتعليل الأحكام وتعدد ألوان الخطاب وغير ذلك من فنون البراهين البالغة في كل حال حد الإعجاز.

يصل إليه بشأنها من نتائج عنصر "الإلزام" وبالتالى لا يستطيع أن يضعها موضع العمل والتطبيق، أى أن العقل قد لا يستطيع أن يستقل بموضوعات تتعلق بالتشريعات والسلوكيات:

يرسم مسالكها ويحدد مسارها، ويبين لها مناهجها، وينتهى إلى نتائج بشأنها، لكن هذا العقل المجرد فى صورته الفردية أو الجماعية لا يملك عنصر "الإلزام" الذى لا يتصور بدونه قيام تشريع ناجح ملزم، أو سلوك موجب فعال، والذى يملكه إنما هو الخطاب الإلهى المعصوم، ويمنحه للفكر المعتصم به[1].

فالخطاب القرآنى عندما يتعامل مع موضوع من الموضوعات التى يتعرض لها يتعامل معه فى إطار الوحى ابتداء أو استنادا أو استمدادا بحيث لا يخرج فيما يصل إليه من نتائج عن الوحى المعصوم.

إن هذا التفرد للخطاب القرآنى قد منحه خصوصية جوهرية وهى القدرة على التعامل مع الموضوعات المختلفة فى مجال الطبيعة وما وراء الطبيعة فى ثوابتهما ومتغيراتهما بدون الوقوع فى براثن التناقض، وهو الأمر الذى عجزت عنه الفلسفات القديمة والحديثة والنظم الوضعية.

إن الجمع بين الثبات والتطور فى دنيا الإنسان والكون وبين عامل الشهادة وعالم الغيب وبين المادة والروح تحت مظلة العقيدة الإسلامية فى صفائها ونقائها وتنزهها يعد من خصائص الفكر الإسلامى وأهم مميزاته.

إن العلم الذى يكشف لنا الغاية الإلهية من خلق الكون والهدف النهائى من هذا الخلق هو نفسه مهمة الإنسان ووظيفته وعبادته كذلك.

ولذا يوجه الخطاب القرآنى الأنظار والعقول إلى هذه الغايات ويحث الإنسان على الوصول إلى هذه الحقائق عن طريق العلم وعن طريق التقدم

ومن هنا لم تكن الصبغة الأساسية فى الخطاب القرآنى المعرفى هى منهج "الثوابت" الذى يمثله منهج أرسطو أو منهج المتغيرات الذى يمكن أن نراه عند

(١) دكتور دين محمد ميرا صاحب – مفهوم الفكر الإسلامى ص ٦٠.

"هيجل" إنما كانت صبغة فريدة تجمع بين الجوانب المتعددة لقوى الإنسان وإدراكاته.

فالمنهج الإسلامى فى المعرفة ليس عقليا خالصا، ولا تجريبيا صرفا أو مثاليا موغلا أو حسيا متطرفا..

وهذه المناهج كلها التى مثلتها وتمثلها "مدارس فلسفية فى الشرق والغرب" خارج الفكر الإسلامى تعجز عن التوفيق بين قوى الإنسان المختلفة وملكاته ودوافعه وانفعالاته المتنوعة فضلا عن عجزها عن التوفيق بين الإنسان والكون الذى يعيش فيه والعوامل والظواهر المحيطة به.

• براهين الارتباط بين الكون المقروء والمنظور:

أولا: إن الخطاب القرآنى كان أول بيان إيمانى دعا الإنسان للعلم والتعلم، وللوصول إلى هذه الغاية تناول كل الوسائل الملائمة لكينونة الإنسان وتكوينها المادى والروحى وفى مقدمة تلك الوسائل:

١ – إثارة وتنبيه ما هو كامن فى الإنسان من غريزة حب الاستطلاع فيما يرى.. ويدرك.

٢ – إثارة ما هو مجبول عليه من حب التجمل بالعلم، والتمكن من المعرفة، وكراهية الجهل.

٣ – إثارة ما جبل عليه من حب لذاته، والحرص على استمرار نوعه، والسعى إلى قضاء مآربه وتحقيق مصالحه.. وتعريفه بأن القضايا التى يطالبه القرآن بالنظر فيها، وتتبع أطوارها إنما هى مخلوقة من أجله ومسخرة لمنفعته، وأن الغاية المباشرة لها تكمن فى توفير كل ما يحتاج إليه من ضروريات وحاجيات وكماليات.

ومن دلائل البيان الأولى:

قول الله تعالى: ﴿ **ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى إلى أجل مسمى وأن الله بما تعملون خبير** ﴾ (سورة لقمان، الآية ٢٩).

وقوله تعالى: ﴿ **ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الأرض ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يجعله حطاما إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب** ﴾ (سورة الزمر، الآية ٢١).

ومن دلائل البيان الثانى:

قول الله تعالى: ﴿ **قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب** ﴾ (سورة الزمر، الآية ٩).

وقوله تعالى: ﴿ **يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير** ﴾ (سورة المجادلة، الآية ١١).

ومن دلائل البيان الثالث:

قول الله تعالى: ﴿ **فلينظر الإنسان إلى طعامه، أنا صببنا الماء صبا. ثم شققنا الأرض شقا. فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا. وزيتونا ونخلا. وحدائق غلبا. وفاكهة وأبا متاعا لكم ولأنعامكم** ﴾ (سورة عبس، الآية ٣٣).

وقوله تعالى: ﴿ **وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون. وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب. وفجرنا فيها من العيون. ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون** ﴾ (سورة يس، الآية ٣٥).

ومن هنا خاطب الإمام بديع الزمان الإنسان قائلا له: إن كنت تروم الحصول على علم الحقيقة والحكمة فاظفر بمعرفة الله إذ حقائق الموجودات كلها إنما هى شعاعات اسم الله الحق ومظاهر أسمائه الحسنى وتجلياته صفاته الجليلة (؟؟؟؟).

ولذا انطلقت رسائل النور من البيان الإيمانى للخطاب القرآنى فى تأسيس اليقين، عن طريق الربط بين وسائل الإدراك والشريعة الفطرية من جانب والشريعة الكونية والطبيعية من جانب آخر وذلك عن طريق تجلية الفطرة التى فطر الله الإنسان عليها والدعوة إلى إيقاظ الوعى الإيمانى وربط المخلوق بخالقه عن طريق التكامل بين دائرة التكاليف الإيمانية والعملية.

وهذا البيان الواضح لرسائل النور يأخذ بيدنا وبيد القارئ إلى النتيجة التالية:

وهى أننا لكى نفقه قوانين الفطرة فعلينا بمراجعة آيات القرآن الكريم.

وعندما نقرأ كليات رسائل النور نقف على أن الأساس الذى أقيمت عليه هو إيضاح قوانين الفطرة السارية فى الكون وفى الإنسان، ولما كانت هذه الرسائل تفسيرا حقيقيا ومعنويا للقرآن الكريم، لذا فإن غايتها هى قراءة كتاب الكون وبيان هدف الفطرة ونتيجة الخلق ومصيرها.

ذلك لأن الله سبحانه وتعالى خلق الكائنات من أجل الإنسان، وخلق الإنسان لمعرفته ومحبته.

لقد انطلق بديع الزمان فى بيانه الإيمانى من فيض القرآن إلى أعماق النفس والوجدان من جانب، والآفاق المرئية والمدركة من جانب آخر. فى ترابط ينير الطريق للعقل ويريح القلب عبر نظرة واحدة فى جوانب المعرفة الكونية التى تشرف على الكائنات من خلال قول الله تعالى: ﴿**الله نور السموات والأرض**﴾[١].

ومن هنا يوقظ بديع الزمان سعيد النورسى فى إدراك كل من يأتى ضيفا إلى مملكة هذه الدنيا ويحل فى دار ضيافتها. أنه كلما فتح عينيه ونظر وفكر يقف على منافذ فكرية متشعبة الجوانب، ومفاتيح إيمانية تحمل الكثير من الأفكار والأحاسيس والمشاعر فى وحدة معرفية متشابكة الجذور وتوحد ذاتى لا يعرف الانقسام بين جوانب النفس المتعددة، فأفكاره وأحاسيسه ومشاعره يموج بعضها فى بعض ويندرج بعضها ببعض ويشد بعضها أزر بعض.

وما كل ذلك إلا لأنه قد وهب نفسا تواقة إلى حقائق الحياة والوجود، كما منح عقلا مسئولا ينبغى أن يدفعه عن الخوض فى الضحضاح من المفاهيم والأفكار الجاهزة المجافية للفطرة من جانب وللدين من جانب آخر[٢].

---

(١) سورة النور، الآية ٣٥ وراجع بحث المؤتمر العالمى الثالث لبديع الزمان سعيد النورسى بعنوان أضواء على حقيقة التوحيد فى فكر النورسى، الدكتور سامى حجازى، ص ٧٠، ط الأولى ١٩٩٦.

(٢) راجع الأستاذ، أديب إبراهيم الدباغ، مطارحات فى المعرفة الإيمانية عند النورسى، ص ٧، ط الأولى ١٩٩٧م.

كما ينبغى أن يدفعه شغفه بالحقيقة إلى الكشف عنها بنفسه كما هى كتاب الكون المنظور الذى فسر براهينه كتاب الله المقروء (القرآن الكريم) قال تعالى: ﴿ **ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾ (سورة البقرة، الآية ٢). وقال تعالى: ﴿ **إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم** ﴾ (سورة الإسراء، جزء من الآية ٩).

فكان الإسلام شاملا للمنهج الإلهى فيكتاب الله المنظور كما هو فى كتاب الله المقروء ﴿ **القرآن الكريم** ﴾ خاتمة هدايات الله للبشر قال تعالى: ﴿ **قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم** ﴾ (سورة المائدة، الآية ١٦).

ومن هنا يتضح شمول رؤية بديع الزمان للربط بين الكتاب المقروء والكتاب المنظور وأن كليهما مفتاح للآخر، فمفتاح الكون المنظور هو القرآن الكريم الذى يأمر بالنظر فى آياته المتعددة من الليل والنهار والشمس والقمر.. ومفتاح القرآن الكريم هو نفسه وآفاقه.

لقد كان الإمام بديع الزمان سعيد النورسى بثاقب فكره وقوة حجته قد غطى معظم قضايا هذا الدين وتناولها بالبحث والدراسة والتحليل القائم على الربط بين الشريعة الكونية والشريعة القرآنية فى مؤلفاته مجموعة كليات رسائل النور، التى تشتمل على غرر الفوائد التى هى للدين قواعد، فكانت الكلمة رائدة فى إرساء المعالم والعلامات المضيئة التى تتمحور حول بيان ماهية الإيمان كما هى فى السؤال التالى:

كيف يمكن للمسلم أن يعرف بإيمان؟ أو أن يؤمن بمعرفة؟

وبصيغة أكثر وضوحا.

كيف يستطيع أن يجعل من الإيمان طريقا إلى المعرفة؟.

ومن المعرفة طريقا إلى الإيمان؟

وفى البيان بهذا السؤال تتلخص المعرفة الإيمانية التى خط بديع الزمان ملامحها، وأقام أركانها انطلاقا من قوله تعالى: ﴿ **سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم**

حتى يتبين لهم أنه الحق﴾ (سورة فصلت، الآية ٥٣). حيث يرى فى ضوء هذه الآية: أنه ما من معرفة مما تتبادلها العقول فيما بينها إلا وترجع فى أصولها الأولى إلى واحدة من المعارف الثلاث التالية:

١ - معرفة كونية تشمل علوم ما فى السموات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى.

٢ - معرفة إنسانية تشمل الكينونة الإنسانية وكل ما يتعلق فردا وتوعا ظاهرا وباطنا.

٣ - معرفة إلهية ترتبط بوجود الله تعالى وبربوبيته وشئونه فى خلقه.

هذه المعارف الثلاث متلازمة بعضها بعضا، ويؤيد بعضها بعضا ويدل بعضها على بعض وهى فى ارتباط دائم لا ينقطع، فكونى مؤمنا يلزمنى أن أعرف، لأن المعرفة تقوينى وتعلمنى، لماذا يجب أن أكون مؤمنا؟

وكونى أعرف بصدق وحق، فإن معرفتى تغدو درجات فى سلم ارتقائى إلى معرفة أسمى هى معرفة الله تعالى. وكونى إنسانيا مهتما بشئون الإنسان وبكينونته ووجوده ومصيره، ومتعرفا على سر ما ينطوى عليه باطنه من عوالم وأكوان رغم صغر حجمه ستفضى بى هذه المعرفة حتما إلى معرفة خالق الإنسان وموجده.

وهذه المعارف الثلاث:

- المعرفة الكونية.
- والمعرفة الإنسانية.
- والمعرفة الإلهية.

يرتبط بعضها ببعض كالمقدمات بالنسبة للنتائج.

أى إما أن تكون معرفة الكون والإنسان طريقنا إلى الإيمان، أو يكون الإيمان طريقنا إلى معرفة الكون والإنسان.

فمن أى واحدة منهما يبدأ رحلته المعرفية فإنه سينتهى لا محالة إلى المعرفتين

الآخرين، فكأن هذه المعارف معرفة واحدة[1].

ومن هنا فالكتاب المقروء والكتاب المنظور صورتان لحقيقة واحدة، وكلاهما من عند الله تبارك وتعالى.

وكان الإمام بديع الزمان يريد أن يوجه نظر الإنسان فى كل زمان ومكان إلى استقراء الدليل الكونى بمنهج قرآنى يجمع فيه بين الأدلة كلها متعاضدة ومتساندة وتمثل نظرة جامعة إلى الوجود كله، وأنه صنعة الواحدة الأحد.

وللوصول إلى هذه الغاية تناول الإمام بديع الزمان سعيد النورسى الحديث عن الكون والكائنات فى أماكن متعددة من دائرة معارفه - رسائل النور - ويوقفنا على أن كتاب الله عندما يأخذ فى عرض آياته الكونية لا يعرضها منفصلة، بل يعرضها مصحوبة إما بتنبيه سابق أو بتعقيب لاحق، ويقدمها للإنسان ببيان معجز لا يكاد يقارنه بيان مهما كان.

ولذا ينبه على أن البيان القرآنى ورد بسور متعددة تغطى كافة العقول والمدارك للوقوف على الطريق المستقيم. وأنه:

- إما أن يأتى مسبوقا بصيغة الأمر بالنظر: انظروا أو بما يفيد مجرد الحض على النظر " أفلا ينظرون" "أو لم ينظروا".

وإما أن يأتى متبوعا بالنتائج التى تترتب على النظر من تفكر وتذكر وتدبر واعتبار، قال تعالى: ﴿ **فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيى الموتى وهو على كل شيء قدير** ﴾ (سورة الروم، الآية ٥٠).

وفى هذا المقام يشير بديع الزمان إلى نور من أنوار نجوم القرآن الكريم فيقول: (إن كتاب الكون المشهود بآياته الشئونية تفسر تلك الآيات القرآنية وتقربها إلى فهمك برؤية كثير من نظائرها المشهودة لعينك، فى تلافيف اختلاف الليل والنهار، وفى معاطف تحول الفصول والأعصار)[2].

---

(١) راجع مجلد الكلمات للإمام بديع الزمان وراجع الأستاذ أديب إبراهيم الدباغ، نظرية المعرف عند بديع الزمان النورسى.

(٢) بديع الزمان سعيد النورسى، كليات رسائل النور، جـ ٦، ص ٤٤٧.

وإما أن يأتي مسبوقا بالوسيلة التى هى النظر، ومتبوعا بالغاية المتوخاة من النظر فى آن واحد.

ولا شك أن هذه النداءات المعجزة والبيانات المتعددة كلها تلتقى حول محور واحد يتلخص فى الكشف عن خصائص الطبيعة الكونية والتعرف على آثارها ومنافعها، واستخلاص العبرة منها.

وذلك بمعنى أن النظر إلى الكون المترامى الأطراف من حيث تنظيماته المتلاحقة، وأنظمته المتناظرة، وموازناته المتساندة، أو تجاوب أطرافه المتخالفة وارتباط أجزائه المتناسبة، ونسب التكوين فى الذرات وشمول تصرف القدرة فى الأنواع المتعددة، وعدم تناهى خوارق صنعة الكائنات واتفاقها، والحكمة العامة المتضمنة للقصد والإرادة والاختيار، وتجسيد العناية التامة بالكائنات وتبسيط الرحمة الشاملة بالمخلوقات، وظهور إعجاز الحياة وما يرى على الكائنات من الرعاية والعناية..

وإطراد قانون الميلاد والوفاة المتجلى فى كل ذرة من ذرات الوجود وتسبيحات الكائنات المرئية وغير المرئية ومشاهدة الإمكان والكثرة والانتقال المستلزمة بالبداهة لمراتب الوجود..

كل ذلك وغيره من الكثير والكثير لهو دليل كونى استقرائى متكامل ومتساند على وجوب وجود الخالق المبدع والفاعل المختار والعليم الحكيم المتصف بالأسماء الحسنى المتجلية على آيات الأنفس والآفاق فى الوجود كله[1].

ولذا نسوق بعض النماذج التى توقفنا على كل منها:

أولا: من شواهد الأمر بالنظر قول الله تعالى فى سورة يونس: ﴿**قل انظروا ماذا فى السموات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون**﴾ (سورة يونس، الآية ١٠١).

ومثال الحض على النظر قوله تعالى: ﴿**أو لم ينظروا فى ملكوت السموات**

(١) وراجع كليات رسائل النور للإمام بديع الزمان سعيد النورسى، مجلد المثنوى العربى، جـ ٦، ص ٤٣١، وراجع دكتور محسن عبد الحميد النورسى متكلم العصر، ص ١١٧ وما بعدها.

والأرض وما خلق الله من شيء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأى حديث بعده يؤمنون ﴾ [1].

ثانيا: ومن شواهد التنبيه إلى نتائج النظر ما ورد فى سورة النحل فى آيات متوالية لكثير من الأدلة على وحدانية الله وقدرته، عن طريق خلق السموات والأرض وخلق الإنسان والحيوان، وعن طريق إنزال الماء من السماء وتسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم.. وغير ذلك من النعم الكونية التى لا تحصى. ثم يتبع ذلك بقوله تعالى: **﴿ إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾** (سورة النحل، الآيات ١١: ٣٠).

﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ ﴿ إن فى ذلك لآية لقوم يتذكرون ﴾ (سورة النحل، الآيات ١١: ٣٠).

ثالثا: ومن شواهد الجمع بين الوسيلة والغاية بالنظر أولا والاعتبار ثانيا قول الله تعالى: **﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ﴾**[2].

فهذا البيان يسيل كالماء الرقراق ويسطع كالنجوم الزاهرة، وهو يطعم القلب ويغذيه بغذاء حلو طيب كالرطب فيكون غذاء ويكون لذة فى الوقت نفسه[3].

كما يقول بديع الزمان: اعلم أن القرآن الكريم كما يفسر بعضه بعضا، كذلك فإن كتاب العالم يفسر بعض آياته بعضها.

فكما أن العالم المادى يحتاج احتياجا حقيقيا إلى شمس تفيض منها عليه أنوار نعمته تعالى، كذلك العالم المعنوى يحتاج أيضا إلى شمس النبوة لفيضان أضواء رحمته تعالى. فنبوة أحمد عليه الصلاة والسلام فى الظهور والوضوح والقطعية

(١) سورة الأعراف، الآية ١٨٥، وقوله تعالى فى سورة سبأ "أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض". جزء من الآية ٩.

(٢) سورة ق الآيات من ٦: ١١، وراجع قوله تعالى: ﴿ ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر.. ﴾.

(٣) بديع الزمان سعيد النورسى، كليات رسائل النور، ج ١، ص ٤٤١.

بدرجة الشمس فى وسط النهار، وهل يحتاج النهار إلى دليل[1].

كما يقول فى موطن آخر وانظر إلى كمال النعمة فى كمال الحكمة، وكمال الحكمة فى كمال النظام، وكمال النظام فى كمال الميزان فى صنعة الحواس الخمس الإنسانية، إذ فطرها فاطرها بوضعية وجهزها صانعها بجهازات، يحس الإنسان بها ويذوق صاحبها خصوصيات جميع أنواع الثمرات والأزهار والأصوات والروائح..

ومن هذا السر بلغت جامعية فطرة الإنسان إلى درجة صيرت هذا الإنسان مظهرا لما لا يحد من أنواع التجليات لأسماء فاطره جل شأنه وذائقا لما لا يعد من ألوان نعمه[2].

وهنا يستخدم بديع الزمان الإيضاح القائم على الحكمة، وأنه بالمثال يتضح المقال فيقول: إذا ما دخلت بستانا فلا أجنى إلا أجود الثمرات، حتى إذا ما تعبت فى قطفها أجد المتعة واللذة.

ولو وقع نظرى على الفاسدة منها أصرفه عنها، آخذا بالقاعدة "خذ ما صفا ودع ما كدر".. كذا أنا، فارجو أن يكون قرائى أيضا مثلى.

يقال: إن كلامك لا يفهم بوضوح. ولذا يقدم بديع الزمان البيان فى صورة حوار يملك القلب والعقل فيقول:

نعم ما حيلتى.. هكذا ترد السانحات إلى القلب.. فبينما أجدنى كأننى أتكلم فوق منارة عالية إذا بى – فى أحيان أخرى – أنادى من قعر بئر عميق فيا قارئى العزيز! أرجو أن تلاحظ فى هذه الرسالة أن المتكلم: هو قلبى العاجز.

- أما المخاطب: فهو نفسى العاصية.

- بينما المستمع هو ذلك الإنسان الذى يتحرى الحقيقة[3].

إن النظام الدقيق الموجود فى الكون فى عالم الجماد وعالم الحيوان وعالم الإنسان

---

(١) راجع بديع الزمان، كليات رسائل النور، جـ٦، ص ٢٤٥.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٨٧.

(٣) المرجع السابق، جـ٦، ص ٤٢٠.

من الذرة إلى المجرة لدليل قاطع على أنه مخلوق لإله خالق عظيم متصف بأسماء وصفات تتجلى فيه تجليا رائعا[١].

وليست هذه دعوى بدون دليل فالقارئ لرسالة "الآية الكبرى". وهو يتجول فيها للبحث عن الحق في أسرار الكون حينما يردفها ويتبعها بقراءة رسالة "الطبيعة" يتجلى أمامه جمال وجلال الحقيقة الكونية تجليا مشرقا.

إن النتيجة القاطعة لتجليات الأسماء الحسنى في الكون هي انتظام الكون المادي، بشمولية قوانينه وحركته المستمرة وتجدده الدائم، وترابط أجزائه وكونه موضوعا للتأمل الشامل والاستنباط الدقيق والانتفاع الأبدي[٢].

ومن هنا فقد بات واضحا كما يقول بديع الزمان النورسي "إن موجودات الكون، بأنواعها المتعددة والمختلفة، تتعاون فيما بينها تعاونا وثيقا ويسعى كل جزء منها لتكملة مهمة الآخر، وكأنها تمثل بمجموعها وأجزائها تروس معمل بديع ودواليبه التي يشاهد فيها هذا التعاون بوضوح.

فهذا التساند، وهذا التعاون بين الأجزاء، وهذه الاستجابة في إسعاف كل منها لطلب الآخر، وإمداد كل جزء للجزء الآخر، بل هذا التعانق والاندماج بين الأجزاء، يجعل من أجزاء الكون كله وحدة متحدة تتعصى على الانقسام والانفكاك. يشبه في هذا وحدة أجزاء جسم الإنسان الذي لا يمكن فك بعضها عن البعض الآخر[٣].

وبعد أن يقيم الإمام بديع الزمان النورسي هذا البيان بالمعطيات المتعددة يوقظ في كل نفس الإدراك بأن الذي يمسك زمام عنصر واحد في الوجود، إن لم يكن زمام جميع العناصر بيده لا يستطيع أن يسيطر على ذلك العنصر الواحد أيضا.

وعلى هذا فـ "التعاون" و"التساند" و"التجاب" و"التعانق" الواضح على وجه

---

(١) راجع بديع الزمان سعيد النورسي، كليات رسائل النور، جـ١، ص ٧٥٠.

(٢) المرجع السابق، جـ١، ص ٢٧٨، وراجع دكتور محسن عبد الحميد النورسي متكلم العصر، ص ١٧٥.

(٣) راجع بديع الزمان سعيد النورسي، كليات رسائل النور، جـ٣، ص ٥٤٠.

الكون، إنما هو أختام كبرى وبصمات ساطعة للتوحيد(١).

ولما كان البيان الإيمانى للإنسان بالتكليف كما تبين فيما تقدم كان العقل الإنسانى هو القوة لقبول الهداية كما يقول العلامة عباس محمود العقاد: "إن الكتاب الذى ميز الإنسان بخاصة التكليف، هو الكتاب الذى امتلأ بخطاب العقل بكل ملكة من ملكاته، وكل وظيفة عرفها له العقلاء والمتعقلون قبل أن يصبح العقل درسا يتقصاه الدارسون كنها وعملا وأثرا فى داخله وفيما خرج منه، وفيما يصدر منه وما يؤول إليه"(٢).

وما كل ذلك إلا لأن العقل الإنسانى يعقل صاحبه عما يأباه له التكليف، كما قيل لكل شيء دعامة، ودعامة الإنسان عقله.

إن هذا العقل بكل عمل من أعماله يناط به التكليف، حجة على المكلفين فيما يعنيهم من أمر الأرض والسماء، ومن أمر أنفسهم ومن أمر خالقهم وخالق الأرض والسماء وما فيما.

ولذا فالإشارة إلى العقل لم تأت فى القرآن الكريم عارضة، ولا مقتضبة فى سياق الآية، بل تأتى فى كل موضع مؤكدة باللفظ والدلالة كما فى كافة الآيات التى تدعو إلى إعمال العقل بالتفكير والنظر فى السموات والأرض وما خلق الله فيهما.. من الآيات والبراهين التى تستنهض أصحاب العقول السليمة والأفكار المستقيمة، كما وجه الأفهام وأيقظ الحواس ونبه المشاعر إلى ما فى هذا الكون المشاهد المنظور من آيات وبراهين.

الأمر الذى كان من أجله العقل حكما فى قضية الألوهية الكبرى حتى يكون الإيمان عن قناعة واستيقان لا تقليدا وميراثا للآباء والأجداد، أو مجاراة للتبعية العمياء.. وكما يقول أئمة الإسلام: دلائل الإيمان والتوحيد محصورة فى قسمين: دلائل الآفاق ودلائل الأنفس(٣).

---

(١) المرجع السابق.

(٢) دكتور أحمد السايح، فلسفة الحضارة، ص ١٠٣، ط ٨٩.

(٣) راجع تفسير الفخر الرازى جـ ٩، ص ١١٠، وراجع دائرة معارف النور للنورسى.

وفى الحكم: أملأ عينيك من تدبر هذه الكواكب وأجلها فى جملة هذه العجائب متفكرا فى قدرة مقدرها، متدبرا فى حكمة مدبرها قبل أن يسافر بك القدر، ويحال بينك وبين النظر(١).

ولا شك أن دلائل الآفاق أجل وأعظم، كما قال الله تعالى: ﴿ **لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس** ﴾ وذلك لأن دلالتها أعجب وشواهدها أعظم(٢).

ومن هنا طلب من الإنسان أن يصل حواسه بمظاهر الخلق الإلهى فى الكون المنظور وما أودع فيه من قوانين وسنن ثابتة قال تعالى: ﴿ **إنا فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين الماء والأرض لآيات لقوم يعقلون** ﴾ (سورة البقرة: الآية ١٦٤).

والمتأمل فى هذه الآية الكريمة يقف على أنها اتجهت فى تثبيت عقيدة وحدانية الله وقدرته وألوهيته إلى تنبيه الحواس والمدارك والمشاعر إلى ما فى هذا الكون المشاهد المنظور من آيات ودلائل، وبذلك أثار القرآن الكريم فى الإنسان وعيا كونيا، وهذا البيان الإيمانى لتنبيه الحواس والمدارك جدير بأن يفتح الأبصار والبصائر على عجائب هذا الكون تلك العجائب التى أصبحت عند كثير من الناس شيئا مألوفا بسبب عدم تدبرهم لما فيها من عظات وعبر. وصدق الله إذ يقول: ﴿ **وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون** ﴾ (سورة يوسف: الآية ١٠٥).

ولذا يقول الإمام الرازى: "واعلم أن النعم على قسمين: نعم دنيوية، ونعم دينية" وهذه البراهين المتعددة التى حملتها الآيات فى خلق السموات والأرض، نعم دنيوية فى حياة الإنسان، فإذا تفكر العاقل فيها واستدل بها على معرفة

(١) راجع تفسير الكشاف جـ١، ص ٣٤٨، نقلا عن التفسير الوسيط للقرآن الكريم لفضيلة الدكتور محمد السيد طنطاوى مجلد ٢ ص ٤٨٧ ط الثالثة ١٩٩٠م.

(٢) المرجع السابق للفخر الرازى.

الصانع، صارت نعما دينية، لكن الانتفاع بها من حيث إنها نعم دنيوية لا يكمل إلا عند سلامة الحواس، وصدق التوجه وأيضا الانتفاع بها من حيث إنها نعم دينية لا يكمل إلا عند سلامة العقول والمدارك المتعددة فى ذات الإنسان، ولذلك ختمت الآيات الإلهية بقوله تعالى: ﴿ **لقوم يعقلون** ﴾[1]. كما ختمت فى موطن آخر ﴿ **يا أولى الألباب** ﴾ قال تعالى: ﴿ **ولله ملك السموات والأرض والله على كل شيء قدير إن فى خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب** ﴾ (سورة آل عمران: الآية ١٩٠).

وبذلك اقام القرآن الكريم بيانا إيمانيا لهداية العقل الإنسانى كأساس من أسس الحضارة الإسلامية ومعلم من معالمها ليحرره من كافة الأوهام والأباطيل الناتجة عن عدم التفكر والتدبر.

ولما كان القرآن الكريم أيقظ فى كل نفس إنسانية - وعيا كونيا - فإنه أيضا أيقظ فى كل نفس - وعيا ذاتيا - فلفته إلى التفكر والتدبر فى أقرب شيء إليه وهى نفسه التى بين جنبيه، وذلك لأن كل نفس بالمعاشرة كون فريد قال تعالى: ﴿ **وفى أنفسكم أفلا تبصرون** ﴾ (سورة الذاريات: الآية ٢١).

أى فى حالة ابتدائها وتنقلها من حال إلى حال، وفى بواطنها وظواهرها من عجائب الفطر. وبدائع الخلق، وما تتحير فيه الأذهان، وحسبك بالقلوب، وما ركز فيها من العقول، وخصب من أصناف المعان، وبالألسن والنطق ومخارج الحروف، وما فى تركيبها وترتيبها ولطائفها: من الآيات الدالة على حكمة المدبر، فتبارك الله أحسن الخالقين[2].

وهذا اللفت بالنظر فى النفس وإن كان يقصد إثارة ما هو كامن فى كل إنسان على حدة تذكر إبصار واعتبار لهو أيضا برهان على دقة خلقه وتدبيره توصلا إلى الإيمان اليقين[3].

---

(١) راجع تفسير الفخر الرازى جـ ٤ ص ٢٢٩ نقلا عن التفسير الوسيط للقرآن الكريم المرجع السابق بتصرف يسير جـ ١، ص ٤٣٥، ط ١٩٨٩.

(٢) راجع تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٣٩٩.

(٣) راجع بديع الزمان كليات رسائل النور صيقل الإسلام.

وهذا البيان الإيماني يورث كل نفس إنسانية الشعور بذاتها وكيانها فى مقابلة الكون وما فيه، فيرى أنه قد سما فى تقويم خلقه على كل مخلوق سواه الأمر الذى يدفعه إلى التحلى بدرجتى التكريم والخلافة فى الأرض فى مواجهة الحياة والأحياء، وما ذلك إلا لأن القرآن الكريم كتاب الله إلى الناس كافة وإلى الخلق أجمعين، فلم يخاطب طائفة من البشر دون طائفة أخرى ولم يعنى بفريق على حساب فريق – وإنما عنى بالجميع – فبث الوعى الذاتى فى كل نفس وبصورة تناسب جميع أفراد البشر للارتقاء بالحياة والأحياء.

وإذا كان إيقاظ الوعى الكونى والوعى الذاتى مردهما إلى لفت القرآن الكريم للعقل، فإن ثمة وعيا وجدانيا أيضا أيقظه القرآن الكريم فى الإنسان حتى يستوعب بقلبه وعاطفته ما فى الكون من مظاهر الجمال والكمال للخلق الإلهى قال تعالى: ﴿وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم﴾ (سورة فصلت: الآية ١٢).

أى وزينا السماء الدنيا – أى القريبة منكم بكواكب مضيئة، وحفظناها حفظا عظيما من الاختلال والاضطراب والسقوط – ذلك الذى ذكرناه لكم من خلق السموات والأرض وخلق ما فيهما[١].

وقال تعالى: ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين﴾ (سورة الملك: الآية ٥).

وهذه الآية الكريمة صدرت بالقسم لإبراز كمال العناية بمضمونها. والمعنى وبالله لقد زينا وجملنا السماء القريبة منكم بكواكب مضيئة كإضاءة السراج وجعلنا بقدرتنا من هذه الكواكب ما يرجم الشياطين ويحرقها، إذا ما حاولوا أن يسترقوا السمع، ولذا خلقت هذه النجوم لثلاث خصال: خلقها زينة للسماء. ورجوما للشياطين. وعلامات يهتدى بها[٢].

---

(١) راجع الدكتور محمد سيد طنطاوى المرجع السابق، جـ ١٢، ص ٤٣٦، ط الثالثة ١٩٨٩م.
(٢) المرجع السابق جـ ١٥ ص ١٥.

ولذا وجه القرآن الكريم كافة الخلق إلى ما يصلح معاشهم ومعادهم قال تعالى: **﴿قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون﴾** (سورة الأعراف: الآية ٣٢).

فمدار هذه الآيات الكريمة منهج حياة متكامل أباحت للإنسان أن يتمتع بالطيبات التى خلقها الله، ولكن بدون إسراف أو بطر، ولذا جاء الرد على المخالفين الذين يضيقون على أنفسهم ما وسعه الله تعالى عليهم.

فالاستفهام هنا لإنكار ما كانوا عليه من سلوك مخالف للفطرة والدين، ولذا أمر الله رسوله ﷺ أن يرد عليهم بأبلغ رد فقال: **﴿قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة﴾** أى قل أيها الرسول لأمتك هذه الزينة والطيبات من الرزق شيء ثابت للذين آمنوا فى الحياة الدنيا، ويشاركهم فيها المشركون أيضا أما فى الآخرة فهى خالصة للمؤمنين ولا يشاركهم فيها أحد ممن أشركوا مع الله آلهة أخرى[١].

كما أن مظاهر الجمال فى الخلق الإلهى ظاهرة حتى فى الحيوان غير الناطق قال تعالى: **﴿ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون﴾** (سورة النحل: الآية ٦).

وفى هذا البيان الإلهى جانب من مظاهر نعم الله تعالى على كافة البشر، ولنوع من أنواع منافع الحيوان للإنسان.

وقال سبحانه: **﴿تريحون وتسرحون﴾** بالفعل المضارع لإفادة التجدد والتكرار، وفى ذلك ما يزيد السرور بها ويحمل على شكر الله تعالى على وافر نعمه.

وفى كل ما تقدم ما يوقفنا على أن القرآن الكريم أقام طريقا فطريا للإيمان بالله تعالى تتجلى فيه الأسس والمقومات والخصائص العقلية والوجدانية للإنسان الذى يملك الوعى الذاتى ووسائل الوعى الكونى، ليس هذا فحسب بل والوعى الوجدانى، ولعظم أثر هذه العقيدة فى حياة الإنسانية لم يقبل الخالق من المخلوق

---

(١) المرجع السابق لفضيلة الدكتور محمد طنطاوى.

فيها هوادة أو مساومة قال تعالى: ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما** ﴾ (سورة النساء: الآية ٤٨).

ومن هنا يتضح تأكيد القرآن الكريم للقيمة الإيمانية للإنسان وتحريره من العبودية المخالفة للفطرة وأنها لا تكون إلا لله الواحد الأحد.

نعم إن كل آية كونية من آيات قرآن الكون العظيم المنظور تجلى للأنظار معجزات نيرات.. تضم كتبا بعدد طوائف المخلوقات غاية فى الكمال والإتقان من دون خطأ، كتابة متداخلة، جنبا إلى جنب، فى آن واحد، وهذا يقف بنا على أن كل شيء فى الوجود إنما هو من إبداع الواحد الأحد ذى الجلال والإكرام[١].

كما يوقفنا على الحقائق والبراهين الإيمانية للخطاب القرآنى فى جانب العلم وجانب الكون بوصفهما جزء لا يتجزأ من معجزة القرآن الباقية أبد الدهر والمتجددة بما يناسب العصر فى كل عصر.

كما وقفنا على ما يحمله هذا الخطاب القرآنى فى ثناياه من أسس القوى الذاتية وما يزخر به من طاقات حية تجعله قادرا فى كل زمان ومكان على العطاء والتوجيه فى كافة الميادين المتمثلة فى الكون المقروء والكون المنظور.

بقلم الدكتور سامى عفيفى حجازى (*)

---

(١) راجع الإمام بديع الزمان، كليات رسائل النور، مجلد اللمعات، جـ٣، ص ٥٤٠، ٥٤٦.

(*) ولد فى عزبة حجازى – مركز الباجور– محافظة المنوفية.
تاريخ الميلاد: ١٩٤٩/٧/٦
المؤهل: الدكتوراه فى العقيدة والفلسفة. فى كلية أصول الدين القاهرة – جامعة الأزهر
العمل: أستاذ فى كلية أصول الدين جامعة الأزهر وجامعة إسلام آباد فى باكستان وجامعة نور مبارك فى كازاخستان.
العنوان: القاهرة – مدينة نصر – المنطقة السادسة – ٦ شارع الشاعر محمود غنيم متفرع من شارع الدكتور أحمد فخرى.

الفصل الثاني

العطاء الإيماني

الإمام بديع الزمان سعيد النورسى علم من أعلام الفكر الإسلامى المشهود لهم بالثبات واليقين لاهتمامه بأساسيات الإيمان وقضاياه الغيبية.

حيث هيمنت هذه القضايا على تفكيره واستأثرت بوجدانه منذ نعومة أظفاره يرقب عن كثب ظاهرة الفناء والبقاء التى هى سر خلق المخلوقات، واستطاع بتوفيق الله تعالى أن يحمل شعلة النور وسط ظلام الأيام، وكانت مسألة الوجود الذى يحرص على بقائه وخلوده، والعدم الذى يخافه ويشفق منه هى نقطة الانطلاق فى إرساء القواعد والأسس على كل ما يسند هذا الوجود ويحفظه ويمنحه القوة – على مقابلة العدم – فى سبيل إرساء وترسيخ العلامات المضيئة فى طريق الأمة.

لقد كان – رحمات رب العالمين عليه – حريصا كل الحرص على مواجهة كل ما من شأنه أن يقف معوقا أمام مسيرة الأمة.

ولهذا عمل على وضع كليات رسائل النور للإنسان فى كل زمان ومكان لتكون نورا مضيئا أمام الباحثين والدارسين للارتقاء بمجتمعات الأمة الإسلامية. كما يقول فى مجلد "المكتوبات" : إن رسائل النور درس قرآنى يوافق أفهام العصر.

والعطاء الإيمانى فى كليات رسائل النور ينطلق من الإعجاز القرآنى الذى أنزله خالق الإنسان ولذا نراه يصنف مجلدا مستقلا فى الإعجاز الإيمانى والإعجاز القرآنى ضمن رسائل النور التى تتمحور فى انطلاق الإنسان فى كونه وما سخر الله ليستفيد ويفيد حيث تقوم العلاقات الإنسانية على أساس من التكامل والمودة وحسن التعامل مع كون الله تعالى.

وفى هذا المقام، قد يقول قائل، ماذا قال الإمام النورسى عن القرآن؟ يجيبه الإمام بديع الزمان النورسى بقوله:

هو الترجمة الأزلية لهذه الكائنات، والترجمان الأبدى لألسنتها التاليات للآيات التكوينية، ومفسر كتاب العالم..

وهو كشاف لمخفيات كنوز الأسماء المستترة فى صحائف السموات والأرض.. وهو مفتاح لحقائق الشئون المضمرة فى سطور الحادثات.. وكذا هو لسان الغيب فى عالم الشهادة.

وهو خزينة للمخاطبات الأزلية السبحانية والالتفاتات الأبدية الرحمانية..، وهو أساس وهندسة وشمس لهذا العالم المعنوى الإسلامى.. وأيضا هو خريطة للعالم الأخروى.

وهو القول الشارح، والتفسير الواضح، والبرهان القاطع، والترجمان الساطع، لذات الله وصفاته وأسمائه وشئونه.. وهو مرب للعالم الإنسانى، وكالماء والضياء للإنسانية الكبرى التى هى الإسلامية..

وأيضا هو الحكمة الحقيقية لنوع البشر، وهو المرشد الدال إلى ما خلق له البشر.. ولذا كان للإنسان: كتاب دعاء وعبودية وكتاب أمر ودعوة، وكتاب ذكر وفكر..

وكما أنه كتاب واحد، لكن فيه كتب كثيرة، فى مقابلة جميع حاجات الإنسان المعنوية ولذا نستطيع القول إنه فرقان مقدس، مشحون بالكتب والرسائل، حتى أنه قد أعطى لمشرب كل مخلوق من أهل المشارب المتعددة، ولمسلك كل فرد من أهل المسالك المتباينة من الأولياء والصديقين، ومن العرفاء والمحققين: رسالة لائقة لمذاق ذلك المشرب وتنويره، ولمساق ذلك المشرب وتصويره حتى كأنه مجموعة الرسائل"[1].

ثم يدلل على هذا وذاك فيقول تحت عنوان: القرآن يحمى نفسه بنفسه.

"فإيمان كل شخص لا ينحصر بدليله، ولا يستند الوجدان إليه وحده، بل وإلى أسباب لا تحد فى قلب الجماعة أيضا".

فلئن كان رفض مذهب ضعيف يصعب كلما مر عليه الزمان، فكيف بالإسلام الذى هيمن طوال هذه العصور هيمنة تامة، وهو المستند إلى أساسين عظيمين هما: الوحى الإلهى، والفطرة السليمة"[2].

---

(١) راجع إشارات الإعجاز فى مظان الإيجاز للعلامة بديع الزمان النورسى جـ ٥، ص ٢٢.
(٢) راجع كليات رسائل النور للنورسى مجلد المكتوبات فى جـ ١ ص ٨٧٨.

ثم يقول: إن القلب مستقر الإيمان بينما الدماغ مرآة لنوره، وقد يكون مجاهدا، وقد يزاول كنس الشبهات وأدران الأوهام. فإن لم تدخل الشبهات التى فى الدماغ إلى القلب لا يزيغ إيمان الوجدان.

ولو كان الإيمان فى الدماغ - كما هو ظن البعض - فالاحتمالات الكثيرة والشكوك تصبح أعداء الداء لروح الإيمان الذى هو حق اليقين.

إن القلب والوجدان محل الإيمان.

والحدس والإلهام دليل الإيمان.

وحس سادس طريق الإيمان.

والفكر والدماغ حارس الإيمان[1].

ولذا يقول الإمام بديع الزمان:

إن الحقيقة القرآنية فى رسائل النور قد ألجمت أعتى المعاندين الملحدين وأفحمتهم، وأثبتت كالشمس وضوحا ما كان يظن بعيدا عن العقل من حقائق القرآن كحقائق المعراج النبوى والحشر الجسمانى.. حتى أدخلت بعضهم إلى دائرة الإيمان.

ولذا كان من العناية الإلهية أن تكون قضية الإيمان والاعتقاد مما يهم جميع الخلق من دون اختصاص بجماعة دون جماعة، أو بفرد دون فرد.

وذلك لأن القضايا المطروحة فى حياة الإنسان على نوعين:

نوع يختص بطائفة معينة من الناس كالمسائل الفيزيائية والكيمائية، ونوع لا يختص بطائفة معينة بل يهم جميع أبناء البشر ويعم جميع الخلق دون استثناء وقضية الإيمان بالله الخالق لهذا الكون هى من النوع الثانى إذ يسعى كل إنسان مهما كان لونه وجنسه إلى أن يعرف.

من أين جاء؟

---

(١) راجع مجموعة كليات رسائل للنورسى مجلد الكلمات ص ٨٨٠، ترجمة الأستاذ إحسان قاسم الصالحى.

ولماذا جاء؟

وإلى أين يذهب؟

والقضايا العقدية مهمتها الإجابة على هذه التساؤلات المطروحة بإلحاح على أبناء البشر بلا استثناء وذلك لأن العقيدة فطرة عامة لكل إنسان.

وقد حملت كليات رسائل النور للإنسان المفتاح الذى يربطه بخالقه. فرسائل هذا شأنها لابد أن العالم - وما حوله - بأجمعه سيكون ذا علاقة بها.

إنها حقيقة قرآنية تشغل هذا العصر والمستقبل وإنها لنور فى يد أهل الإيمان.

والقارئ للفكر النورسى فى عطائه يقف على أنه يتجدد بالإنسانية لإيقاظ منبهات الفطرة والتوحيد وفق معطيات الإنسان. وبهذا يصبح الإنسان هو الكلمة الأولى والنهائية فى ظل البيان الإيمانى للإمام بديع الزمان سعيد النورسى فى الجانب الأفقى والرأسى بين الأرض والسماء كان من أجله القرآن الذى هو حديث للإنسان أو عن الإنسان.

هذه القضية يدركها كل من ينظر فى كتاب الله المقروء - القرآن الكريم - كما هى فى كتاب الله المنظور - الكون وما فيه - لقد اختار بديع الزمان رسائل النور اسما لمباحثه لإدراكه أهمية النور الخارجى إذ كان لازما لحركة البشر فى الكون المنظور فإن النور الداخلى لازم لحركة الكيان الإنسانى بما يشتمل عليه وبغير هذا النور الداخلى لا يهتدى الإنسان لتحقيق الغاية من خلقه فيما بينه وبين نفسه، وفيما بينه وبين مجتمعه، وفيما بينه وبين خالقه.

ومن هنا كان إدراك بديع الزمان لماهية النور والإيمان فى حياة الإنسان.

والجواب الكافى عن الدواء الشافى يدركه كل من وقف على حياة بديع الزمان فقد ظل طوال حياته يروى ظمأى الإيمان ويشبع جياع العقيدة والإسلام بدرسه تارة وبسلوكه تارة أخرى.

وهذا هو الطريق الذى قامت عليه كليات رسائل النور لإنقاذ الإيمان فى نفوس المؤمنين، واضعة نصب أعينهم ستة أسس لئلا ينخدعوا وتتلخص فيما يلى:

١ - إنها تضع بدلا من حب الجاه، ابتغاء مرضاة الله، النابعة من الإيمان به سبحانه.

٢ - أنها تضع بدلا من الخوف، والوقوع فى الشكوك، والأوهام، الإيمان بالقدر.

٣ - أنها تضع بدلا من الحرص والطمع، الإيمان بان الله هو الرازق ذو القوة المتين.

٤ - أنها تضع بدلا من الأحاسيس والمشاعر العنصرية، الإيمان بالرسل الكرام، وفى مقدمتهم الرسول الأكرم ﷺ المبعوث إلى الجن والإنس كافة، والذى يحقق لنا: ﴿ **إنما المؤمنون إخوة** ﴾ (سورة الحجرات: الآية ١٠)، ﴿ **واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا** ﴾ (سورة آل عمران: الآية ١٠٣).

٥ - أنها تضع بدلا من الأنانية وحب الذات، الاعتراف بعجزنا ونقصنا مع الإدراك التام أننا مكلفون بأداء الخدمة والعمل للقرآن الكريم بنشر الرسائل المترشحة منه والحفاظ عليها، ومن دون ترقب النتيجة.

ولذا دعا بديع الزمان النورسى إلى خروج الأمة الإسلامية من الاغتراب الزمانى والاغتراب المكانى وذلك بالربط بين الواقع وثوابت الحضارة الإسلامية والسنن الإيمانية التى دعا إليها القرآن الكريم. وذلك بمعنى: التجرد من نوازع البشرية إلى حد ما، والتشبه بالملائكة الذين هم واسطة لإنزال الكتب والصحف السماوية، فنحقق الإيمان بالملائكة بهذه الصورة.

٦ - أنها تضع بدلا من الكسل والخلود إلى الدعة والراحة، الإسراع إلى العمل للقرآن، الذى كل ساعة منه تعدل يوما من العبادة، وتجعلنا نقدر الوقت حق قدره، ونستمسك بالعمل للقرآن، من قبل أن يفلت منا هذا العمل المقدس، مع فتح الأبصار لإدراك الأمور والأحداث.

وذلك بمعنى: معرفة قيمة الحياة قبل أن يحل بنا الموت فجأة[1].

كما يقرر صاحب كليات رسائل النور أن كتاب الكون الكبير هذا إذا تعلمنا

(١) راجع كليات رسائل النور الملاحق جـ٧، ص ٥٦ ترجمة الأستاذ/ إحسان قاسم الصالحى.

آياته التكوينية الدالة على وجوده سبحانه وعلى وحدانيته، يشهد كذلك على جميع صفات الكمال والجمال والجلال للذات الجليلة. وتثبت أيضا كمال ذاته الجليلة المبرأة من كل نقص، والمنزهة عن كل قصور.

ذلك لأن ظهور الكمال فى أثر "ما" يدل على كمال الفعل الذى هو مصدره، كما هو بديهى، وكمال الفعل هذا يدل على كمال الاسم، وكمال الاسم يدل على كمال الصفات،وكمال الصفات يدل على كمال الشأن الذاتى، وكمال الشأن الذاتى يدل على كمال الذات ذات الشئون حدسا وضرورة وبداهة.

فمثلا: إن النقوش المتقنة والتزيينات البديعة لقصر كامل رائع، تدل على ما وراءها من كمال الأفعال التامة لبناء ماهر خبير..

وإن كمال تلك الأفعال وإتقانها ينطق بتكامل الأسماء لرتب وعناوين ذلك البناء الفاعل..

وتكامل الأسماء والعناوين يفصح عن تكامل صفات لا تحصى لذلك الصانع من جهة صنعته، وتكامل تلك الصفات وإبداع الصنعة. يشهدان على تكامل قابليات ذلك الصانع واستعداداته الذاتية المسماة بالشئون وتكامل تلك الشئون والقابليات الذاتية تدل على تكامل ماهية ذات الصانع.

وهكذا الأمر فى الصنعة المبدعة المبرأة من النقص والفطور فى الآثار المشهودة فى العالم، وفى هذه الموجودات المنتظمة فى الكون، التى لفتت إليها الأنظار الآية الكريمة: ﴿**هل ترى من فطور**﴾ (سورة الملك: الآية ٣). فهى تدل بالمشاهدة على كمال الأفعال لمؤثر ذى قدرة مطلقة، وكمال الأفعال ذاك يدل بالبداهة على كمال أسماء الفاعل ذى الجلال، وذلك الكمال يدل ويشهد بالضرورة على كمال صفات مسمى ذى جمال لتلك الأسماء، وكمال الصفات ذاك يدل، ويشهد يقينا على كمال موصوف ذى كمال، وكمال الشئون ذاك يدل بحق اليقين على كمال ذات مقدسة ذات شئون دلالة واضحة بحيث إن ما فى الكون من أنواع الكمالات المشاهدة ليس إلا ظلا ضعيفا منطفئا. ولله المثل الأعلى بالنسبة لآيات كماله

ورموز جلاله وإشارات جماله سبحانه وتعالى[1].

كما يشير فى المكتوب السادس من مجلد المكتوبات إلى بعض ما كان يقاسيه من ألم الفراق فى غربته طاويا ما هو أكثر إيلاما منه.

وبعد أن يرصد ألوان الألم والغربة يقول: لقد بدد نور الإيمان ظلمات أنواع الغربة والألم، ولذا حدد الداء والدواء للإنسان فى كل زمان ومكان. كما يقرر أن الأمة الإسلامية محاصرة بين غربتين: غربة زمان وغربة مكان.

وقراءة التراث توقفنا على حقيقتين:

الحقيقة الأولى:

إن الماضى العقدى هو السمة التى تصنع الحاضر والمستقبل، بما يضاف إليها من تجربة ومجاهدة مبنية على العلم والعمل، ولكنها مهما تصقل بالتجربة والمعاناة، ومهما تصبح موفورة العطاء، فإنها تظل منسوبة إلى الماضى صادرة عنه.

ومن هنا تحرص الأمم على ماضيها وتعتز به إذا كان قائما على أسس وقواعد صحيحة وكأنه شهادة على أصالتها الإيمانية.

وليست هذه دعوى بدون دليل فالدعوة التى قادها جمال الدين الأفغانى من١٨٣٨ - ١٨٩٧ والإمام محمد عبده من ١٨٤٩ إلى ١٩٠٥ لم تكن لإعادة صياغة العقيدة بل للرجوع إلى الإسلام الصحيح.

وعلى هذا فالأمة التى لا تصل ماضيها بحاضرها أمة تشعر باليتم والضياع، وتعيش متحيرة بين التيارات يقتنصها هذا ليسلمها إلى ذاك حتى تضل الطريق ومن هنا كان حرص الأمم على تراثها تأخذ منه خيط البداية حتى لا تضل الطريق.

الحقيقة الثانية:

الحاجة إلى تنمية الطاقة الروحية لدى الإنسان لأن الحياة الروحية ظاهرة من الظواهر الإنسانية التى يمتاز بها الإنسان عن الحيوان، وهذه الظاهرة لم تنشأ صدفة، ولم تكن أيضا مجرد اختلاق من الإنسان كما اختلق بعض العادات والمصنوعات.

---

(١) كليات رسائل النور للنورسى، مجلد الكلمات ص ٣٤٣.

ولقد فسرت الأديان تلك الحقيقة بالروح التى نفخ الله بها فى الإنسان عندما خلقه. قال تعالى: ﴿ **فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين** ﴾ (سورة الحجر: الآية ٢٩).

وقد ترتب على وجود هذه الحقيقة أن اهتمت مدارس التربية بالجانب الروحى فى الإنسان وطالبت أن يأخذ حقه فى المناهج كما يعنى بالجانب العقلى والجانب الجسدى تماما بتمام. ولذا وجدنا من يقول: إننا نعيش جميعا فى عالمين:

فى عالم مادى يتغير فى كل عصر بتقدم الحضارة المادية، وفى عالم روحى لا تستطيع العلوم من دونه أن تؤمن بالحق أو يكون للصلاح أى معنى، هذا العالم الروحى هو عالم القيم.

ولو أننا ضحينا به على مذبح العلوم، أو أى شيء آخر لكان فى ذلك هلاكنا، مثلنا فى ذلك كمثل من يحذف الفيتامينات من طعامه[١]، ولذا دعا النورسى إلى خروج الأمة الإسلامية من الاغتراب الزمانى والمكانى

وذلك بالربط بين الواقع وثوابت الحضارة الإسلامية من جانب وبين مصادر وعوامل العطاء المعاصر من جانب آخر لتحقيق الترابط بين العلم والإيمان.

كما يتناول فى مجلد الكلمات الحديث عن الإنسان وأن لحظة فى سبيل الله تورث عمرا خالدا فيقول:

إن عمر الإنسان الفانى يتضمن حياة قلبية وروحية.

وهما مدار معرفة الله ومحبته وعبادته على وفق مرضاته فإنه يتضمن إذا عمرا باقيا، بل ينتج هذا العمر الباقى الخالد فى دار الخلود والبقاء، فيكون هذا العمر الفانى بمثابة عمر أبدى.

أجل إن ثانية واحدة يقضيها الإنسان فى سبيل الله الباقى الحق، وفى سبيل محبته، وفى سبيل الرقى فى معرفته وابتغاء مرضاته تعد سنة كاملة بل أكثر بل هى باقية دائمة لا ترى الفناء.

---

(١) راجع التربية لعالم حائر ص ٤٦ ترجمة وديع الضبع نقلا عن فلسفة الحياة الروحية فى الإسلام للدكتور مقداد يلجن ص ٥٢ ط دار الشروق.

بينما سنة من العمر إن لم تكن مصروفة فى سبيله سبحانه فهى زائلة حتما، وهى فى حكم لحظة خاطفة، فمهما تطول حياة الغافلين فهى بمثابة لحظات عابرة لا تجاوز ثانية واحدة.

كما يقرر فى الكلمة الخامسة والسادسة من مجلد الكلمات وظيفة الإنسان الحقة كما هى فى مرشد أهل القرآن فيقول:

إن كنت تريد أن تعادى أحدا فعاد ما فى قلبك من العداوة واجتهد فى إطفاء نارها واستئصال شأفتها وحاول أن تعادى من هو أعدى أعدائك وأشد ضررا عليك تلك هى نفسك التى بين جنبيك فقاوم هواها، واسع إلى إصلاحها ولا تعاد المؤمنين لأجلها.

واعلم أن صفة المحبة بذاتها جديرة بالمحبة كما أن خصلة العداوة تستحق العداء قبل أى شيء آخر.

التزم وظيفتك. إنك تترك وظيفتك وتشتغل بوظيفة ربك، فمن ظلمك وجهلك تركك لوظيفة العبودية الحقيقية التى هى فى وسعك وحملك على رأسك وقلبك الضعيف، إلى وظيفة الربوبية التى تختص بالذى خلقك فسواك فعدلك فى أى صورة ما شاء ركبك فالتزم وفوض إليه وظيفته لتسعد وتستريح، وما ذلك إلا بالوصول إلى اليقين الذى هو ثمرة الصراط المستقيم.

ومصداق هذا قول الرسول ﷺ فى وصيته لأبى ذر.. "أحكم السفينة فإن البحر عميق واستكثر الزاد فإن السفر طويل وخفف ظهرك فإن العاقبة كؤود وأخلص العمل فإن الناقد بصير".

كما يخاطب بديع الزمان الإنسان قائلا:

إن كنت تروم الحصول على علم الحقيقة والحكمة فاظفر بمعرفة الله إذ حقائق الموجودات كلها إنما هى شعاعات اسم الله الحق ومظاهر أسمائه الحسنى وتجليات صفاته الجليلة ومصداق هذا قول الله تعالى: ﴿ **إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا** ﴾ (الإسراء: الآية ٩).

إن كليات رسائل النور التى وضعها بديع الزمان وتضم:

الكلمات والمكتوبات، واللمعات والشعاعات، وإشارات الإعجاز، وصيقل الإسلام والملاحق ومرشد أهل القرآن إلى حقائق الإيمان. قارئها لا يحتاج إلى كبير عناء ليلحظ الربط المحكم والشد الوثيق بين قلب الكون وقلب الإنسان حتى ليكاد يحس من خلال أحاديثه عنها - والاستشهاد بمعلوم صفات أحدهما على مجهول صفات الآخر - وكأن الإنسان دو الكون مصغرا، والكون هو الإنسان مكبرا وبين وجدانيهما تتصادى لحون المحبة والود والتعاون.

والود والتعاون والتساند لدفع مسيرة الإيمان الكبرى على هذه الأرض نحو هدفها السامى فى تقديم فروض الطاعة والعبودية والولاء، كما أن هذه الرسائل مشحونة بالمزيد من الفهم والإدراك للخلاق العظيم الذين يدين له كل من الكون والإنسان بالوجود والحياة، أى للخالق سبحانه وتعالى الذى ﴿ **ليس كمثله شيء** ﴾.

وفيها يؤكد بديع الزمان.. للإنسان طريق الإيمان، حتى لا يقع فى أوهام أهل الضلالة الذين يحصرون أحكام الوهيته فى بعض مخلوقاته وذلك بتوهمهم أن تجلياته سبحانه المتجلية فى صفحات الكون وطبقات الموجودات هى الذات الأقدس[1].

وهؤلاء يطلق عليهم "الماديون" الذين يحصرون التجلى الأعظم للخلاقية الإلهية والقدرة الربانية فى تحول الذرات المنتظمة، ولكنهم يجهلون مصدر ذلك التجلى، ليس هذا فحسب. بل ويعجزون عن أن يدركوا من أن تدار تلك القوة العامة النابعة من تجلى القدرة الصمدانية..

فلأنهم يجهلون كل ذلك. فقد شرعوا بإسناد آثار الألوهية إلى الذرات نفسها وإلى حركاتها عينها، فتوهموا أزلية المادة والقوة. فسبحان الله!!

أفيمكن لإنسان أن يتردى إلى هذا الدرك السحيق من الجهالة والخرافة المحضة، فيسند الآثار البديعة للخالق البديع، والأفعال الحكيمة للعليم البصير - وهو

---

(١) راجع كليات رسائل النور للنورسى مجلد اللمعات ص ٥٧٦.

المتعال عن المكان والزمان – إلى ذرات مضطربة بتيارات المصادفات!!

إن هؤلاء التعساء قد وقعوا فى عبادة آلهة كثيرة لأنهم أعرضوا عن الوحدانية المطلقة. أى لأنهم لم يؤمنوا بإله واحد أصبحوا مضطرين إلى قبول ما لا نهاية له من الآلهة!!

وما ذلك إلا لأنهم لم يستوعبوا بعقولهم القاصرة أزلية الذات الأقداس وخلاقيته – وهما صفتان لازمتان ذاتيتان له سبحانه وتعالى – فقد أصبحوا بحكم مسلكهم الضال مضطرين إلى قبول أزلية ذرات جامدة لا حد لها ولا نهاية، وقبول ألوهية الذرات.

فتأمل مبلغ الحضيض الذى سقطوا فيه، وسحيق الدرك الأسفل من الجهل الذى تردوا فيه!

كما تشير كليات رسائل النور إلى أن هناك من يتظاهرون ببعد النظر فيسوقون فكرا أجهل من السابق وأوغل فى الخرافة منه حيث يتوهمون أن مادة الأثير هى المصدر وهى الفاعل، لقيامها بمهمة المرآة العاكسة لتجليات ربوبية الخالق سبحانه!!، علما أنها ألطف وأرق وأطوع صحيفة من صحائف إجراءات الصانع الجليل وأكثرها تسخيرا وانقيادا، وهى وسيلة لنقل أوامره الجليلة، وهى المداد اللطيف لكتاباته، والحلة القشيبة لإيجاداته، والأساس لمصنوعاته، والأرض الخصبة لحباته.

وعلى هذا يتضح: أن هذا الجهل العجيب يستلزم محالات لا حد لها ولانهاية، وذلك لأن مادة الأثير هى ألطف من مادة الذرات التى غرق بها الماديون فى مستنقع الضلالة، وهى أكثف من الهيولى التى ضل فيها الفلاسفة القدماء. وهى مادة جامدة لا إرادة لها ولا اختيار ولا شعور.

فإسناد الأفعال والآثار إلى هذه المادة القابلة للانقسام والتجزؤ – ليس هذا فحسب – بل والمجهزة للقيام بوظيفة النقل وخاصة الانفعال، وإلى ذراتها التى هى أصغر من الذرات. لا شك أنه جريمة وخطأ فاحش بعد ذرات الأثير، لأن تلك الأفعال والآثار الربانية لا يمكن أن تحدث إلا بإرادة من يقدر على رؤية كل شيء ومن يملك علما محيطا بكل شيء[1].

---

(١) راجع كليات رسائل النور للنورسى، مجلد اللمعات ص ٥٧٨.

أما الطبيعة وجميع ما تشتمل عليه فما هى إلا صنعة إلهية ولا تكون صانعا، وهى كتاب ربانى ولا تكون كاتبا، وهى نقش بديع ومحال أن تكون نقاشا مبدعا، وهى كراس ولا تكون واضعة القوانين وصاحبة الكراس،وهى قانون ولا تكون قدرة، هى مسطر ولا تكون مصدرا للوجود، وهى شيء منفعل ولا تكون الفاعل وهى نظام ومحال أن تكون ناظما، وهى شريعة فطرية وممتنع أن تكون شارعا مشرعا(١).

ولهذا يخاطب بديع الزمان الإنسان قائلا له: كما أوردنا سلفا إن كنت تروم الحصول على علم الحقيقة، والحكمة الحقة، فاظفر بمعرفة الله إذ حقائق الموجودات كلها، إنما هى شعاعات اسم الله الحق، ومظاهر أسمائه الحسنى، وتجليات صفاته الجليلة. ثم يرتب على هذا البيان بيانا آخر فيقول: "واعلم أن حقيقة كل شيء ماديا كان أو معنويا، وجوهريا كان أو عرضيا، بل وحقيقة الإنسان نفسه إنما تستند إلى نور من أنوار أسمائه تعالى. وإلا فهى صورة زائلة لا حقيقة لها"(٢).

العلاقة بين الكون المقروء والمنظور:

وفى هذا البيان ما يوقفنا على أن النسبة الظاهرة بين أسماء الله تعالى ومقتضاها هى التى أخرجت الموجودات إلى الوجود، وحددت لها وظائفها، وخصصت كل موجود بما يشار إليه إما إشارة عينية أو معرفية حسب رتبة الموجود ومنزلته(٣).

وفى هذا المقام يقول صاحب كليات رسائل النور: "إن جلوة من تجليات القيومية على الكون، وشعاعا من نورها مثلما يعم الكون بمظاهر "الواحدية والجلال"، فإنه يبرز على هذا الإنسان – الذى يمثل محور الكون وقطبه وثمرته الشاعرة – مظاهر الأحدية والجمال.

---

(١) المرجع السابق للنورسى ص ٥٧٨.

(٢) راجع مرشد أهل القرآن إلى حقائق الإيمان للإمام بديع الزمان النورسى ص ٥٦ بتصرف يسير.

(٣) راجع الدكتور الشفيع الماحى أحمد منهج النورسى فى شرح أسماء الله الحسنى ص ١٧.

ثم يقول وهذا يعنى: "أن الكائنات التى هى، قائمة بسر القيومية فهى تقوم أيضا - من جهة - بالإنسان؛ الذى يمثل أكبر مظهر من مظاهر تجلى اسم "القيوم" أى: أن القيومية تتجلى فى الإنسان تجليا يجعل منه عمودا ساندا للكائنات كلها"(١). لحمله لأمانة التكليف قال تعالى: ﴿**إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا**﴾ (الأحزاب: الآية ٧٢).

ومن هنا يقتضينا المقام أن ننبه إلى أمر هام كثيرا ما كان الإمام النورسى بينه إليه ويلفت نظر القارئ له فى أكثر من موضع من كليات رسائل النور، وذلك الأمر الهام باختصار شديد هو - الإنسان - الذى من أجله كان القرآن.

فالقرآن حديث للإنسان أو عن الإنسان. ولذا يقول بديع الزمان "إذا كان الإنسان هو لب الدنيا التى تتوجه إليه رسائل النور بمعارفها الشاملة فلأنه كل شيء ومآله الأخروى هو أعظم الأشياء وأكثرها أهمية وخطورة. ولذا انطلق بديع الزمان فى بيان منهجه الإيمانى من فيض القرآن إلى أعماق النفس والوجدان، ليس هذا فحسب، بل والآفاق المتلوة والمرئية فى ترابط ينير الطريق للعقل ويريح القلب عبر نظرة واحدة فى جوانب المعرفة. من خلال قول الله تعالى: ﴿**الله نور السموات والأرض**﴾ (النور: الآية ٣٥).

حكمة تجلى أسماء الله الحسنى على الإنسان:

المتأمل لكليات رسائل النور حول حكمة تجلى أسماء الله الحسنى على المخلوقات، وقيام الكون بسر القيومية على الإنسان يقف على أنها ترجع إلى الوظائف الثلاث التى أنيطت بالإنسان وتتلخص فيما يلى:

الوظيفة الأولى: تنظيم جميع أنواع النعم المبثوثة فى الكائنات بالإنسان وربطها بأواصر المنافع التى تخص الإنسان، كما تنظم خرز المسبحة بالخيط، فيكون الإنسان بما يشبه فهرسا لأنواع ما فى خزائن الرحمة الإلهية ونموذجا لمحتوياتها.

---

(١) راجع كليات رسائل النور للنورسى مجلد اللمعات ص ٥٩٣.

الوظيفة الثانية: كون الإنسان موضع خطابه سبحانه بما أودع فيه من خصائص جامعة أهلته ليكون موضع وحيه من جانب وليقوم بمهمة الداعى إلى الله والدال عليه من جانب آخر ليس هذا فحسب بل ولينهض بتقديم آلاء الشكر والحمد على ما بسط أمامه من أنواع النعم والآلاء الظاهرة والباطنة.

الوظيفة الثالثة: قيام الإنسان فى رحلة حياته بمهمة مرآة عاكسة لشئون أسماء الله وصفاته وذلك بثلاثة وجوه.

الوجه الأول: شعور الإنسان بقدرة خالقه سبحانه وتعالى - المطلقة ودرجاتها غير المحدودة، بما هو عليه من عجز مطلق، فيدرك مراتب القدرة المطلقة بما يحمل من درجات العجز هذا من جانب كما يدرك من جانب آخر رحمة خالقه الشاملة ودرجاتها بما لديه من فقر، وهذا وذاك يوقفانه على قوة خالقه العظيمة بما يمكن فيه من ضعف.. وهكذا.

وبذلك يكون الإنسان مؤديا مهمة مرآة قاسية صغيرة لإدراك صفات خالقه الكاملة، وذلك ما لديه من صفات قاصرة ناقصة إذ كما أن الظلام كلما اشتد يسطع النور اكثر، فيؤدى هذا الظلام مهمة إضاءة المصابيح، فالإنسان أيضا يؤدى مهمة إراءة كمالات صفات بارئه وأسمائه بما لديه من صفات عاجزة وناقصة مظلمة.

الوجه الثانى: أن ما لدى الإنسان من إرادة جزئية وعلم قليل وقدرة ضئيلة وتملك فى ظاهر الحال وقابلية على إعمار بيته بنفسه، يجعله يدرك بهذه الصفات الجزئية خالق الكون العظيم، ويفهم مدى مالكيته الواسعة وعظيم إتقانه وسعة إرادته، وهيمنة قدرته وإحاطة علمه، فيدرك أن كلا من تلك الصفات إنما هى صفات مطلقة وعظيمة، لا حد لها ولا نهاية، وبهذا يكون الإنسان مؤديا مهمة مرآة صغيرة لإظهار تلك الصفات وإدراكها.

الوجه الثالث: ويتلخص فى قيام الإنسان بهمة مرآة عاكسة لكمالات الأسماء الإلهية وهذا من خلال طريقين:

الطريق الأول: إظهار بدائع الأسماء الإلهية المتنوعية وتجلياتها المختلفة فى ذاته،

لأن الإنسان بمثابة فهرس مصغر للكون كله - بما يملك من صفات جامعة، فكأنه مثاله المصغر، لذا فتجليات الأسماء الإلهية فى الكون نراها تتجلى فى الإنسان بمقياس مصغر.

الطريق الثانى: أداؤه مهمة المرآة العاكسة أى كما يؤدى هذه المهمة للأسماء الإلهية، فإنه بوساطة كونه مخلوقا يبين ويكشف عن اسم الخالق الصانع، ويشير بحسن تقويمه وجمال صورته ودقة صنعه اسم الرحمن الرحيم، وهكذا يكون الإنسان مقياسا مصغرا يظهر عيانا الحقائق الإيمانية فى الكون بدرجة الشهود[1].

وعلى هذا يتضح أن الإمام بديع الزمان النورسى - كان من العلماء الذين لهم منهجهم المتفرد والذى ظل بمعزل عن التعقيدات التى نادى بها السوفسطائيون والماديون..

والمتأمل حول هذه القضية لأسماء الله الحسنى وتجلياتها فى الموجودات، وانعكاساتها فى مرايا الكائنات، وقيام هذه الكائنات بها، واستمداد ما يحفظ وجودها منها، واكتساب نورانياتها من أنوارها، والتماس الحياة من منابع حياتها، وانتساب المعارف والعلوم والقيم إليها وتعلقها بأسرارها هو ما تريد كليات رسائل النور أن توقظه فى نفس كل مسلم بالتعايش مع هذه الأسماء فى شئون الحياة التى نحياها والواقع الذى يعيشه كل مسلم ومسلمة.

ويبرهن بديع الزمان على هذا فيقول: إن الدليل القاطع على وجود اللوح المحفوظ فى الكون يتمثل فى نموذجه المصغر وهو القوة "الحافظة" لدى الإنسان.

والدليل القاطع على وجود عالم المثال نلمسه فى نموذجه المصغر وهو قوة الخيال لدى الإنسان، والدليل القاطع على وجود الروحانيات فى الكون ندركه ضمن نموذجها المصغر وهو لطائف الإنسان وقواه.

كما يفصل بديع الزمان هذه القضية بالإضافة إلى ما سبق من حقائق فيقول:

---

(١) مجموعة رسائل كليات النورسى مجلد اللمعات ص ٥٩٧ بتصرف يسير وراجع مجلدات الكلمات ٣٤٩.

نعم إن جوارح الإنسان وأعضاءه وعناصره تشير هى الأخرى إلى حقائق كونية أرضية، فعظامه تنبئ عن أحجار الكون وصخوره، وأشعاره توحى إلى نباتات الأرض وأشجارها، والدم الجارى فى جسمه، والسوائل المختلفة المترشحة من عيونه وأنفه تخبر عن عيون الأرض وينابيعها ومياهها المعدنية. كذلك تخبر روح الإنسان عن عالم الأرواح، وحافظته عن اللوح المحفوظ، وقوة خياله عن عالم المثال وهكذا يخبر كل جهاز إلى عالم ويشهد على وجوده شهادة قاطعة[1].

ومن كل ما تقدم يتضح العطاء الإيمانى والحضارى لكليات رسائل النور التى حملت للإنسان فى كل زمان ومكان المقاصد الأساسية للقرآن الكريم وتتلخص فى:

أولا: إثبات الصانع الواحد الأحد.

ثانيا: النبوة والرسالة والبعثة.

ثالثا: الحشر الجسمانى وما يشتمل عليه.

رابعا: العدل الذى هو قانون الفطرة.

هذا وكل فرد من أفراد الكائنات، داخل ذلك البيان القرآنى موظف لأربع وظائف.

الأولى: إعلان عظمة الخالق الجليل بانتظامه واتفاقه مع غيره.

الثانية: ترجمة وتطبيق أن الإسلام زبدة العلوم الحقيقية حيث إن كلا من الأفراد موضوع وخلاصة لعلم من العلوم الحقيقية.

الثالثة: إثبات تطابق الإسلام مع القوانين والنواميس الإلهية الجارية فى العالم وانطباقه عليها لينمو بناء الإسلام فى نفوسهم بقدر إمداد تلك النواميس الفطرية، حيث إن كل فرد من الكائنات نموذج لنوع.

نعم إن الإسلام، الدين المبين، يتميز بهذه الخاصية عن سائر الأديان المترددة بين

---

(١) المرجع السابق بتصرف مع تقديم وتأخير.

الهوى والهوسات لفقدانها الجذور العريقة الممدة لها، فتارة تضئ وأخرى تنطفئ وتتغير بسرعة.

الرابعة: توجيه الأفكار إلى حقائق الأشياء والحث عليها والتنبيه إليها، من حيث إن كل فرد نموذج لحقيقة من الحقائق[1].

ومن خلال هذه المقاصد والوظائف يتبين لنا شمول الأسماء الحسنى للعطاء الإيمانى والحضارى المتجدد، وأنها كالنهر الذى يشع بأنواره وفاعلياته الدائمة وطاقاته الأبدية، التى تغذى كل ما فى الوجود كاثر من آثار تجلياتها وانسكاب طاقاتها الحياتية فى المخلوقات.

وبهذا كانت كليات رسائل النور التى أعدها العلامة بديع الزمان لتنير الطريق ليس للحيارى والضالين بل لكل إنسان لإيقاظ منبهات الفطرة والدين التى تعمل على تبديد الظلمات التى غزت العقول والقلوب.

ولما كان البيان الإيمانى للإنسان بالتكليف - كما تبين فيما تقدم - كان العقل الإنسانى هو القوة المنبهة لقبول الهداية كما يقول العلامة عباس محمود العقاد: "إن الكتاب الذى ميز الإنسان بخاصة التكليف، هو الكتاب الذى امتلأ بخطاب العقل بكل ملكة من ملكاته، وكل وظيفة عرفها لها العقلاء والمتعقلون، قبل أن يصبح العقل درسا يتقصاه الدارسون كنها، وعملا وأثرا فى داخله وفيما خرج منه، وفيما يصدر منه وما يؤول إليه"، وما كل ذلك إلا لأن العقل الإنسانى يعقل صاحبه عما يأباه له التكليف، كما قيل لكل شيء دعامة، ودعامة الإنسان عقله.

إن هذا العقل بكل عمل من أعماله يناط به التكليف، حجة على المكلفين فيما يعنيهم من أمر الأرض والسماء، ومن أمر أنفسهم، ومن أمر خالقهم وخالق الأرض والسماء وما فيها.

ولذا فالإشارة إلى العقل لم تأت فى القرآن الكريم عارضة، ولا مقتضبة فى سياق الآية، بل تأتى فى كل موضع، مؤكدة باللفظ والدلالة، كما فى كافة الآيات التى

---

(١) راجع كليات رسائل النور للنورسى - صيقل الإسلام ص ٣٠.

تدعو إلى إعمال العقل بالتفكير والنظر فى السموات والأرض وما خلق الله فيهما من الآيات والبراهين التى تستنهض أصحاب العقول السليمة والأفكار المستقيمة، كما وجه الأفهام، وأيقظ الحواس، ونبه المشاعر إلى ما فى الكون المشاهد المنظور من آيات وبراهين.

الأمر الذى من أجله كان العقل حكما فى قضية الألوهية الكبرى حتى يكون الإيمان عن قناعة واستيقان لا تقليدا أو ميراثا للآباء والأجداد أو مجاراة للتبعية العمياء.. وكما يقول أئمة الإسلام: دلائل الإيمان والتوحيد محصورة فى قسمين: دلائل الآفاق، ودلائل الأنفس[1].

وفى الحكم: املأ عينيك من تدبر هذه الكواكب، وأجلهما فى جملة هذه العجائب متفكرا فى قدرة مقدرها، متدبرا فى حكمة مدبرها قبل أن يسافر بك القدر، ويحال بينك وبين النظر[2].

ولا شك أن دلائل الآفاق أجل وأعظم، كما قال الله تعالى: ﴿لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس﴾ وذلك لأن دلالتها أعجب وشواهدها أعظم[3].

ومن هنا طلب من الإنسان أن يصل حواسه بمظاهر الخلق الإلهى فى الكون المنظور، وما أودع فيه من قوانين وسنن ثابتة: قال تعالى: ﴿إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾ (البقرة: ١٦٤).

والمتأمل فى هذه الآية الكريمة يقف على أنها اتجهت فى تثبيت عقيدة وحدانية الله وقدرته وألوهيته إلى تنبيه الحواس والمدارك والمشاعر إلى ما فى هذا الكون المشاهد المنظور من آيات ودلائل.

---

(١) راجع تفسير الفخر الرازى جـ ٩ ص ١١٠، وراجع دائرة معارف النور للنورسى.

(٢) راجع تفسير الكشاف جـ ١ ص ٣٤٨ نقلا عن التفسير الوسيط للقرآن الكريم للدكتور/ محمد سيد طنطاوى مجلد ٢ ص ٤٧٨ الطبعة الثالثة ١٩٩٠.

(٣) المرجع السابق.

وبذلك آثار القرآن الكريم فى الإنسان وعيا كونيا، وهذا البيان الإيمانى لتنبيه الحواس والمدارك جدير بأن يفتح الأبصار والبصائر على عجائب هذا الكون، تلك العجائب التى أصبحت عند كثير من الناس شيئا مألوفا بسبب عدم تدبرهم لما فيه من عظات وعبر وصدق الله إذ يقول: ﴿ **وكأين من آية من فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون** ﴾ (يونس: الآية ١٠٥).

ولذا يقول أئمة العلماء أن النعم على قسمين:

نعم دينية، ونعم دنيوية. وهذه البراهين المتعددة، التى حملتها الآيات فى خلق السموات والأرض، نعم دنيوية فى حياة الإنسان، فإذا تفكر العاقل فيها واستدل بها على معرفة الصانع، صارت نعما دينية، لكن الانتفاع بها من حيث إنها نعم دنيوية لا يكمل إلا عند سلامة الحواس، وصدق التوجه.

وأيضا أقام القرآن الكريم بيانا إيمانيا لهداية العقل الإنسانى كأساس من أسس الفطرة الإيمانية ومعلم من معالمها ليحرره من كافة الأوهام والأباطيل الناتجة عن عدم التفكر والتدبر.

ولما كان القرآن الكريم أيقظ فى كل نفس إنسانية - وعيا كونيا - فإنه أيضا أيقظ فى كل نفس - وعيا ذاتيا - فلفته إلى التفكر والتدبر فى أقرب شيء إليه وهى نفسه التى بين جنبيه، وذلك لأن كل نفس كون فريد قال تعالى: ﴿ **وفى أنفسكم أفلا تبصرون** ﴾ (الذاريات: الآية ٢١).

أى فى حال ابتدائها وتنقلها من حال إلى حال، وفى بواطنها وظواهرها من عجائب الفطر. وبدائع الخلق، وما تتحير فيه الأذهان، وحسبك بالقلوب، وما ركز فيها من العقول، وخصب به من أصناف المعانى وبالألسن والنطق ومخارج الحروف، وما فى تركيبها وترتيبها ولطائفها: من الآيات الدالة على حكمة المدبر... فيتبارك الله أحسن الخالقين"[1].

وهذا اللفت بالنظر فى النفس وإن كان يقصد إثارة ما هو كامن فى كل إنسان

(١) راجع تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٣٩٩.

على حدة تذكر إبصار واعتبار لهو أيضا برهان على دقة خلقه وتدبيره توصلا إلى الإيمان الحق.

وهذا البيان الإيمانى يورث كل نفس إنسانية الشعور بذاتها وكيانها فى مقابلة الكون وما فيه، فيرى أنه قد سما فى تقويم خلقه على كل مخلوق سواه، الأمر الذى يدفعه إلى التحلى بدرجتى التكريم والخلافة فى الأرض فى مواجهة الحياة والأحياء. وما ذلك إلا لأن القرآن الكريم كتاب، الله إلى الناس كافة وإلى الخلق أجمعين. فلم يخاطب طائفة من البشر دون طائفة أخرى.

ولم يعن بفريق على حساب فريق: وإنما عنى بالجميع، فبث الوعى الذاتى فى كل نفس، وبصورة تناسب جميع أفراد البشر للارتقاء بالحياة والأحياء.

وإذا كان إيقاظ الوعى الكونى والوعى الذاتى مردهما إلى لفت القرآن الكريم للعقل، فإن ثمة وعيا وجدانيا أيضا أيقظه القرآن الكريم فى الإنسان حتى يستوعب بقلبه وعاطفته ما فى الكون من مظاهر الجمال والكمال للخلق الإلهى.

قال تعالى: ﴿ **وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا. ذلك تقدير العزيز العليم** ﴾ (فصلت: الآية ١٢). أى وزينا السماء الدنيا: أى القريبة منكم بكواكب مضيئة وحفظناها حفظا عظيما من الاختلال والاضطراب والسقوط "ذلك" الذى ذكرناه لكم من خلق السموات والأرض وخلق ما فيهما[(١)].

وقال تعالى: ﴿ **ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين** ﴾. وهذه الآية الكريمة صدرت بالقسم لإبراز كمال العناية بمضمونها. والمعنى: وبالله لقد زينا وجملنا السماء القريبة منكم بكواكب مضيئة كإضاءة السراج وجعلنا بقدرتنا من هذه الكواكب ما يرجم الشياطين ويحرقها، إذا ما حاولوا أن يسترقوا السمع ولذا، خلقت هذه النجوم لثلاث خصال: خلقها زينة للسماء ورجوما للشياطين، وعلامات يهتدى بها"[(٢)].

---

(١) راجع دكتور/ محمد سيد طنطاوى التفسير الوسيط للقرآن الكريم مجلد رقم ١٢ ص ٤٣٦ ط الثالثة ١٩٨٩م.

(٢) راجع الدكتور/ محمد سيد طنطاوى المرجع السابق المجلد ١٥ ص ١٥.

وفى هذا المقام يقول بديع الزمان فى مجلد المكتوبات: أعلم أن للصعود إلى سماء هذه الآية الكريمة سلما ذا سبع درجات ومراتب ثم يقول بعد رصدها وهكذا فنوع من أنوع أجناس النجوم هو لتزين وجه السماء اللطيف، وكأن الفاطر قد خلقها كالثمار النيرة لتلك الشجرة أو كالأسماك المسبحة لله لذلك البحر الواسع وكالألوف من المنازل لملائكته.. كما خلق من النجوم أداة لرجم الشياطين.

فالشهب التى ترسل لرجم الشياطين تحمل ثلاث معان:

الأول: أنه رمز وعلامة على جريان قانون المبارزة فى أوسع دائرة من دوائر الوجود.

الثانى: أن فى السموات حراسا يقظين وآهلين مطيعين فهذه الشهب إشارة وإعلان عن امتعاض جنود الله من اختلاط الأرضين الشريرين بهم واستراق السمع إليهم.

الثالث: أن هذه الشهب وكأنها مجانيق وقذائف تنوير هى لإرهاب جواسيس الشياطين الذين يسترقون السمع والذين يمثلون المساوئ الأرضية أسوأ تمثيل، وطردهم من أبواب السماء، وذلك لئلا يلوثوا السماء الطاهرة التى هى سكنى الطاهرين، وليحولوا بينهم وبين القيام بالتجسس لحساب النفوس الخبيثة.

وبعد بيان هذه المعانى ينادى صاحب كليات رسائل النور الإنسان المعتمد على عقله القاصر الذى لا يتجاوز نوره نور البراعة!! ويقول: يا من يغمض عينه من نور شمس القرآن المبين تأمل فى هذه الحقائق.. ودع عنك بصيص عقلك، وشاهد معنى الآية الكريمة فى نور إعجازها الواضح وضوح النهار، وخذ نجم حقيقة واحدة من سماء تلك الآية الكريمة واقذف بها الشيطان القابع فى ذهنك وارجمه بها!![1].

ولذا وجه القرآن الكريم كافة الخلق إلى ما يصلح معاشهم قال تعالى: ﴿ **قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق. قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون** ﴾ (الأعراف: ٣٢).

---

(١) راجع كليات رسائل النور للنورسى مجلد الكلمات من ٢٠٣ - ٢١٠.

فهذه الآية الكريمة منهج حياة متكامل أباحت للإنسان أن يتمتع بالطيبات التى خلقها الله، ولكن بدون إسراف أو بطر، ولذا جاء الرد على المخالفين الذين يضيقون على أنفسهم ما وسعه الله تعالى عليهم.

فالاستفهام هنا لإنكار ما كانوا عليه من سلوك مخالف للفطرة والدين ولذا أمر الله رسوله (أن يرد عليهم بأبلغ رد فقال: **﴿قل هل للذين آمنوا فى الحياة الدنيا: خالصة يوم القيامة﴾**، أى قل أيها الرسول لامتك هذه الزينة والطيبات من الرزق شيء ثابت للذين آمنوا فى الحياة الدنيا، ويشاركهم فيها المشركون أيضا أما الآخرة فهى خالصة للمؤمنين ولا يشاركهم فيها أحد ممن أشركوا مع الله آلهة أخرى[1].

كما أن مظاهر الجمال فى الخلق الإلهى ظاهرة حتى فى الحيوان غير الناطق. قال تعالى: **﴿ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون﴾** (النحل: الآية ٦). وفى هذا البيان الإلهى جانب من مظاهر نعم الله تعالى على كافة البشر، ولنوع من أنواع منافع الحيوان للإنسان.

وقال سبحانه: **﴿تريحون وتسرحون﴾** بالفعل المضارع لإفادة التجدد والتكرار وفى ذلك ما يزيد السرور بها، ويحمل على شكر الله تعالى على وافر نعمه[2].

وفى كل ما تقدم ما يوقفنا على أن القرآن الكريم أقام طريقا فطريا للإيمان بالله تعالى تتجلى فيه الأسس والمقومات والخصائص العقلية والوجدانية للإنسان الذى يملك الوعى الذاتى ووسائل الوعى الكونى ليس هذا فحسب بل والوعى الوجدانى ولعظم أثر هذه العقيدة فى حياة الإنسانية لم يقبل الخالق من المخلوق فيها هوادة أو مساومة قال تعالى: **﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به. ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما﴾** (النساء: الآية ٤٨).

ومن هنا يتضح تأكيد القرآن الكريم للقيمة الإيمانية للإنسان وتحريره من العبودية المخالفة للفطرة وأنها لا تكون إلا لله الواحد الأحد.

---

(١) راجع المرجع السابق جـ ٥ ص ٤٣ للدكتور/ محمد سيد طنطاوى.
(٢) راجع المرجع السابق المجلد الثامن ص ٢٢.

وقد كتب النورسى ثلاثين ومائة رسالة أسماها "رسائل النور" تقصى فيها آثار الأسماء الإلهية الحسنى فى المخلوقات أى فى الإنسان والوجود والأكوان وتلتمس منابعها فى المعارف والعلوم والقيم، واستقرأ تجليات أنوارها على الأشياء والموجودات، وتتبع أسرارها فى الخلق والإيجاد، والموت والحياة، ووقع على أعاجيبها فى الحشر والنشر والجنة والنار والرحمة والعذاب، وأثبت بما لا يقبل أدنى شك بأن من وراء هذا كله إرادة وهدفا وغاية، وعلما وحكمة، وعدلا وجمالا وجلالا، وأحدية لا تقبل ندا ولا شريكا، وقدرة مطلقة لا يعجزها شيء، وقدرا مرسوما وقضاء مبروما، وآجالا محتومة - وخلودا أبديا - بعد الموت - فى الجنة أو النار.

وهذه وتلك هى المحاور والقضايا التى دارت عليها وحولها آيات الكتاب المقروء وسوره كما هى فى الكتاب المنظور[1]. المشتمل على النظام الدقيق المنشور فى جوانبه المتعددة.

وبهذا كان البرهان اليقينى لتجليات الأسماء الحسنى فى الكون المقروء كما هى فى الكون المنظور، بشمولية قوانينه وحركته المستمرة وتجدده الدائم، وترابط اجزائه، وكونه موضوعا للتامل العميق والاستنباط الدقيق، والانتفاع الأبدى[2].

وفى هذا المقام يقول بديع الزمان: "إن موجودات الكون، بأنواعها المختلفة، تتعاون فيما بينها تعاونا وثيقا، ويسعى كل جزء منها لتكملة مهمة الآخر، وكأنها بمجموعها وأجزائها تروس معمل بديع ودواليبه - الذى يشاهد فيه التعاون بوضوح.

فهذا التساند، وهذا التعاون بين الأجزاء، وهذه الاستجابة فى إسعاف كل منها لطلب الآخر، وإمداد كل جزء للجزء الآخر، بل هذا التعانق والاندماج بين الأجزاء يجعل من أجزاء الكون كله وحدة متحدة تتعصى على الانقسام والانفكاك. يشبه فى هذا وحدة أجزاء جسم الإنسان الذى لا يمكن فك بعضها عن البعض الآخر.

---

(١) راجع الأستاذ أديب إبراهيم الدباغ بحث حول فاعلية الأسماء الحسنى ص ٥ .

(٢) راجع كليات رسائل النور للنورسى مجلد المكتوبات ص ٢٧٨، وراجع دكتور محسن عبد الحميد النورسى متكلم العصر ص ١٧٥.

وهذا البيان يصل بنا إلى أن الذى يمسك زمام عنصر واحد فى الوجود، إن لم يكن زمام جميع العناصر بيده لا يستطيع أن يسيطر على ذلك العنصر الواحد أيضا ومن هنا فـ "التعاون" و"التجاوب" و"التعانق" المعلنة على وجه الكون، إنما هى أختام كبرى وبصمات ساطعة للتوحيد.

كما يشير النورسى مواطن كثيرة من كليات رسائل النور إلى أن المادة الكونية ليست شرا فى ذاتها، لأن خلق الشر عنده ليس شرا، وإنما اكتسابه هو الشر"[١].

وكل ما فى الكون خلق لغايات حكيمة تبعا لتجليات الأسماء الحسنى.

والذى يقرأ كليات رسائل النور للنورسى يدرك تماما أنه يفقه الكون فقها عقلانيا، مبنيا على السريان الدقيق فى مظاهره وأسراره وقوانينه وحركته، ولذلك فإنه يرفض العبثية فى الكون، لأن النور الإلهى حول الكون من العبثية والمصادفة.. إلى مكاتيب ربانية وصحائف آيات تكوينية ومرآة أسماء إلهية"[٢].

ومن هنا يتيقين دوام العطاء لكليات رسائل النور لدوام مصدرها القرآنى كما قال مؤلفها إن رسائل النور درس قرآنى يوافق أفهام العصر وكل عصر".

بقلم الدكتور سامى عفيفى حجازى

---

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع نفسه وراجع اللمعات من كليات الرسائل ص ٥٢٥، ٥٢٦، وراجع دكتور محسن عبد الحميد المرجع السابق ص ١٧٧.

الفصل الثالث

المنهج الاستدلالى فى القرآن الكريم

بداية يحسن أن نقول : إن المنهجية فى عصرنا الحديث قد احتلت مكانًا بارزًا فى كل جانب من جوانب البحث والدرس، ليس هذا فحسب بل وفى سائر أنواع الأنشطة البشرية فكرًا وعملاً، وكثر الحديث عن أهميتها كأنها شئ من مبتدعات العصر " واكتشافات رواد الفكر، لم يقل بها صاحب درس سبق " ولم يأت بها تشريع تقدم، ولكنها كامنة فى القرآن الكريم منذ كان .

إن المنهج هو الأسلوب الذى تمارس به الأعمال، وهو الطريق الذى يضمن الوصول إلى الغاية بسلام، وذلك لأنه يحمل فى طياته معنى النظام، وللنظام أهميته الكبرى فى الوجود كله، فهو الصورة التى أقام الله عليها الكون كله قال تعالى : ﴿إنا كل شئ خلقناه بقدر﴾ (القمر: الآية ٤٩) .

● **نزول القرآن فى زمن رشد الإنسانية:**

إن القرآن الكريم بجانب دعوته إلى التوحيد قد تناول مقولات الأديان وآراء الملل والنحل والمذاهب التى كانت منتشرة وقت التنزيل، فناقشها، وبرهن على بطلانها وفسادها، وقارن بينها وبين الدين الصحيح الذى هو الحق، والذى أرسلت به الرسل – عليهم الصلاة والسلام – وهذا ما نادت به الكتب السماوية وجميع الأديان من عهد أبينا آدم عليه السلام إلى أن بعث سيدنا محمد ﷺ من مطالبة الأمم وتكليفها بتوحيد الخالق تبارك وتعالى، وانفراده بالتصرف المطلق وتنزهه عن كل نقص، واتصافه بكل كمال، غير أن ما عدا القرآن من الكتب السماوية سلك طريقًا فى بيان ذلك المقصد الأسنى، يتناسب مع استعداد أهل زمنه الذى نزل فيه، وهو ذكر العقائد مجردة من الدليل، حيث إن أهل ذلك الزمن لم يكونوا قد استعدوا للنظر فى الآيات الكونية .

أما القرآن الكريم فقد نزل فى زمن كان الإنسان فيه قد بلغ رشده، وأصبح أهلاً للتفكير فى ملكوت السموات والأرض، مستعداً لفهم الأدلة وللوقوف على الحكم والمصالح المقتضية للتكليف .

ولذلك جاء هذا الكتاب الحكيم سالكًا منهجًا، باين فيه سائر الكتب المقدسة فقد طالب المكلفين بالعقائد الدينية وبرهن على ذلك المدعى ورد على المخالفين وفند قولهم، وأيده بالدليل، وحث الإنسان على التفكير فى الكائنات وسائر المخلوقات[1].

• دور علماء المسلمين:

وعلى هذا فالمتأمل فى قضايا الفكر الإنسانى يقف على أن قضية الألوهية قد شغلت الفكر البشرى منذ وجوده من حيث العقيدة والسلوك، ولم تنقطع السفارة بين السماء والأرض لتقرير هذه القضية وإحقاقها بواسطة رسل الله تعالى من الملائكة والناس قال تعالى: ﴿**الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس**﴾ (الحج: الآية ٧٥).

وكان ختم هذه الرسالات برسالة الفرقان الذى أضاء الوجود العقلى والكونى بقدوم نبى الإسلام سيدنا محمد ﷺ.

وبعد ختم النبوات بنبوة سيد الخلق ﷺ قام علماء الإسلام بمهام التصحيح لكل ما يخالف بناء الدين فى ذات المسلم وذلك فى دائرتين هما:

دائرة التكاليف الإيمانية.

ودائرة التكاليف العملية.

وعلماء الإسلام الذين تناولوا قضايا الفكر منذ فجر التاريخ قد كتبوا فى هذا، كما تابعهم خلفهم فى استمرار الكتابة.

ولقد كان بديع الزمان النورسى صاحب مجموعة كليات رسائل النور من العلماء العاملين لتجلية حقائق التوحيد أمام تيارات متعددة، كالدهرية وأنصارها، وأهل الطبائع. والصابئة والبراهمة، والثنوية، التى هبت رياحها من بلاد فارس حيث كان المسلمون يعيشون فيها، وعقيدة التثليث التى كانت تساكن المسلمين واليهود، وغيرهم من المخالفين.

---

(١) راجع القول السديد فى علم التوحيد جـ٣ ص ٥٢ لفضيلة الشيخ محمود أبو دقيقة تحقيق فضيلة الأستاذ الدكتور عوض الله حجازى، ط مجمع البحوث الإسلامية ط ١٩٩٥م.

• **النورسى وكليات رسائل النور:**

لقد كان بديع الزمان سعيد النورسى بثاقب فكره، وقوة حجته قد غطى معظم قضايا هذا الدين، وتناولها بالبحث والدراسة، والتحليل القائم على الربط بين الشريعة الكونية والشريعة القرآنية فى مؤلفاته مجموعة كليات رسائل النور، التى تشتمل على غرر الفوائد التى هى للدين قواعد، مع أنه عاش أكثر من ربع قرن من الزمان فى ظلام السجون والمنفى.

ولكنه استطاع بتوفيق الله أن يحمل شعلة النور وسط ظلام الأيام، فكانت الكلمة رائدة فى إرساء المعالم والعلامات المضيئة التى تتمحور حول بيان ماهية الإيمان[1]. كما هى فى السؤال التالى: كيف يمكن للمسلم أن يعرف بإيمان؟ أو أن يؤمن بمعرفة؟ وبصيغة أكثر وضوحًا؟

كيف يستطيع أن يجعل من الإيمان طريقًا إلى المعرفة؟

ومن المعرفة طريقًا إلى الإيمان؟ كما أشرنا إلى هذا فيما تقدم.

وفى البيان لهذا السؤال تتلخص المعرفة الإيمانية التى خط بديع الزمان ملامحها، وأقام أركانها انطلاقًا من قول الله تعالى: ﴿ **سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق** ﴾ (فصلت: الآية ٥٣).

حيث يرى فى ضوء هذه الآية أنه ما من معرفة مما تتبادلها العقول فيما بينها إلا وترجع فى أصولها الأولى إلى واحدة من المعارف الثلاث التالية:

١ - معرفة كونية تشمل علوم ما فى السموات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى.

٢ - معرفة إنسانية تشمل الكينونة الإنسانية وكل ما يتعلق بالإنسان فردًا ونوعًا ظاهرًا وباطنًا.

---

(١) راجع بديع الزمان سعيد النورسى مجلد الكلمات من مجموعة كليات رسائل النور.

٣ – معرفة إلهية ترتبط بوجود الله تعالى وبربوبيته وشئونه فى خلقه.

وهذه المعارف الثلاث متلازمة يلازم بعضها بعضًا، ويؤيد بعضها بعضًا، ويدل بعضها على بعض وهى فى ارتباط دائم لا ينقطع، فكونى مؤمنًا يلزمنى أن أعرف، لأن المعرفة تقوينى وتعلمنى لماذا يجب أن أكون مؤمنًا.

وكونى أعرف بصدق وحق، فإن معرفتى تغدو درجات فى سلم ارتقائى إلى معرفة أسمى هى معرفة الله تعالى: وكونى إنسانيًا مهتمًا بشئون الإنسان وبكينونته ووجوده ومصيره، ومتعرفًا على سر ما ينطوى عليه باطنه من عوالم وأكوان رغم صغر حجمه ستفضى بى هذه المعرفة حتمًا إلى معرفة خالق هذا الإنسان وموجده.

وهـذه المعـارف الثـلاث:

١ – المعرفة الكونية.

٢ – والمعرفة الإنسانية.

٣ – والمعرفة الإلهية.

يرتبط بعضها ببعض كالمقدمات بالنسبة للنتائج. أى إما أن تكون معرفة الكون والإنسان طريقنا إلى الإيمان، أو يكون الإيمان طريقنا إلى معرفة الكون والإنسان. فمن أى واحدة منهما يبدأ عقلنا رحلته المعرفية فإنه سينتهى لا محالة إلى المعرفتين الأخريين، فكأن هذه المعارف معرفة واحدة[١].

وعلى هذا يتضح: أن الإمام بديع الزمان سعيد النورسى كان من العلماء الذين لهم منهجهم المتفرد والذى ظل بمعزل عن التعقيدات الجافية للحق، كما ننبه فى هذا المقام إلى أمر هام كثيرًا ما كان الإمام النورسى ينبه إليه ويلفت نظر القارئ له فى أكثر من موضع من كليات رسائل النور، وذلك الأمر الهام باختصار شديد هو: الإنسان الذى من أجله كان القرآن.

---

(١) راجع مجلد الكلمات للإمام بديع الزمان وراجع الأستاذ/ أديب إبراهيم الدباغ نظرية المعرفة عند بديع الزمان النورسى.

فالقرآن حديث للإنسان أو عن الإنسان، ولذا يقول بديع الزمان " إذا كان الإنسان هو لب الدنيا الذى تتوجه إليه رسائل النور بمعارفها الشاملة فلأنه كل شئ وماله الأخروى هو أعظم الأشياء وأكثرها أهمية وخطورة "[1].

• **الإنسان فى القرآن:**

وهذا الأمر الهام يعتبر خاصية منهجية وهدفًا من أهداف كل رسالة سماوية، ذلك أن قضية الألوهية ككل قضية من قضايا الدين المنزل لا يقصد منها تقريرها من الناحية النظرية، كى يقتنع بها من يسير تحت لوائها أو يفحم من يعارضها أو يحاول التشويش عليها فحسب، وإنما يقصد من ورائها بالدرجة الأولى أن تتحول الدعوة إلى كيان حى حتى تعبر عن شخصية أمة الإجابة التى استجابت لرسولها وتابعته على ما جاء به قولاً وعملاً.

حتى تشاهد مبادئه وقواعده النظرية فى صورة كائنات محسوسة متحركة، ولذا يعلن النورسى أن سبب ما يعانيه أفراد المجتمع المسلم من أخطار يكمن فى غياب الوعى الإيمانى، وليست هذه دعوى بدون دليل فقارئ كليات رسائل النور للنورسى وتحليلاته لا يحتاج إلى كبير عناء ليلحظ الربط المحكم والشد الوثيق بين قلب الكون وقلب الإنسان.

ولهذا يخاطب بديع الزمان الإنسان قائلاً له: " إن كنت تروم الحصول على علم الحقيقة والحكمة الحقة، فاظفر بمعرفة الله، إذ حقائق الموجودات كلها، إنما هى شعاعات اسم الله الحق، ومظاهر أسمائه الحسنى، وتجليات صفاته الجليلة[2].

كما يشير إلى تفرد الاستدلال القرآنى فيقول: "إن أدلة القرآن الكريم على وحدانية الله تعالى أولى وأحكم من أى طريق آخر وذلك لاعتماده فى استنباط وحدانيته تعالى على أصل الفطرة وعلى المشاهد الذاتية، وهى إحدى وسائل المعرفة البدهية، فطريقة القرآن الكريم. هى هداية البشر إلى وحدة الألوهية بعد تقرير

---

(١) راجع بديع الزمان سعيد النورسى، المجموعة الكاملة لمؤلفاته ومرشد أهل القرآن إلى حقائق الإيمان.

(٢) راجع بديع الزمان سعيد النورسى، مرشد أهل القرآن إلى حقائق الإيمان ص ٥٦.

ثبوتها بأصل الفطرة " . قال تعالى : ﴿ **إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً** ﴾ (الإسراء: الآية ٩) .

وفى ضوء هذا البيان دعا القرآن الكريم كتاب الله المقروء إلى النظر فى آيات الله فى السموات والأرض وجعل من الكون محرابًا للفكر، وكتابًا للمعرفة، ودليلاً على وحدة التدبير والنظام فى الكون، ووحدة الإله المعبود، ووحدة المنشأ والمصير. هذه الوحدة الشاملة هى أساس الاستدلال فى القرآن الكريم، وهى التى تحدد معنى الوحدانية تحديداً كاملاً، كما تحدد الصلة بين الإنسان وخالقه، والكون ما فيه.

والإيمان بهذه الوحدة على هذا الأساس هو السبيل إلى انطلاق قوى النفس الكامنة، والسمو بدوافعها والارتفاع بها عن شهواتها وتغلبها على عوامل ضعفا.. كل هذا مسطور فى القرآن الكريم كتاب الله المقروء كما هو فى الكون وما فيه كتاب الله المنظور، فكلاهما كتاب الله وآياته الكريمة، وذلك لأن صاحب الكتاب المقروء وهو القرآن الكريم هو صاحب الكتاب المنظور وهو الكون وما فيه قال تعالى: ﴿ **ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾ (البقرة: الآية ٢) .

ولذا فالقارئ للفكر النورسى فى عطائه يقف على أنه يتجدد بالإنسانية لإيقاظ منبهات الفطرة والتوحيد وفق معطيات الإنسان، وبهذا يصبح الإنسان هو الكلمة الأولى والنهائية بين الأرض والسماء. والذى كان من أجله القرآن الذى هو حديث للإنسان أو عن الإنسان.

- **رسائل النورسى درس قرآنى إيمانى يوافق أفهام العصر:**

لقد اختار بديع الزمان رسائل النور اسمًا لمباحثه لإدراكه أهمية النور الخارجى إذا كان لازمًا لحركة البشر فى الكون المنظور، فإن النور الداخلى لازم لحركة الكيان الإنسانى بما يشتمل عليه، وبغير هذا النور الداخلى لا يهتدى الإنسان لتحقيق الغاية من خلقه، ولذا تناول فى الكلمة الثانية والعشرين إثنى عشر برهانًا حول حقيقة التوحيد مشتملة على البراهين العقلية والكونية الكلية والجزائية ويعدها قطرة من بحر التوحيد[1].

(١) راجع بديع الزمان النورسى، مرشد أهل القرآن ص ٦٧.

كما يتحدث قبل ذلك فى الكلمة السادسة عشرة عن أربع أشعات عن النفس من فيض القرآن الكريم، واضعًا يد القارئ على حقيقة التوحيد والخلق، وكون الصلاة معراجًا ورحمة من الخالق بالمخلوق[1].

كما يتناول فى نفس مجلد الكلمات الحديث عن الوحدانية والأحدية، ويدلل بإشارات ورموز وحجج بعضها فوق بعض لدعم ترسيخ الإيمان، والربط بين نوافذه وأزاهيره كما هو فى الكلمة الثالثة والثلاثين[2].

وكما يقول فى اللمعات والمناظرات. كما تحدث فى مجلد المكتوبات عن حقيقة التوحيد، وبيان أهمية الإيمان بالله تعالى ومعرفته ومحبته، حديثًا تقبله الفطرة وتستقيم به النفس، وأيضًا فى رسالة مرشد أهل القرآن إلى حقائق الإيمان[3].

وكل هذا لأن اعتقاد الوحدانية لله عز وجل هى شهادة القبول للدخول فى دين الله تبارك وتعالى - الإسلام - كما أنها عقيدة النجاة فى الآخرة.

ومن هنا أقام المنطق الاستدلالى لمعانى القرآن مجتمع النبوة ليصير مجتمع القدوة لجميع العصور، كما أشرقت شمس الإسلام، فبددت ضباب القلوب والعقول وأطلقت الطاقات الإبداعية والمنهجية لتعمل إدراكها فى المعقول والمنقول، وفتحت للبشرية آفاقًا رحبة للبحث والدرس، ودعم القواعد والأصول.

ووجد المسلمون كمال المنهجية بالتربية والتعليم فى القرآن وفى الرسول(فبهما على وجه اليقين تحقق لرواد البحث وطلاب الحقيقة كل مأمول قال تعالى: ﴿**فأقم وجهك للدين حنيفًا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾ (الروم: الآية ٣٠).

وقال تعالى: ﴿**إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم**﴾ (الإسراء: الآية ٩).

فكان الإسلام شاملاً للمنهج الإلهى فى كتاب الله المنظور كما هو فى كتاب

---

(١) بديع الزمان النورسى مجلد الكلمات ص ٣١٠.

(٢) المرجع السابق.

(٣) راجع بديع الزمان مجلد المكتوبات ص ٢٩٨.

الله المقروء: القرآن الكريم خاتم هدايات الله للبشر قال تعالى: ﴿ **قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم** ﴾ (المائدة: الآية ١٦).

• كل حقائق الإيمان مدعمة بالبرهان:

وحرصًا على بلوغ هذا الصراط المستقيم قرر القرآن الكريم عقائد الإيمان كلها مدعمة بالحجة والبرهان، وليس به قضية بلا دليل أو دعوى بلا بينة، حتى فى باب الأدب الخلقى فقال: ﴿ **ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم** ﴾ (فصلت: الآية ٣٤).

ومجمل القول: أن القرآن الكريم اتخذ فى تقرير العقائد منهجًا واحدًا ذا شقين أحدهما: لهدم العقائد المتوارثة التى أضحت فى عالم المعتقد لا غذاء فيها للقلب والروح.

وثانيهما: لبناء العقيدة الصحية التى تملأ جوانب النفس البشرية بالإيمان الصحيح.

وقد وضحت لنا سورة الإخلاص معالم هذا المنهج فى قول الله تعالى: ﴿ **قل هو الله أحد الله الصمد. لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد** ﴾ (الإخلاص: الآية ٤).

والمتأمل لهذه الآيات التى اشتملت عليها هذه السورة القصيرة فى مبناها، الغزيرة فى معناها " يقف على أنه اشتملت على أصول المنهج القرآنى فى جانبيه:

١- جانب البناء، وقد ورد فى صيغة الإثبات ﴿ **قل هو الله أحد الله الصمد** ﴾.

٢- بينما جاءت الآيات التالية فى صيغة النفى لتصور جانب الهدم ﴿ **لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد** ﴾ (الإخلاص: الآية ٤).

ولذا يسوق الإمام بديع الزمان الاستدلال القائم على الشمول بمختلف الطرق التى سلكها الفلاسفة والمتكلمون فى موضع واحد من كتاب الله تبارك وتعالى لبيان البراهين التى تناولتها أقلام هؤلاء وأولئك فى موضع من كتاب الله، وذلك فى قوله تعالى: ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم**

تتقون. الذى جعل لكم الأرض فراشًا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقًا لكم فلا تجعلوا لله أندادًا وأنتم تعلمون ﴾ (البقرة: الآية ٢٢).

فالعبادة هى التى ترسخ العقائد وتصيرها حالاً وملكة. إذ الأمور الوجدانية والعقلية إن لم تنمها وتربطها بالعبادة التى هى امتثال الأوامر واجتناب النواهى تكن آثارها وتأثيراتها ضعيفة.

والمتأمل فى هاتين الآيتين يقف على أن النداء الإلهى بدأ أولاً بإثبات الصانع وتوحيده، ويكمن هذا البيان فى خمسة أنواع من البراهين تتمثل فيما يلى:

أولها: أنه استدل على التوحيد بأنفسهم وإليه الإشارة بقوله: **﴿ اعبدوا ربكم الذى خلقكم ﴾**.

وثانيها: بالبيان لأحوال آبائهم وأجدادهم وإليه الإشارة بقوله: **﴿ والذين من قبلكم ﴾**.

وثالثها: بالبيان لأحوال أهل الأرض عامة وإليه الإشارة بقوله: **﴿ الذى جعل لكم الأرض فراشًا ﴾**.

ورابعها: بالبيان لأحوال أهل السماء وإليه الإشارة بقوله: **﴿ والسماء بناء ﴾**.

وخامسًا: بالبيان للأحوال الطارئة المتعلقة بالسماء والأرض وإليه الإشارة بقوله: **﴿ وأنزل من السماء ماء فأخرج به الثمرات رزقًا لكم ﴾** (البقرة: الآية ٢٢).

فإن السماء كالأب، والأرض كالأم، ينزل المطر من صلب السماء إلى رحم الأرض، فيتولد منها أنواع النبات المختلفة الأشكال والطعوم كما هى فى العلاقات الكائنة فى كتاب الكون المنظور.

ولما ذكر هذه الدلائل الخمسة رتب المطلوب عليها فقال: **﴿ فلا تجعلوا لله أندادًا وأنتم تعلمون ﴾** (البقرة: الآية ٢٢).

ومن هنا تتضح لنا حقيقة البناء الذى أقام عليه الإمام بديع الزمان منهج رسائل النور فى التدليل على هذه القضية قضية التوحيد. كما هى فى القرآن الكريم وأنها برهان له، وترجمة معنوية نابعة من فيوضاته، لإيقاظ منبهات الفطرة المؤدية إلى

تثبيتها فى القلب والإذعان لها، والرضا بها، واستخدام كافة الجوارح فى طاعة الله تبارك وتعالى.

وعلى ضوء هذا البيان يتضح أن مجلدات كليات رسائل النور قد ألجمت أعتى المعاندين الملحدين وأفحمتهم وأثبتت كالشمس وضوحًا ما كان يظن بعيداً عن العقل، من حقائق الفطرة والتوحيد، كحقائق المعراج النبوى والحشر الجسمانى..

كما كانت نوراً لإيقاظ منبهات الفطرة فى النفس من خلال البيان للوعى الإيمانى القائم على الفطرة والتوحيد، ولذا كانت هذه المصابيح بمثابة النور لكلياتها لانبثاقها من الوحى الإلهى[1].

• **كتاب الله المقروء وكتابه المنظور:**

وكل هذه البراهين تستمد غذاءها من كتاب الله المقروء كما هى فى كتاب الله المنظور، الذى يتجلى فيه العرض القرآنى لقضايا علم أصول الدين، بدليل الحكمة والعناية والإتقان والإعجاز والخلق والإمكان والحدوث.

ولذا فالكتاب الأول تنطق آياته بلسان المقال والكتاب الثانى تنطق آياته بلسان الحال.

الأول: اقتضت حكمة الله أن يكمل ويبلغ حد التمام فأحصى آياته عدداً.

والثانى: اقتضت إرادة الله تبارك وتعالى أن يبقى مفتوحًا إلى يوم الدين.

قال تعالى: ﴿ **فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم، إنه لقرآن كريم فى كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون تنزيل من رب العالمين** ﴾ (الواقعة: الآيات من ٧٥: ٨٠).

فالوجود كله دلائل شاهدة على وجود الله تعالى وكمال خلقه وعظيم تدبيره ﴿ **ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين** ﴾ (الأعراف: الآية ٥٤).

(١) راجع عجائب القرآن للرازى بتحقيق عبد القادر أحمد عطا ص ٢٩ ط الأولى ١٩٨٢ وراجع المجموعة الكاملة للإمام بديع الزمان سعيد النورسى وراجع دكتور عبد العزيز الدردير التفسير الموضوعى ص ٢٦ ط ١٩٨٢م.

ومن هنا أصبحت جميع العلوم الكونية والعقلية فى فكر بديع الزمان، وسائل والسنة تنطق بالوحدانية، ونوافذ تطل على الآخرة، وبهذا يصدق نهج مجموعة رسائل كليات النور فى براهينها الإيمانية " كلما شاب الزمان فإن القرآن يزداد شباباً ونضارة أكثر "(١).

كما كانت رسائل كليات النور بياناً تربوياً متكاملاً كما يقول بديع الزمان "لقد علمنا القرآن الكريم: أن التصديق القلبى بوجود الخالق جل وعلا بصفاته المقدسة وبأسمائه الحسنى، مستند إلى شهادة الكون جميعاً "(٢).

ولذا قامت رسائل النور على البيان القرآنى لعرض وتحليل حقيقة التوحيد من خلال الربط بين الشريعة الكونية والشريعة القرآنية لتأسيس اليقين، عن طريق الربط بين وسائل الإدراك والشريعة الفطرية من جانب، والشريعة الكونية والطبيعية من جانب آخر، لتجلية مفاتيح الفطرة، والدعوة إلى إيقاظ الوعى الإيمانى، وربط المخلوق بخالقه عن طريق التكامل بين دائرتى التكاليف الإيمانية والتكاليف العملية.

كما قامت رسائل كليات النور على الربط بين دوائر الدين المتمثلة فى الإلزام والمسئولية والجزاء من خلال النظر فى كتاب الله المقروء كما هى فى كتاب الله المنظور، وأن الكتاب الأول أحكمت آياته عدداً، والكتاب الثانى ظل مفتوحاً ليأخذ منه الإنسان الزاد الذى يوصله إلى خالقه نقياً طاهراً حتى تحقق الغاية المتوخاة من التوحيد بالفوز والسعادة فى الدنيا والآخرة.

ولما كانت رسائل النور تسلك فى إثبات حقائق الاستدلال القرآنى مسلكاً متميزاً يقوم على الربط بين الشريعة الإيمانية والشريعة الكونية ببراهين قاطعة لدى الإنسان. فإننا نقتطف بعض هذه النماذج - بالإضافة إلى ما تقدم - كما أعدها الإمام بديع الزمان سعيد النورسى فى الآية الكبرى تحت مشاهدات سائح يسأل الكون عن خالقه كما هى فى قول الحق تعالى: ﴿تسبح له السموات السبع

---

(١) الأستاذ إحسان قاسم الصالحى فى مؤلفه بديع الزمان سعيد النورسى ص ٢١٩.

(٢) الأستاذ إحسان قاسم الصالحى فى مؤلفه بديع الزمان سعيد النورسى ص ٢١٩.

والأرض ومن فيهن وإن من شئ إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليمًا غفوراً ﴾ (الإسراء: الآية ٤٤).

نعم إن كل من يأتى ضيفًا إلى مملكة هذه الدنيا ويحل فى دار ضيافتها، كلما فتح عينيه ونظر رأى مضيفًا فى غاية الكرم، ومعرضًا فى غاية الإبداع.. ومعسكر تدريب فى غاية الهيبة ومتنزهًا جميلاً فى غاية الإعداد والإحكام.. وكتابًا مفتوحًا كما قلنا فى غاية البلاغة والحكمة.

وبينما يولع الضيف السائح أن يعلم ويتعرف على صاحب هذه الضيافة الكريمة وعلى مؤلف هذا الكتاب الكبير وعلى سلطان هذه المملكة المهيبة إذ بوجه السموات الجميل المتلألئ بالنجوم النيرة يطل عليه مناديًا: " انظر إلى، فأنا أعرفك بالذى تبحث عنه ".

فينظر السائح ويرى: براهين الاستدلال المتعددة والمتميزة فى الكون المقام بلا عمد ولا سند كما فى القناديل المتدلية التى لا تعد، بلا زيت ولا انطفاء، وتسيرها بسرعة فائقة بلا مزاحمة ولا مصادمة..

وفى إدارة تلك الكتل الهائلة التى لا حد لها، بلا ضوضاء ولا صخب ولا اختلال كاستسلام الشمس والقمر لأداء وظائفهما دون إحجام أو تلكؤ..

وفى جعل وجه السماء صافيًا نقيًا يتنظف طاهراً مما تلوثه أنقاض تلك الأجرام المزدحمة دون أن يرى عليه قذى ولا أذى..

كل هذه الآيات والعلامات تدل على وجود خالق تلك السموات وعلى وحدته، بعظمتها المهيبة هذه، وبإحاطتها الكلية هذه، وتشهد - كما هو مشاهد - بأن وجوده - جل وعلا - أجلى وأقرب من وجود هاتيك السموات.

لا إله إلا الله الواجب الوجود الذى دل على وجوب وجوده فى وحدته: السموات بجميع ما فيها، بشهادة عظمة إحاطة حقيقة: التسخير، والتدبير والتنظيم، والتنظيف والتوظيف، الواسعة المكملة بالمشاهدة.

ثم إن الفضاء الذى هو محشر العجائب ومعرض الخوارق والمسمى بـ " الجو " نادى بصوت هادر ذلك القادم إلى الدنيا..ذلك الضيف السائح: انظر إلى لأرشدك إلى من تبحث عنه بشوق ولهفة، وأعرفك بذاك الذى أرسلك إلى هنا.

فينظر إلى وجه الفضاء المكفهر وهو يتقطر رحمة !!! ويستمع إلى دويه المخيف المرهب وهو يحمل رحيق البشرى !!!

فيرى أن "السحاب" الذى علق بين السماء والأرض يسقى روضة الأرض سقياً يتفجر حكمة ورحمة، ويمد سكنتها بالماء الباعث للحياة، ملطفًا به شدة الحرارة. أى شدة ضرام العيش، ويدرك توًا أينما كانت الحاجة.

ومع أن ذلك السحاب الثقيل الضخم يقوم بوظائف كثيرة أمثال هذه، فإنه يختفى ويتبدد فوراً بعد أن ملأ أرجاء الجو. فتنسحب جميع أجزائه لتخلد إلى الراحة، فيتوارى عن الأنظار دون أن يترك أثرًا بمثل ظهور واختفاء الجيش المنظم طبقًا لأوامر فورية.

ولكن ما أن يتسلم أمر "هيا لإنزال المطر" إلا ويجتمع ويملأ الجو فى لحظات بل يغمره فى دقائق، ويتهيأ متأهبًا كالجندى المنتظر أمر القائد.

ثم ينظر ذلك السائح إلى "الرياح" التى تجول فى الجو فيرى أن الهواء يستخدم فى وظائف كثيرة، فى منتهى الحكمة والإبداع استخدامًا كأن كل ذرة من ذرات ذلك الهواء الجامد. وهى لا تملك شعوراً. تسمع وتعى ما يلقى إليها من الأوامر الصادرة من خالق هذا الكون.

فتؤدى خدماتها بقوة ذلك الأمر "الخالق" وهيمنته وتنفذها بكل انتظام ودقة دون أن تتوانى فى شئ منها كاستنشاق جميع أحياء الأرض، أو نقل الأصوات أو المواد الضرورية لذوى الحياة كالحرارة والضوء والكهرباء أو التوسط لتلقيح النباتات أو ما شابهها من الوظائف الكثيرة، فهى تستخدم بجميع هذه الخدمات من قبل يد غيبية استخدامًا فى منتهى الشعور "والعلم. والحيوية".

ثم ينظر إلى " المطر " فيرى أن تلك القطرات اللطيفة البراقة العذبة التى أرسلت وأغدقت من خزينة الرحمة الغيبية، تزخر بهدايا رحمانية ووظائف غزيرة حتى كأن الرحمة قد تجسدت منصبة من عيون الخزينة الربانية على صورة تلك القطرات المتهاطلة.. ولهذا أطلق على المطر اسم " الغيث " و " الرحمة ".

ثم ينظر إلى " البرق " ويصغى إلى الرعد، فيقف على أنهما يستخدمان فى أمور بالغة الإتقان والإحكام..

فيرجع بصره إلى عقله ويساور نفسه قائلاً:

إن هذا السحاب الجامد الخالى من الشعور، والمنفوش كالعهن، لا شك أنه يجهلنا ولا يعرفنا، ولا يمكن أن يسعى بنفسه لإمدادنا رأفة بنا ورقة لحالنا، ولا يمكن أن يظهر باديًا فى السماء ويختفى منقشعًا بدون أمر، بل لابد أنه يسعى فى وظيفته وفق أمر صادر من أمر قدير مطلق القدرة، ورحيم مطلق الرحمة.

حيث يختفى دون أن يعقب، ثم يظهر فجأة، متسلمًا مهام عمله، فيملأ عالم الجو ويفرغه بين الفينة والفينة تنفيذًا لأمر سلطان جليل متعال فعال، فيخط على لوحة السماء دومًا بحكمة.

ويمحو بالإعفاء محولاً إياها إلى " لوحة المحو والإثبات " وإلى صورة مصغرة للحشر والقيامة، إذ يركب السحاب متون الرياح بأمر من حاكم مدبر ذى ألطاف وإحسان وذى إكرام وعناية، حاملاً خزائن أمطار واسعة سعة الجبال وضخامتها مسعفًا بها مواضع من الأرض محتاجة إليها.. ثم يطلقها ضاحكة بالأزاهير والرياحين، ويخفف من شدة لفحة الشمس ويسقى بساتين الأرض ومروجها ويغسل وجهها وأديمها ويطهرها من الأقذار ليشرق بالصفاء والرواء.

ثم يحاور ذلك المسافر الشغوف عقله قائلاً:

إن هذا الهواء الجامد الذى لا حياة له ولا شعور ولا ثبات له ولا هدف وهو فى اضطراب دائم، وهيجان لا يسكن، وذا عواصف وأعاصير لا تهدأ، تأتى إلى الوجود وتبرز بسببه. وبصورته الظاهرة جميع الأعمال والوظائف والنعم والإمدادات العامرة بالحكمة والرحمة والإتقان، مما يثبت بداهة: أنه ليست لهذه الرياح الدائبة حركة ذاتية، فلا تتحرك بذاتها أبدًا وإنما يحركها أمر صادر من أمر قدير عليم مطلق وحكيم كريم مطلق، وكأن كل ذرة من ذراته تفهم وتسمع. كالجندى المطيع: كل أمر صادر من لدن ذلك الأمر وتدركه فتنقاد إليه، وتقوم بمهمة تنفس الأحياء وتساهم فى إدامة حياتها وتشارك فى تلقيح النباتات ونموها، وسير السفن التى لا وقود لها.. وكثير من الخدمات العامة الكلية، فضلاً عن أن ذرات الهواء مركبة من مواد بسيطة كالأزوت والأوكسجين ومع تماثل بعضها لبعض فلا أراها إلا أنها تستخدم بيد حكيمة بانتظام كامل فى جميع أنماط

المصنوعات الربانية.

لذا نطق السائح قائلاً: حقًا مثلما صرحت الآية الكريمة ﴿**وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض**﴾ (البقرة: الآية ١٦٤).

فإن الذى يجرى أمره على الهواء ويستعمله فى خدمات ووظائف ربانية غير محدودة، بتصريف الرياح، وفى أعمال رحمانية غير محدودة بتسخير السحاب، ويوجد الهواء على تلك الصورة، ليس إلا ربًا واجب الوجود، قادراً على كل شئ، وعالمًا بكل شئ ذا جلال وإكرام[1].

أن ذلك المسافر الذى أرسل إلى الدنيا لأحل الإيمان والذى قام بسياحة فكرية فى عالم الكائنات للاستفسار عن خالقه من كل شئ، والتعرف على ربه فى كل لحظة، وترسيخ إيمانه بدرجة حق اليقين، بوجوب وجود إلهه الذى يبحث عنه خاطب هذا السائح عقله قائلاً: عند رؤية كل آية من آيات الكون لا إله إلا الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

وهكذا يوقفنا الإمام بديع الزمان فى مؤلفاته كليات رسائل النور على ماهية الاستدلال القرآنى، وأنه خاطب الإنسان ككل بما فيه من إرادة وعقل ووجدان.. أى خاطبه بجانبه العقلانى والوجدانى هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى: خاطب جميع بنى البشر كل على قدر درجته من الفهم والإدراك، كما تميز بالثبات، والتنوع. لأنه خطاب الخالق للبشر كلهم، مستمداً من أصل طبيعتهم ومن رسالتهم الإلهية التى جاءت عامة للبشرية جميعًا، معتمداً فى المقام الأول على الفطرة الإنسانية.

ولذا انطلقت كليات رسائل النور من البيان الإيمانى لآيات القرآن الكريم إلى أعماق الأنفس والآفاق فى ترابط كونى يوقظ العقل ويريح القلب ويشبع الوجدان بل الكيان الإنسانى كله عبر نظره لأبعاد المعرفة الكونية الساطعة التى تشرق على كافة الكائنات من خلال قول الله تعالى: ﴿**الله نور السموات والأرض**﴾.

ومن هنا فالإنسان الذى يدرك هذه المفاتيح يسمو بنور الإيمان حتى يستطيع أن

---

(١) راجع المجموعة الكاملة لمؤلفات رسائل النور جـ٤ ص ١٤٥ وراجع مجلد الآية الكبرى ص ١٣٤ " اللمعات ".

يدرك حكمة المخلوقات من جانب كما يتخلص من ضيق الحوادث من جانب آخر مستنداً إلى قوة إيمانه فيبحر متفرجًا على سفينة الحياة فى خضم أمواج الأحداث العاتية بكمال الإيمان(١).

ومن هذا المنطق ستظل رسائل النور السنة تنطق بالوحدانية، ونوافذ تطل على الآخرة لدوام مصدرها القرآنى وكما قال بديع الزمان: "إن رسائل النور درس قرآنى يوافق أفهام العصر"(٢) وكل عصر حيث دعا إلى التفكر والنظر وإعمال العقل للوصول إلى الحق قال تعالى: **﴿أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض﴾** (الأعراف: الآية ١٨٥).

وقال تعالى: **﴿قل انظروا ماذا فى السموات والأرض﴾** (يونس: الآية ١٠١).

وقال تعالى: **﴿أو لم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق﴾** (الروم: الآية ١٠٨).

وقال تعالى: **﴿ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً﴾**.

فجميع هذه الآيات تشير إلى طلب التفكر فى إنشاء السموات والأرض وإبداعهما، وفيما اشتملا عليه من عجائب المصنوعات، ودقائق الأسرار، ولطائف الحكم... كما تبين فيما تقدم وأنها ترشد كل نفس على وجود الخالق ووحدته فى ذاته وصفاته وأفعاله.

وهكذا يعرض القرآن الكريم المقدمات ويترك للعقول استنتاج النتائج من القضايا المتعددة فى الأنفس والآفاق.

وفى قضية البعث يخاطب العقول بأساليب متعددة، ويدعوها إلى المقارنة بين حال البدء من العدم وحال الإعادة ثم يقياس هذه على تلك لكى يصل العقل فى

---

(١) راجع الإمام بديع الزمان سعيد النورسى مجلد الكلمات ص ٣٤٨ من مجموعة كليات رسائل النور

(٢) راجع بديع الزمان النورسى حقيقة التوحيد ترجمة الأستاذ قاسم الصالحى ص ٥٧ وراجع الدكتور محسن عبد الحميد النورسى الرائد الإسلامى الكبير ص ٥٠ .

النهاية إلى إمكان البعث فى الحياة الثانية قياسًا على إمكانه فى الحياة الدنيا . . الأولى، قال تعالى : ﴿ **كما بدأكم تعودون** ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ **كما بدأنا أول خلق نعيده** ﴾ .

وهكذا قاس الإعادة على الابتداء، كما يقيس الإعادة على خلق السموات والأرض بقياس الأولوية قال تعالى : ﴿ **أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم** ﴾ (يس: الآية ٨١) .

كما أشار القرآن الكريم إلى منهج التحليل والتركيب قال تعالى : ﴿ **وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعيًا واعلم أن الله عزيز حكيم** ﴾ (١) .

اقرأ هذه الآية ودقق النظر فيها تجدها تشرح بكل دقة منهج التحليل والتركيب الذى يقوم على أربعة قواعد :

قاعدة اليقين، وقاعدة التحليل، وقاعدة التركيب، وقاعدة المراجعة والمقارنة .

وفى هذه الآية نجد بيانًا قرآنيًا وسبقًا لهذا الاستدلال الذى ارتبط باسم علماء المادة من المحدثين .

* **القاعدة الأولى** : هى الشك والقلق من أجل الوصول إلى اليقين، حيث يريد إبراهيم " عليه السلام " أن يصل إلى يقين ثابت لكى يطمئن قلبه . فقال : " رب أرنى كيف تحيى الموتى " ؟ يريد أن يعاين الحق بنفسه ويصل إليه وصولاً يقينيًا لاشك فيه ولا تردد . . . . . حتى لا يكون اليقين قائمًا على مجرد التسليم .

* **القاعدة الثانية** : هى التحليل والتجزئة حيث أمره أن يأخذ أربعة من الطير ثم يجزئها ويجعل على كل جبل منهن جزءاً .

---

(١) سورة البقرة جزء من الآية ٢٦٠ وراجع دكتور سعد الدين السيد العقيدة الإسلامية رؤية جديدة فى أسلوب الدراسة ص ٧٥ ط ١٩٨٣م. وراجع القول السديد فى علم التوحيد لفضيلة الشيخ محمود أبو دقيقة ج٣، ص ٥٤ تحقيق وتعليق أستاذنا الدكتور عوض الله حجازى ط : مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، ط ١٩٩٥ .

* القاعدة الثالثة: وهى التركيب. " ثم ادعن يأتينك سعيًا ".

* القاعدة الرابعة: وتتلخص فى المراجعة والمقارنة ﴿واعلم أن الله عزيز حكيم﴾[1].

أى تأكد بنفسك وراجع ماسبق لكى تثق مما أردت الاطمئنان إليه بالتجريب الواقعى.

وتارة يستدل بإبطال قول الخصم، وأن ينتقل المستدل إلى استدلال غير الذى سلكه لإبطال قول خصمه لكون الخصم لم يفهم وجه الدلالة فى الأول.

ومثاله ما جاء فى مناظرة سيدنا إبراهيم عليه السلام لملك وقته أتاه الله الملك.

قال له سيدنا إبراهيم – عليه السلام – لما امتنع عن الإيمان بالله وتمسك بعبادة الأصنام "ربى الذى يحيي ويمت" أى يخلق الحياة والموت فى الأجسام.

فقال الخصم: أنا أحيى بالعفو عن القتل، وأميت بالقتل. !!!

فعلم الخليل عليه السلام من هذا الرد أنه لم يفهم معنى الإحياء والإماتة، أو أنه فهم وغالط.

فانتقل سيدنا إبراهيم " عليه السلام " إلى استدلال آخر لايمكن لخصمه أن يتخلص منه ولا أن يغالط فيه.

فقال: إن الله يأتى بالشمس من المشرق فات بها من المغرب. فانقطع الخصم ولم يجد طريقًا للمكابرة بعد[2].

ومن تتبع البراهين القرآنية وتأمل فى طرق الاستدلال التى وقفنا على جانب منها يدرك أن ذلك الكتاب المقدس ما ترك بابًا من أبواب الاستدلال إلا طرقه وأبان طرق الحق فيه بالربط بين الكتاب المقروء والكتاب المنظور[3].

بقلم الدكتور سامى عفيفى حجازى

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٦٠ وراجع المرجع السابق.

(٢) راجع المرجع السابق لفضيلة الشيخ محمود أبو دقيقة ص ٥٦.

(٣) راجع مجلد إشارات الإعجاز النورسى

ومن هنا تناول الإمام بديع الزمان النورسى - رحمه الله - منهجًا إيمانيا يقوم على المنهج الاستدلالى. إذ لا يتناول أمرًا إلا ومعه، أو قد سبقه برهان ودليل لإثباته سواء كانت تلك الأدلة شرعية نقلية أو أدلة عقلية أو فطرية... ولعل هذا هو السر فى إلزامها المعاندين وإلجامها لهم.

أما طريقته فى الاستشهاد بالآيات أو الأحاديث أو أية قاعدة شرعية كانت، فإنه يمد العقل ويهيئ النفس لقبول ذلك الدليل الشرعى فيذكر الآية أو الحديث ثم يستطرد فى الشرح والتحليل.

وهذا المنهج الاستدلالى لرسائل النور كما يقول مؤلفها فى هذا العصر، وفى هذا الوقت بالذات عروة وثقى، أى سلسلة قوية لا تنقطع، وهى حبل الله، فمن استمسك به فقد نجا[١] إذ أن أغلب العقول والنفوس قد اصطبغت بآراء الفلاسفة الماديين ورانت على القلوب المخالفات التى حجبت الناس عن إدراك مرامى الآية أو الحديث أو أى دليل شرعى آخر، لذا لا ترى الاستشهاد الكثير عنده بهما إلا بعد مقدمات تأخذ بأطراف النفس والعقل والروح "[٢].

وهو بهذا يربى عند الإنسان القدرة على معرفة الدليل، ووزن الكلام المقروء والمسموع بميزان الإسلام حيث يقول: أرونى مفسداً يقول: أنا مفسد !! وماهو إلا مفسد إلا أنه يتراءى فى صورة الحق، أو يرى الباطل حقا "[٣] أى وليس هناك من يصم نفسه بالفساد، بل غالبا ما يظهر المفسد نفسه بمظهر الصلاح والصواب.

ولذا فالمتأمل يقف على أن الإمام النورسى فى منهجه رجح الاستدلال بالأثر

---

(١) مرشد اهل القرآن إلى حقائق الإيمان للإمام بديع الزمان سعيد النورسى ص ٦٧ ترجمة الأستاذ إحسان قاسم الصالحى ط ١٩٩١ م وراجع بديع الزمان سعيد النورسى للمترجم ص ٢٢٨ ط ١٩٩٦.

(٢) انظر المرجع السابق.

(٣) راجع الأستاذ إحسان قاسم الصالحى فى مؤلفه بديع الزمان سعيد النورسى ص ٢٢٨ ط الثانية ١٩٩٦م.

على المؤثر السالم من الشبهات، وهو الطريق الأصوب للاستدلال ولا سيما فى عصرنا هذا الذى اتخذ المادة أساسًا لكل شىء.

لذا ساق الأستاذ الأمثلة المادية الملموسة كدليل فى المسائل الإيمانية، بخلاف علماء الغرب - المتدينين - الذين يرجحون الاستدلال بالمؤثر، على الأثر، حيث ساقوا المسائل التى استعصت على العلم الحديث. والتى لم يتمكن من كشف نتائجها وتوضيحها بعد كشواهد لإثبات عظمة الخالق ودلائل قدرته سبحانه، وكأنهم أعطوا - بهذا فضل ما اكتشفه العلم إلى العلم نفسه، وما عجز عنه إلى الله سبحانه!!!

ولكن حينما تتضح المسألة - بعد الكشف العلمى - وتصبح من الأمور البديهية، فإن تلك الأمور الاعتقادية سوف تتضعضع وبدورها يضعف الإيمان... وقد انهار الإيمان عند بعضهم فعلاً "(١).

ويبلغ الإمام النورسى إلى درجة يوحد فيها قبلة فكره وروحه وقلبه ويجمل "الكل" على القرآن الكريم، ويتلقى منه وحده ويأخذ عنه ويعتبره الأستاذ والمرشد فيجلس بين يديه ويتلقى منه الأسرار والفيوض والرحمات(٢).

ولذا يبرهن لهؤلاء وأولئك الذين أفرطوا والذين فرطوا حتى انهار الإيمان عند بعضهم بطمس منبهات الفطرة والدين. فيقول: كما أن دلالة النار إلى الدخان، التى هى دلالة المؤثر على الأثر. تسمى بـ " البرهان العلمى " كذلك فإن دلالة الدخان على النار- أى دلالة الأثر على المؤثر. تسمى بـ "البرهان الآنى " وإن البرهان الآنى هذا هو أسلم من الشبهات "(٣).

غير أن الأستاذ النورسى الذى رجح الاستدلال النابع من الأثر على المؤثر، قد

---

(١) المرجع السابق ص ٢٣٠.

(٢) بديع الزمان مرشد أهل القرآن.

(٣) المرجع نفسه وراجع إشارات الإعجاز للإمام بديع الزمان سعيد النورسى ج ٥ ص ٤٨، ١٥٠ ط ١٩٩٤م وراجع دكتور / فرج محمد الوصيف بديع الزمان سعيد النورسى عصره ودعوته ص ٢٥٥ ط الأولى ١٩٩٦م.

وجه الأنظار إلى "حكمة" كل شيء وكل حادثة من حوادث الكون، سواء في ذلك علمت نتيجتها أم لم تعلم بعد..

واختار التعريف بالمؤثر الحقيقي بصفاته الجليلة وأسمائه الحسنى، لذا فكلما يتقدم العلم ويعلن للأوساط حكمًا جديداً بكشفه عن كيفية نشوء الحوادث، يصبح وسيلة لفهم أوضح للمسائل الإيمانية، وبهذا يصدق نهج رسائل النور في دعواها "كلما يشيب الزمان فإن القرآن يزداد شباباً ونضارة أكثر، وتستبين رموزه"[1].

وبناء على ما تقدم يوقظ " بديع الزمان النورسي " في إدراك كل من يأتي ضيفاً إلى مملكة هذه الدنيا ويحل في دار ضيافتها أنه كلما فتح عينيه ونظر وفكر يقف على منافذ فكرية متشعبة الجوانب، ومفاتيح إيمانية تحمل الكثير من الأفكار والأحاسيس والمشاعر في وحدة معرفية متشابكة الجذور، وتوحد ذاتي لا يعرف الانقسام بين جوانب النفس المتعددة، فأفكاره وأحاسيسه ومشاعره يموج بعضها في بعض، ويندرج بعضها ببعض ويشد بعضها أزر بعض.

وما كل ذلك إلا لأنه قد وهب نفساً تواقة إلى حقائق الحياة والوجود، كما منح عقلاً مسئولاً ينبغي أن يدفعه عن الخوض في الضحضاح من المفاهيم والأفكار الجاهزة المجافية للفطرة من جانب وللدين من جانب آخر[2].

كما ينبغي أن يدفعه شغفه بالحقيقة إلى الكشف عنها بنفسه كما هي في كتاب الكون المنظور الذي فسر براهينه كتاب الله المقروء القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿**ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين**﴾ (البقرة: الآية ٢).

وقال تعالى: ﴿**إن هذا القرآن يهدى للتي هي أقوم**﴾ (الإسراء: الآية ٩) فكان الإسلام شاملاً للمنهج الإلهي في كتاب الله المنظور كما هو في كتاب الله المقروء – القرآن الكريم – خاتمة هدايات الله للبشر قال تعالى: ﴿**قد جاءكم من الله نور**

---

(١) المرجع السابق للأستاذ احسان قاسم الصالحي ص ٣٣١.

(٢) راجع الأستاذ أديب إبراهيم الدباغ مطارحات في المعرفة الإيمانية عند النورسي ص ٧ ط الأولى ١٩٩٧م.

وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾ (المائدة: الآية ١٦).

• النورسى والكون المنظور:

وحرصًا على بلوغ هذا الصراط المستقيم، ورحمة من الخالق للمخلوق، كانت الآيات التى نستقى منها أصول الهداية الإيمانية وهى أول ما يستفتح به كل نداء جاء به كتاب الله – القرآن الكريم – تلك هى سورة الفاتحة.

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين، اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾.

وبيان ذلك يتضح فيما بنيت عليه هذه الآيات البينات حيث تبين الطريق إلى:

أولاً: مصدر الهدى الموصل إلى الصراط المستقيم.

ثانيًا: أسباب إفاضة الهدى.

ثالثًا: أسباب منع الهدى.

رابعًا: نتيجة الهدى وفائدته.

أولاً: مصدر الهدى الموصل إلى الصراط المستقيم:

إن صدر السورة الكريمة يبين أن الهدى يأتى من الله سبحانه وتعالى **﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾**.

ووجه النظم كما يقول الإمام – النورسى – إنه جواب العبد – السائح الذى قدم إلى الدنيا – عن سؤاله تعالى كأنه يسأل: أى مقاصدك أعلق بقلبك"[1]؟

---

(١) سورة الفاتحة الآية ٦ ويتايد ذلك بآيات كثيرة واحادث:
قال تعالى: "قل إن هدى الله هو الهدى" سورة البقرة الآية ١٢٠.
قال تعالى: "ومن يهد الله فهو المهتد" سورة الإسراء الآية ٩٧.
قال تعالى: " وما كنا لنهتدى لولا ان هدانا الله " سورة الأعراف الآية ٤٣.
قال تعالى: " وإن اهتديت فيما يوحى إلى ربى " سورة سبأ الآية ٥٠.

فيقول العبد : ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم** ﴾ الذى هو العدل[1].

وهذا البيان بما يشتمل عليه من نصوص قرآنية وأحاديث نبوية يدعو إلى الاستعانة بهدى الله فى كل لحظات الحياة كما يقول العلامة ابن أبى العز فى شرحه على العقيدة الطحاوية :

١ - انفع الدعاء وأعظمه وأحكمه دعاء الفاتحة : ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعم عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين** ﴾ .

فإنه إذا هداه الصراط أعانه على طاعته وترك معصيته فلم يصبه شىء لا فى الدنيا ولا فى الآخرة .

لكن الإنسان محتاج إلى الهدى فى كل لحظة، لأن الذنوب من لوازم النفس، فهو إلى الهدى أحوج منه إلى الطعام والشراب .

ليس هذا فحسب بل والماء والهواء، وليس كما يقول البعض : أن المراد التثبيت أو مزيد الهداية، بل العبد محتاج إلى أن يعلمه الله ما يفعله من تفاصيل الأوامر وإلى ما يتركه من تفاصيل النواهى فى كل لحظات الحياة .

كما أنه محتاج إلى أن يلهمه العمل بما علمه، لأنه لا يكفى مجرد علمه أن يجعله مريداً للعمل بما يعلمه .

ولو لم يهده الله للعمل بما علمه، لكان العلم الذى علمه إياه حجة عليه ولم يكن مهتدياً به .

ومع كل هذا فهو محتاج إلى أن يجعله قادراً على العمل بتلك الإرادة الصالحة التى ألهمه الله إياها .

= - كما ورد فى صحيح الإمام البخارى " والله لولا الله ما اهتدينا " .

- ويقول عليه الصلاة والسلام " اللهم إنى أسألك الهدى، والسداد، واذكر بالهدى هدايتك الطريق وبالسداد سداد السهم" ذكره الإمام مسلم فى صحيحه فى باب التعوذ من شر ما عمل وما لم يعمل .

(١) الإمام بديع الزمان المرجع السابق ص ٣٢ .

وبعد ذلك كله هداية أخرى وهى الهداية إلى طريق الجنة فى الآخرة[١].

ومن عرف هذا حق المعرفة انفتح له باب التوجه إلى الله وحده، وعلم أنه لايستحق أن يسأل غيره، ولا يتوكل على غيره، ولا يهتدى بغيره، ولا يستغنى عن هداه مخلوق[٢]. وهنا يتجلى الصراط المستقيم وأنه العدل.

ولذا يقول الإمام "النورسى" إن الله عز وجل لما أسكن الروح فى البدن المتحول المحتاج المعروض للمهالك أودع لإدامتها فيه قوى ثلاثًا:

إحداها: القوة الشهوية البهيمية الجاذبة للمنافع.

وثانيتها: القوة الغضبية الدافعة للمضرات والمخربات.

وثالثتها: القوة العقلية المميزة بين النفع والضر.

ويفسر بديع الزمان - النورسى - هذه القوى المتعددة فى طلب الصراط المستقيم بتوحيد قبلة الفكر والروح والقلب، وإن يجمع الإنسان الكل على مصدر الهدى الموصل إلى العدل الذى هو الصراط المستقيم كما هو فى القرآن الكريم فيقول: "لكن الله تعالى بحكمته المقتضية لتكمل البشر بسر المسابقة - لم يحدد بالفطرة تلك القوى كما حدد قوى سائر الحيوانات، وإن حددها بالشريعة. لأنها تنهى عن الإفراط والتفريط وتأمر بالوسط "فاستقم كما أمرت ".

وبعدم التحديد الفطرى يحصل مراتب ثلاث:

٢- مرتبة النقصان وهى التفريط.

٣- مرتبة الزيادة وهى الإفراط.

٤- مرتبة الوسط وهى العدل[٣]: الذى هو الصراط المستقيم.

---

(١) راجع الأستاذ الدكتور / يحيى هاشم مدخل إلى العقيدة الإسلامية ص ١٧ ط ١٩٨٥م.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبى العز ص ٢٦٩ - ٢٧٠ نقلاً عن المرجع السابق ص ١٨.

(٣) راجع الإمام بديع الزمان سعيد النورسى إشارات الإعجاز فى مظان الإيجاز ج٥ ص ٣٢ ط ١٩٩٤م.

ثانيًا: أسباب إفاضة الهدى من الله تعالى:

تبين السورة أن الهدى نعمة من الله تأتى نتيجة التوجه إليه بحمده والثناء عليه بأسمائه الحسنى... من حيث هو سبحانه المستحق وحده للعبادة ليس هذا فحسب بل ومن حيث هو وحده المستعان.

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين، إهدنا الصراط المستقيم[1].

ثالثًا: أسباب منع الهدى:

تبين السورة أيضًا أن الهدى لا يحصل عليه صنفان من الناس: "المغضوب عليهم" و "الضالين"[2].

الصنف الأول: من يعادون الله فيغضب عليهم (غير المغضوب عليهم(وهم الذين تجاوزوا بتجاوز القوة الغضبية فظلموا، وفسقوا بترك الأحكام كتمرد اليهود ومن هنا ذكر القرآن الكريم - العاقبة التى تنفر كل نفس وهى نزول غضبه تعالى

---

(١) سورة الفاتحة الآية ٦ ويتايد ذلك بآيات اخرى أيضًا، تبين أن الله تبارك وتعالى يعطى الهدى لمن يأخذ بأسبابه. بقول تعالى " والذين جاهدوا ص ٩ بالبحث.

ويقول تعالى: " يهدى الله من اتبع رضوانه سبل السلام، سورة المائدة الآية ١٦.

ويقول تعالى: "هدى وذكرى لأولى الألباب: سورة غافر الآية ٥٤.

ويقول تعالى: "يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا " سورة الأنفال جزء من الآية ٢٩ - أى نورا يفرق به بين الحق والباطل ويخرج به من الشبهات ولذا يقول الرسول - صلى الله عليه وسلم - من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم ووفقه فيما يعمل، حتى يستوجب الجنة، ومن لم يعمل بما يعلم تاه فيما يعلم " اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان.

وهذا تصريح بضلال النظر التجريدى أى الخالى من العملى، وعدم التوفيق يستوجب النار فى الآخرة.

(٢) سورة الفاتحة الآية ٧ وتفصل الآيات الآخرى جوانب من أسباب منع الهدى كما فى قول الله تبارك وتعالى:

" والله لايهدى القوم الظالمين " سورة البقرة الآية ٢٥٨.

" والله لايهدى القوم الكافرين " سورة البقرة الآية ٢٦٤.

" والله لايهدى القوم الفاسقين " سورة التوبة الآية ٨٠.

"كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب" سورة غافر الآية ٣٤.

واختار الاسم الذى من شأنه الاستمرار إشارة إلى أن العصيان والشر إنما يكون سمة إذا لم ينقع بالتوبة والعفو.

الصنف الثانى: من يستقلون بمنهجهم عن الله فيضلون " ولا الضالين " وهم الذين ضلوا عن الطريق الحق بسبب غلبة الوهم والهوى على العقل والوجدان، ووقعوا فى النفاق بالاعتقاد الباطل كسفسطة النصارى.

واختار القرآن نفس صفتهم، لأن نفس الضلالة ألم ينفر النفس وتجتنب منه الروح وإن لم ير النتيجة... وإسماً لأن الضلالة إنما تكون ضلالة إذا لم تنقطع[1] بالدخول فى التوبة، وبهذا يشير البيان إلى أن كل الألم فى الضلالة، وكل اللذة فى الإيمان[2].

رابعاً: نتيجة الهدى وفائدته:

تبين السورة أن نتيجة الهدى هى الوصول إلى الصراط المستقيم ﴿اهدنا الصراط

---

(١) بديع الزمان سعيد النورسى اشارات الاعجاز فى مظان الايجاز ج٥ ص ٣٦ ط ١٩٩٤ م.

(٢) راجع الدكتور يحيى هاشم المرجع السابق ص ٢١.

ونقول: كما يقول صاحب دراسة مداخل إلى العقيدة الإسلامية: إن الفلسفات والعلوم التجريبية التى يصل إليها العقل مستقلاً خاضعة حتما لما تخضع له عقولنا من النسبية والنقصان.

لذلك فإن ما نصل إليه اليوم من علم يظهر لنا نقصه غدا، وما نزال نكتشف بتقدم البحث جهلنا، وهزال معارفنا، وحاجتنا إلى الهدى واليقين الذى لاتفرزه عقولنا.

وفى ظل هذه العلوم النسبية والفلسفات الناقصة يتقدم العلم التجريبى، ويطرد الحصول على بعض منافع الدنيا لكن الإنسانية لابد لها فى حركتها إلى الأمام سواء عن طريق العلم أو الفلسفة – من أن تكون لها أهداف ثابتة واضحة راسخة على مدى الدهور، وإلا كان ضلالها عن أهدافها لا يمكن تلافيه، أو البرء عنه، كما ان العلوم النسبية تضل دائماً عن الأهداف البعيدة الراسخة.

وهذا ليس من شانها، ولا يمت إلى قدرتها بسبب، ومن هنا كان الإنسان بحاجة إلى مصدر خارجى يهديه إلى هذه الأهداف ويرسم لها الطريق وهذا يتكامل مع بداية الحديث وان هذا البيان لنتيجة الهدى وفائدته فى نهاية المطاف يتكامل مع بداية الحديث وأن مصدر الهدى من الله ليس هذا فحسب بل ونتيجة الهدى وفائدته إنما تكمن فى تحصيل اليقين الذى نحن بحاجة إليه لسكون النفس من جانب وللعلم بالاهداف العليا والطريق إليها من جانب آخر.

المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم﴾ وفى هذا الصراط المستقيم يحصل اليقين المنشود الذى اثبتنا أنه لا يمكن الحصول عليه بالجهود العقلية الذاتية، المستقلة عن الله.

إن العقل المتمرد أو المستقل يمكنه أن يصل إلى شىء من الظن. لكنه لا يصل مستقلاً إلى شىء من الهدى الذى تشعر فيه النفس بالطمأنينة والسكون واليقين[1].

وهنا يتحقق الوصول إلى الصراط المستقيم بهدى الله تبارك وتعالى القائل فى كتابه الكريم: ﴿قل إن هدى الله هو الهدى﴾ وهذا يوقفنا على أن مورد المعرفة الاستدلالية لرسائل النور التى هى درس قرآنى يوافق أفهام العصر كمداخل التسليم لنفس الإنسان القادم إلى الحياة الدنيا تصدر من الخالق وتتوجه إلى المخلوق.

وإن وجود الإنسان هو نقطة المركز من دائرة عالم "النورسى فى الاستدلال الفكرى" "وعقله موضع نقاشه، وقلبه وروحه متلمس بصيرته". ولذا كان لتلقى المعرفة الإلهية طرفان:

١. طرف من المصدر وهو الله.

٢. وطرف من المورد وهو الإنسان.

ومن هنا كان مصدر المعرفة الإيمانية التى دعا إليها القرآن يخاطب الإنسان من حيث هو إنسان، فلا يخاطب طبقة معينة من البشر يرتفع بها أو ينخفض...

فيقع فى التناقض مع المستويات الأخرى.

ولا يخاطب فى الإنسان قوة من قواه دون الأخرى..

فيقع فى التناقض مع القوة التى يهملها.

وإنما يتوجه إلى الإنسان كإنسان.

قال تعالى: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا

(١) راجع الأستاذ أديب إبراهيم الدباغ المرجع السابق ص ١٠.

. تبديل لخلق الله ﴾[1].

وهذا يفيد أن الدين فطرة الله وأن الإنسان فطرة الله وأنه بقدر إيقاظ الإنسان لمنبهات الإدراك الفطرى الذى خلقه الله عليه يتطابق مع الفطرة التى فطر الله الناس عليها إلا أنه نفس الفطرة الموجودة فى الناس، فالدين أمر والناس أمر آخر، ولما كان كل منهما فطرة الله فكان لابد من التلاقى أو التلقى بين الدين وبين الإنسان .

كما يفيد أن توجيهات الدين تلتقى مع الإنسان فى قواه المختلفة والمتعددة، وتتعامل معها جميعاً : العقل والإرادة والوجدان ذلك أن الصفات النفسية للإنسان مرتبط بعضها ببعض ويؤثر بعضها فى بعض - كما وقفنا على ذلك فيما تقدم - والاعتقاد وهو حالة نفسية مرتبط بالصفات النفسية كلها يتأثر بها ويؤثر فيها[2].

ومن هنا فقد بات واضحاً أن تكون الوحدة الجامعة لهذه القوى ممثلة فى المجموع الذى هو الإنسان كما يقول - صاحب دراسة مدخل إلى العقيدة الإسلامية - وهذا الموقف الإسلامى من قوى النفس الثلاث راجع إلى كون الإسلام صادراً من الله سبحانه من ناحية، موجهاً إلى الإنسان من ناحية أخرى، فصدور هذا الدين من الله إلى الإنسان يعنى أنه صادر ممن يعرف طبيعة الإنسان وقواه الأساسية التى يتألف منها وأبعاد هذه القوى وأغوارها ومداها، أى "وسعها"[3] قال تعالى : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ (البقرة: الآية ٢٨٦) وقال تعالى : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها ﴾ (الطلاق: الآية ٧).

فكان لابد أن يلتقى بالإنسان فى جميع قواه .

ومن هنا يصبح التسليم الذى يعنيه الإسلام ليس هو التسليم لقوة فى النفس عقلية أو غيرها . وإنما هو أن تسلم قوى النفس الثلاث الإرادة والعقل والوجدان - للقوة الأعلى وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿ قل أى شىء أكبر شهادة ﴾ (الأنعام: الآية ١٩).

(١) سورة الروم الآية ٣٠ وراجع دكتور يحيى هاشم المرجع السابق ص ٢٣.

(٢) راجع دكتور يحيى هاشم مداخل لدراسة العقيدة الإسلامية، ص ٣١، ط ١٩٨٥م.

(٣) راجع دكتور يحيى هاشم حسن فرغل المرجع السابق.

لم يقل شهادة العقل أو القلب . . .

وإنما ﴿ **قل الله شهيد بيني وبينكم** ﴾ (الانعام: الآية ١٩).

وهذه الآية إذن تتحدث عن الله لا باعتباره خالقًا وأصلاً للوجود فحسب، ولكنها تتحدث عنه كأصل للبيان الإيماني للإنسانية عامة.

﴿ **إن إلى ربك الرجعى** ﴾ (العلق: الآية ٨).

ومن هنا كان خطاب القرآن الكريم للإنسان: ﴿ **ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك الذى أنقض ظهرك، ورفعنا لك ذكرك فإن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا، فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب** ﴾ (سورة الشرح).

لقد سبر بديع الزمان سعيد النورسى غور الإنسان بمسبار القرآن، وجال فى آفاق نفسه، وأوغل فى مجاهيل ذاته، وعاد من رحلته الاستكشافية هذه ليقرر أن "الإنسان" حجة القرآن على الإنسان نفسه، وأنه العالم الأصغر الذى ينطوى على ما ينطوى عليه العالم الأكبر من المتناقضات والأضداد؛ ففى وجوده عدم، وفى عدمه وجود، وفى حياته موت، وفى موته حياة . . .

وبكلمة جامعة يتجاور فيه سلبه وإيجابه، إلا أنه ترك له الخيار، ومنح الإرادة ليربط أسبابه بأسباب أى من السلب أو الإيجاب"[١].

لقد انطلق بديع الزمان سعيد النورسى فى بيان منهجه الإيمانى من فيض القرآن إلى أعماق النفس والوجدان ليس هذا فحسب بل والآفاق المرئية والمدركة فى ترابط ينير الطريق للعقل ويريح القلب عبر نظرة واحدة فى جوانب المعرفة الكونية التى تشرف على الكائنات من خلال قول الله تعالى: ﴿ **الله نور السموات والأرض** ﴾[٢].

---

(١) الأستاذ أديب إبراهيم الدباغ مطارحات فى المعرفة الإيمانية عند النورسى ص ١١ ط ١٩٩٧م.

(٢) سورة النور الآية ٣٥ وراجع المؤلف فى المؤتمر العالمى الثالث لبديع الزمان سعيد النورسى بحث بعنوان أضواء على حقيقة التوحيد فى فكر الإمام النورسى ص ٧٠ ط الأولى ١٩٩٦م

إن ذلك المسافر الذى أرسل إلى الدنيا لأجل الإيمان، والذى قام بسياحة فكرية فى عالم الكائنات للاستفسار عن خالقه من كل شىء، والتعرف على ربه فى كل لحظة، وترسخ إيمانه بدرجة حق اليقين، بوجوب وجود إلهه الذى يبحث عنه. خاطب هذا "السائح" عقله قائلاً: هلم نخرج معًا فى سياحة أخرى جديدة لنرى من خلالها براهين تقودنا إلى وحدانية خالقنا الجليل سبحانه وتعالى.

وطفقا معًا يبحثان بشوق غامر عن البراهين الإيمانية، ولذا فمن الأفضل أن نقتطف بعض النماذج الواردة على لسان السائح كما هى فى رسائل النور ليقف القارئ على ما تحمله من براهين فى كتاب الله المقروء كما هى فى كتاب الله المنظور.

قال تعالى: ﴿**فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيى الموتى وهو على كل شىء قدير**﴾ (الروم: الآية ٥٠) والآية نفسها تفيد بإعجاز جميل المعانى الواردة فى هذه الصحيفة.

وفهم ما تردده كرة الأرض بجميع صحائفها وبنسبة جسامتها وقوتها من: لا إله إلا هو.

وهكذا لأجل بيان شهادة مختصرة، لوجه واحد فقط، من وجوه صحيفة واحدة، من الصحائف الواسعة لكرة الأرض، التى تربو على العد، ولأجل بيان ما أفادته مشاهدات ذلك السائح فى سائر الوجوه والصحائف.. ذكر فى المرتبة الثالثة من المقام الأول:

لا إله إلا الله الواجب الوجود الذى دل على وجوب وجوده فى وحدته: الأرض بجميع ما فيها، وما عليها، بشهادة عظمة إحاطة حقيقة: التسخير، والتدبير، والتربية، والفتاحية وتوزيع البذور والمحافظة والإدارة، والإعاشة، لجميع ذوى الحياة، والرحمانية والرحيمية العامة الشاملة المكملة بالمشاهدة].

ثم أصبح ذلك المسافر المتفكر كلما قرأ صحيفة قوى إيمانه الذى هو مفتاح السعادة وزادت معرفته بالله التى هى مفتاح المدارك المعنوية، وانكشفت لبصيرته درجة أخرى من حقيقة الإيمان بالله الذى هو الأساس القويم لجميع الكمالات ومنبعها الثر العذب.

ومع أنه قد وعى دروسًا بليغة وتامة من السماء والجو والأرض، بات يطلب المزيد، كلما منحته تلك الصحائف أذواقًا معنوية لطيفة، ولذائذ روحية كثيرة، مثيرة شغفة، منبهة ولعه بشدة قائلاً: هل من مزيد، وإذا به يسمع صدى أذكار "البحار والأنهار العظيمة" التى تتدفق خشوعًا وشوقًا، فينصت إلى همس أصواتها الحزينة اللذيذة، وهى تقول بلسان الحال والمقال: "ألا تنظر إلينا؟ ألا تطالعنا؟" فينظر بلهفة حائرة ويرى:

أن البحار التى تتماوج بحيوية وتتلاطم بشدة دوما، والتى من شأنها التشتت والانسكاب والاغراق. قد أحاطت بكرة الأرض، فهما تسيران معًا فى منتهى السرعة وتجريان فى سنة واحدة ضمن دائرة لا تدخل تحت العد.

وعلى الرغم من كل هذا فهى لا تفرق أبداً ولا تنسكب مطلقًا ولا تستولى على جارتها اليابسة، فلابد من أنها تسكن وتسير وتحفظ بأمر من له القدرة المطلقة، والعظمة المطلقة.

ثم ينظر إلى جوف البحر فيرى علاوة على لآلئه المشعة التى هى فى غاية الجمال والزينة والانتظام، أن إعاشة آلاف الحيوانات المتنوعة وإدارتها وتعيين مواليدها ووفياتها تجرى فى منتهى الانتظام والاتقان: وأن مجئ أرزاقها ونشوء أقواتها من رمل بسيط ومن ماء أجاج، ميسور وكامل بحيث يثبت بداهة أنه لا يتم إلا بإدارة القدير ذى الجلال وإعاشة الرحيم ذى الجمال.

ثم ينظر ذلك المسافر إلى الأنهار فيرى أن فيها من المنافع والمصالح ولها من الخدمات والوظائف وما تنتجه من مصاريف وما ترده من موارد محسوب بحكمة واسعة وبرحمة عظيمة بحيث تثبت بداهة أن جميع الجداول والترع والينابيع والسيول والأنهار العظيمة تنبع وتجرى من خزينة الرحمن ذى الجلال والإكرام بل أنها تخزن وتدخر ادخاراً خارقًا للمألوف، فتصرف وتجرى جريًا فوق المعتاد حتى ورد فى الحديث الشريف ما معناه: أن أنهاراً أربعة تجرى من الجنة "[1].

---

(١) عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: سيحان وجيحان والفرات والنيل كل من أنهار الجنة. مسلم: كتاب الجنة: ٢٦، وفى الخطيب البغدادى "ليس من الجنة فى الأرض شىء إلا ثلاثة أشياء: غرس العجوة والحجر وأراق تنزل فى الفرات كل يوم بركة من الجنة" انظر فيض القدير ٥/ ٣٨١.

بمعنى أن جريان هذه الأنهار: هو فوق حسابات الأسباب الظاهرة بكثير. لذا فهى لا تجرى إلا من خزينة جنة معنوية لا ينضب ومن فيض منبع غيبى لا ينفد.

فمثلاً: هذا نهر النيل الذى حول صحراء مصر القاحلة إلى جنة الدنيا، يجرى كبحر صغير دون نفاد، وينبع من جبل واقع فى الجنوب يدعى جبل القمر، فلو جمعت صرفياته لستة أشهر وجمدت، لحصل ما هو أعظم من ذلك الجبل - والحال أن ماخصص له من مكان للخزن لا يبلغ سدس ذلك الجبل، أما وارداته فقليلة ضئيلة، حيث أن شحة الأمطار وشدة حرارة المنطقة وتعطش الأرض، كل ذلك مجتمعًا لا يفسح مجالاً للخزن إلا للقليل، ولا يسمح للمحافظة على ميزان وارداته وصرفياته.

لذا قد روى أنه يجرى من "جنة" غيبية هى فوق القوانين الأرضية المعتادة، فأفادت تلك الرواية حقيقة لطيفة ذات مغزى عميق جداً.

وهكذا رأى السائح شهادة واحدة، وحقيقة واحدة، من آلاف الشهادات والحقائق التى هى واسعة سعة البحار نفسها. وفهم أن جميعها تردد معًا بالإجماع، وبقوة عظمة البحار: "لا إله إلا هو" وبرز أمامه شهود بعدد مخلوقات البحار على صدق هذه الشهادة.

ولبيان شهادات البحار والأنهار جميعها، أفادت المرتبة الرابعة من المقام الأول ما يأتى:

[لا إله إلا الله الواجب الوجود الذى دل على وجوب وجوده فى وحدته: جميع البحار، والأنهار بجميع مافيها، بشهادة عظمة إحاطة حقيقة التسخير والمحافظة والإدارة الواسعة المنتظمة الشهادة].

ثم تدعو الجبال والصحارى ذلك المسافر المستغرق فى السياحة الفكرية قائلة: "ألا تقرأ صحيفتنا أيضًا؟ ".. فهو بدوره يحدق النظر، ويرى:

أن وظائف الجبال الكلية وفوائدها العامة هى من العظمة والحكمة مما يحير العقول.

فمثلاً بروز الجبال واندفاعها من الأرض بأمر ربانى يهدىء هيجان الأرض

ويخفف من غضبها وسخطها وحدتها الناجمة من تقلباتها الباطنية ويدفعها تتنفس مستريحة بفوران تلك الجبال ومن خلال منافذها فتتخلص بذلك من الزلازل المهلكة والتصدعات المدمرة فلا تعد تسلب راحة الآمنين من سكنتها. وكما ينصب على السفن الأعمدة والأوتاد حفاظًا على توازنها ووقايتها من التزعزع والغرق، كذلك الجبال هى أوتاد ذات خزائن لسفينة الأرض، تقيها من الزلزال وتثبتها وتحفظ توازنها وقد بين القرآن الكريم هذا المعنى فى آيات كثيرة منها:

﴿ والجبال أوتادا ﴾ (النبأ: الآية ٧) ﴿ وألقينا فيها رواسى ﴾ (الحجر: الآية ١٩) ﴿ والجبال أرساها ﴾ (النازعات: الآية ٣٢).

ومثلاً: إن ما فى جوف الجبال من أنواع الينابيع والمياه والمعادن والمواد والأدوية التى يحتاج إلى كل منها ذوو الحياة، قد ادخرت بحكمة، وأحضرت بكرم، وخزنت بتدبير، بحيث تثبت بداهة أن هذه الجبال هى خزائن ومستودعات ادخار تحت أمر القدير الذى لا نهاية لقدرته والحكيم الذى لا نهاية لحكمته. فيدرك السائح هذا، ويقيس على هاتين الجوهرتين ما يليهما من وظائف الجبال والصحارى وحكمهما - التى هى بضخامة الجبال وسعة الصحارى - فيرى: أن الجبال والصحارى تشهدان، وتوحدان بـ" لا اله إلا هو " بلسان جميع حكمهما وبلغة جميع وظائفهما وبخاصة ادخراهما للاحتياطى من المواد، وأن تلك الشهادة والتوحيد لهما من القوة والرسوخ ما للشم العوالى ولهما من الشمول والسعة ما للقفار والصحارى فيردد اللسان بخشوع: آمنت بالله.

وهكذا ذكر فى المرتبة الخامسة من المقام الأول لبيان هذا المعنى ما يأتى:

لا إله إلا الله الواجب الوجود الذى دل على وجوب وجوده: جميع الجبال والصحارى، بجميع ما فيها، وما عليها، بشهادة عظمة إحاطة حقيقة: الادخار، والإدارة ونشر البذور، والمحافظة، والتدابير الاحتياطية الربانية الواسعة العامة المنتظمة المكملة بالمشاهدة]..

وبينما كان ذلك المسافر يجول بفكره فى الجبال والصحارى، انفتح أمام فكره

باب عالم "الأشجار والنباتات" يدعوه قائلا: "هلم إلينا وجل فى رياضنا واقرأ سطورنا" .. فدخل ورأى:

ان الأشجار والنباتات قد عقدت مجلسًا فخمًا رائعًا للتهليل والتوحيد، وشكلت حلقة مهيبة للذكر والشكر، ففهم من ألسنة أحوالها كأنها تلهج معًا، وتردد بالإجماع: لا إله إلا هو "لما رأى من ثلاث حقائق كبرى كلية تدل على أن جميع الأشجار المثمرة وجميع النباتات المزهرة تؤدى شهادتها مسبحة وتقول معًا بالألسنة الفصيحة لأوراقها الموزونة وبالكلام الجزيل لأزهارها الجميلة، وبالكلمات البليغة لأثمارها المنتظمة "لا إله إلا هو".

أولاها: حقيقة الإنعام والإكرام المقصودين، والإحسان والامتنان الإراديين، التى يحس معناها إحساسًا ظاهرًا فى كل نبات وشجر، مثلما هى حقيقة واضحة وضوح ضوء الشمس فى الكل.

ثانيتها: حقيقة التمييز والتفريق المقصودين بحكمة، والتزيين والتصوير الإراديين برحمة، وهى واضحة وضوح النهار - حقيقة ومعنى - فالتمييز بين تلك الأنواع والأفراد غير المحدودة غرض مقصود، والاختلاف والتباين بينها حكمة مطلوبة، ولمسات التجميل والتحسين رحمة مراده، وهذه الحقيقة واضحة وضوحًا لا يدع مجالاً قط لنسبتها إلى المصادفة مما يظهر عيانا أنها آثار الصانع الحكيم ونقوشه البديعة.

ثالثتها: حقيقة فتح صور المصنوعات غير المحدودة بمئات الآلاف من الأنماط المختلفة والأشكال المتنوعة فتحًا من حبوب معدودة متشابهة، ومن نوى محدودة متماثلة واستنباتها فى غاية الانتظام والميزان وبمنتهى الزينة والجمال، رغم أنها بسيطة جامدة ومختلطة بعضها ببعض، ففتح صور كل فرد من أفراد تلك الأنواع المتباينة - التى تربو على مائتى ألف نوع - كل على انفراد بانتظام كامل، وبموازنة تامة، وبحيوية وحكمة وبدون خطأ، لهو حقيقة ساطعة جلية أسطع من الشمس.

ففهم السائح أن هناك شهودًا ودلائل إثبات على تلك الحقيقة بعدد أزهار الربيع وبعدد أثماره وبعدد أوراقه وموجوداته. فعبر عما جاش فى قلبه من معان كريمة فقال: الحمد لله على نعمة الإيمان.

ولبيان هذه الحقائق والشهادات ذكر فى المرتبة السادسة من المقام الأول ما يلى :

[لا إله إلا الله الواجب الوجود الذى دل على وجوب وجوده فى وحدته : إجماع جميع أنواع الأشجار والنباتات، المسبحات الناطقات : بكلمات أوراقها الموزونات الفصيحات، وأزهارها المزينات الجزيلات وأثمارها المنتظمات البليغات، بشهادة عظمة إحاطة حقيقة : الإنعام، والإكرام، والإحسان، بقصد ورحمة، وحقيقة : التمييز، والتزيين، والتصوير، بإرادة وحكمة، مع قطعية دلالة حقيقة فتح جميع صورها الموزونات المزينات المتباينة المتنوعة غير المحدودة من نويات وحبات متماثلة متشابهة محصورة معدودة].

وبينما السائح الشغوف – الذى ازداد بالسمو ذوقًا وشوقًا – عائدًا من تلك السياحة الفكرية مبتهجًا بلذة وقوفه على الحقيقة وعثوره على جنات الايمان، راجعًا من بستان الربيع، حاملاً باقة كبيرة واسعة – من أزهار المعرفة والإيمان – سعة الربيع نفسه، إذا بباب عالم الطيور والحيوانات ينفتح ازاء عقله التواق للحقيقة، وفكره المشتاق للمعرفة، تدعوه تلك الطيور والحيوانات بمئات الألوف من الأصوات المتباينة والألسنة المختلفة، للدخول إلى ذلك العالم الفسيح، وترحب بمقدمه إلى عالمها . . فدخله،

ورأى أن جميع الطيور وجميع الحيوانات بأنواعها وطوائفها وأممها كافة تذكر متفقة : " لا إله إلا هو " بلسان حالها ومقالها حتى لكأن سطح الأرض مجلس ذكر مهيب، ومجمع تهليل عظيم . . ورأى أن كلاً منها بحد ذاته بمثابة قصيدة ربانية تترنم بآلاء الربوبية . . وكلمة سبحانيه ناطقة بالتقديس لبارئها . . وحرف رحمانى ذى مغزى ينم عن الرحمة الإلهية .

فالجميع يثنون على خالقهم، ويصفونه بالحمد والثناء وكأن حواس تلك الطيور والحيوانات ومشاعرها وأعضائها، وآلاتها، وأجهزتها، وقواها، كلمات موزونة منظومة، وكلام فصيح بليغ .

فشاهد السائح فى ذلك ثلاث حقائق عظيمة محيطة، تدل دلالة صادقة على أن تلك الطيور والحيوانات تؤدى شكرها تجاه خالقها ورازقها بتلك الكلمات، وتشهد على وحدانيته سبحانه بذلك الكلام .

أولاها: حقيقة الإيجاد والصنع والإبداع، أى حقيقة الإحياء ومنح الروح، التى لا يمكن نسبتها مطلقًا إلى المصادفة العشواء والقوة العمياء والطبيعة الصماء؛ إذ هى إيجاد من عدم يقع بحكمة، وإبداع مقرون باتقان، وخلق مصحوب بإرادة، وإنشاء مبنى على علم، وهى تظهر بجلاء تجلى " العلم والحكمة والإرادة " بما فوق الحصر، وهى برهان باهر على وجوب وجود " الحى القيوم " وشاهد حق على صفاته السبعة الجليلة، وآية صدق على وحدانيته جل وعلا. أى أن حقيقة الاحياء تدفع إلى الوجود شهود إثبات بعدد ذوى الأرواح كلها.

ثانيتها: حقيقية التمييز والتزيين والتصوير التى تتضح من خلال تلك المصنوعات غير المحدودة التى يختلف بعضها عن بعض بعلامات فارقة متميزة فى الوجوه، وباشكال مزينة جميلة متباينة، وبمقادير موزونة دقيقة مختلفة، وبصور منتظمة منسقة. فهى حقيقة قوية عظمى بحيث لا يمكن أن يمتلك هذا الفعل المحيط الذى يبرز عيانًا ألفا من الحكم والخوارق سوى القادر على كل شىء والعالم بكل شىء، وليس هناك إمكان أو احتمال آخر قط.

ثالثتهما: حقيقة فتح صور تلك الحيوانات غير المحدودة بمئات الآلاف من الأشكال والأنماط من بيوض وبويضات متماثلة معدودة، ومن قطرات محدودة متشابهة أو مختلفة بفارق طفيف. ففتح تلك الصور التى هى بحد ذاتها معجزة الحكمة - بانتظام كامل، وموازنة تامة، دونما خطأ ولا زيادة أو نقصان، إنما هو حقيقة ساطعة باهرة تستقى نورها من دلائل وأسانيد بعدد الحيوانات جميعها.

وهكذا شاهد السائح عالم الطيور والحيوانات وتلقى درسًا كاملاً من دلالة هذه "الحقائق الثلاث " المتفقة دلالة واضحة على أن جميع أنواع الحيوانات تشهد قائلة معا: " لا إله إلا هو " حتى غدت الأرض كأنها إنسان ضخم جدًا، تذكر " لا إله إلا هو " بنسبة كبرها وضخامتها فتملأ من شدتها وقوتها قبة السماء حتى يسمعها أهل السماوات[1].

ثم يتابع الحديث فيقول فى مؤلفه: إشارات الإعجاز:

---

(١) للإمام بديع الزمان سعيد النورسى مجلد الشعاعات ج ٤ ص ١٥٥ ط ١٩٩٢م.

واعلم أن كل الألم فى الضلالة وكل اللذة فى الإيمان. فإن شئت تأمل فى الدنيا تأمل فى حال شخص، بينما أخرجته يد القدرة من ظلمات العدم وألقته فى الدنيا - تلك الصحراء الهائلة - إذ يفتح عينيه مستعطفًا البليات والعلل كالأعداء تتهاجم عليه، فينظر مسترحمًا إلى العناصر والطبائع فيراها غليظة القلب بلا رحمة. قد كشرت عليه الأسنان، فيرفع رأسه مستمدًا - إلى الأجرام العلوية فيراها مهيبة تهدده كأنها مرامى قنابل وقذائف نارية من أفواه هائلة حواليه، فيتحير ويخفض رأسه متسترًا ويطالع نفسه، فيسمع ألوف صيحات حاجاته وأنين فاقاته فيتوحش، فينظر إلى وجدانه ملتجأ فيرى فيه ألوفًا من آمال متهيجة ممتدة لا تشبعها الدنيا.

فبالله عليك كيف حال هذا الشخص إن لم يعتقد بالمبدأ والمعاد والصانع والحشر؟ أتظن جهنم أشد عليه من حاله وأحرق لروحه؟ فإن له حالة تركبت من الخوف والهيبة والعجز والرعشة والقلق والوحشة واليتم واليأس لأنه إذا راجع قدرته يراها عاجزة ضعيفة، وإذا توجه إلى تسكين حاجاته يراها لا تسكت، وإذا صاح استغاث لا يسمع ولا يغاث فيظن كل شىء عدوًا، ويتخيل كل شىء غريبًا فلا يستأنس بشىء ولا ينظر إلى دورات الأجرام إلا بنظر الخوف والدهشة والتوحش المزعجة للوجدان.

ثم تأمل فى حال ذلك الشخص إذا كان على الصراط المستقيم واستضاء وجدانه وروحه بنور الإيمان، كيف ترى أنه إذا وضع قدمه فى الدنيا وفتح عينيه، فرأى تهاجم العاديات الخارجية يرى إذا " نقطة استناد " يستند إليها فى مقابلة تلك العاديات، وهى معرفة الصانع فيستريح.

" ثم إذا فتش عن استعداداته وآماله الممتدة إلى الأبد يرى "نقطة استمداد" يستمد منها آماله ويتشرب منها ماء الحياة وهى معرفة السعادة الأبدية وإذ يرفع رأسه وينظر فى الكائنات يستأنس بكل شىء... ويرى فى حركات الأجرام حكمة خالقها ويتنزه بسيرها وينظر نظر العبرة والتفكر.

كأن الشمس تناديه: أيها الأخ! لا تتوحش منى فمرحبًا بقدومك! نحن

كلانا خادمان لذات واحد، مطيعان لأمره. والقمر والنجوم والبحر وأخواتها يناجيه كل منها بلسانه الخاص وترمز إليه: بأهلا وسهلاً أما تعرفنا؟ كلنا مشغولون بخدمه مالكك فلا تضجر ولا تتوحش ولا تخف من تهديد البلايا بنعراتها، فإن لجام كل بيد خالقك. فذلك الشخص فى الحالة الأولى يحس فى أعماق وجدانه ألما شديداً فيضطر للتخلص منه وتهوينه وإبطال حسه بالتسلى، وبالتغافل، وبالاشتغال بسفاسف الأمور، ليخادع وجدانه وينام روحه، وإلا أحس بألم عميق يحرق أعماق وجدانه فبنسبة البعد عن الطريق الحق يتظاهر تأثير ذلك الألم.

وأما فى الحالة الثانية فهو يحس فى قعر روحه لذة عالية وسعادة عاجلة كلما أيقظ قلبه وحرك وجدانه وأحس روحه استزداد سعادة واستبشر بفتح أبواب جنات روحانية له.

اللهم بحرمة هذه السورة اجعلنا من أهل الصراط المستقيم(١).

وتغمد النورسى برحمتك ياكريم.

إن موت بديع الزمان لم يكن نهاية مجده، وإنما ستظل رسائل النور ألسنة تنطق بالوحدانية، ونوافذ تطل على الآخرة، لدوام مصدرها القرآنى.

ومن كل ما تقدم يتضح: أن المنهج القرآن فى الاستدلال، جاء ليحمل عن الإنسان إصر المناهج البشرية، ويرشده إلى الطريق المستقيم، حيث تلتقى طاقات الإنسان كلها فى بوتقة فطرته السليمة، وتتوحد جميعاً لترتفع إلى الحق تبارك وتعالى، مشيدة بعظمته مقرة بوحدانيته، معلنة عبوديتها لله رب العالمين عن علم وبصيرة.

بقلم الدكتور سامى عفيفى حجازى

---

(١) الإمام بديع الزمان سعيد النورسى اشارات الاعجاز فى مظان الايجاز ج ٥ ص ٣٨ ط ١٩٩٤م.

الفصل الرابع

الإنســـان

الإنسان: ما هو الإنسان؟

ولماذا وجد على ظهر الأرض؟

وما هو موقفه من العالم؟ وما هى غاية وجوده؟

كل هذه أسئلة أثارها العقل البشرى. ويثيرها فى كل زمان، ومكان.

فإن السؤال الفلسفى إذ يضع السائل نفسه موضع السؤال.. فإنه يجعل من الفلسفة كلها تساؤلا للإنسان عن الإنسان.

والواقع أن مقومات الوجود البشرى: أنه الكائن الذى لا يستطيع أن يتقبل وجوده كمحض واقعة.

فهو بالتالى يسائل نفسه عن نفسه، ويضع وجوده موضع البحث، ويجعل من نفسه مشكلة[1].

إنه مشكلة.. لأنه الموجود الذى لا وصف له.

إنه الموجود الذى يفلت من كل تحديد، ويخرج على كل قاعدة، ويند عن كل تعريف.

إنه الموجود الذى لا يفتأ يعيد النظر فى كل شيء، ولا يكاد ينتهى حتى يبدأ من جديد..

إنه مشكلة لأنه الموجود المتناقض. الذى حار فى وصفه الفلاسفة. فقالوا فى تعريفه: إنه حيوان ناطق، أو حيوان صانع، أو حيوان مدنى، أو حيوان ميتافيزيقى[2].

---

(١) الدكتور زكريا إبراهيم، مشكلات فلسفية: "مشكلة الإنسان" ص ٥ – ٦. ط مكتبة مصر بالفجالة.

(٢) المصدر السابق ص ٧.

ويذكر العقاد للإنسان التعريفات التالية:

الإنسان حيوان ناطق.

الإنسان حيوان مدنى بالطبع.

الإنسان روح علوى سقط إلى الأرض من السماء.

الإنسان حيوان راق.

ثم يقول العقاد وبعد ذلك: هذه التعريفات أشهر ما اشتهر من التعريفات المحيطة بمعنى الإنسان.

أولها: محيط به من جانب مزاياه العقلية.

وثانيها: محيط به من جانب علاقاته الاجتماعية.

وثالثها: ينظر إلى تعريف الإنسان بهذه الصفة إلى قصة الخطيئة التى وقع فيها آدم حين أكل من شجرة المعرفة بغواية الشيطان.

ورابعها: ينظر إلى ترتيب الإنسان بين أنواع الأحياء على حسب مذهب التطور[1]. وكل هذه التعريفات – كما يقول العقاد – تحيط بمعنى الإنسان من بعض نواحيه وآخرها لا يحيط بمعناه إلا عند من يؤمن بقصة الخطيئة، ويؤمن معها بميراث الخطيئة فى بنى آدم وحواء[2].

ومنذ طوالع هذا العصر، ونحن نرى العالم الغربى يبذل قصارى جهده. لإعادة النظر فى تصوره عن الإنسان: قدره، ومصيره..

أو لتقويم هذا التصور من جديد.. فى ضوء علوم العصر، وفلسفاته، حفاظا على القيمة الإنسانية من ناحية، ومواكبة لإنجازات المدنية الغربية من ناحية أخرى.

ولقد تميز هذا العصر بحاجة الناس إلى (نظرية إنسانية) عامة، أو إلى وجهة نظر شاملة فى الإنسان.. تختلف عن تلك التى لم تشبعها طريقة (هيبوليت تين) فى التحليل التجريدى..

---

(١) العقاد، المجموعة الكاملة، م ٥ ص ٨٠، ط دار الكتاب اللبنانى.

(٢) المصدر السابق ص ٨٠.

كما تمتاز بالإقبال الجاد فى دراسة مشكلات الإنسان، دراسة تختلف عن روح التهكم عند (أرنست رينان) أو أسلوب السخرية عند (أناتول فرانس)، فضلا عن تشبعها بعاطفة إنسانية فياضة تتعارض مع الطابع المادى البحث الذى وجدناه فى فلسفة (هربرت سبنسر)[1].

ولقد تجلت هذه الاتجاهات الجديدة فى فرنسا أول ما تجلت، وتمثلت بوضوح فى آراء (هنرى برجسون) و (موريس بلوندل) و(ليون برنشفيك).

ثم ظهرت بعد ذلك بقليل من ألمانيا عند (هوسرل) وفى انجلترا عند (براد لى) وفى إيطاليا عند (كورتشة) وفى أسبانيا عند (أوتامونو).

فهؤلاء جميعا رواد الانقلاب الروحى، أو الحركة الروحية، التى ظهرت بقوة منذ طوالع هذا القرن. تطالب بالعودة إلى الذات المفكرة، بل إلى الذات الداخلية.

وتؤكد على أن الدين ليس إحدى نتائج التطور التاريخى.. بل هو قانون سماوى يقرر مصير الإنسان..

وتنادى بالنظر إلى العلم، لا من ناحية تطبيقاته العملية. ولكن من جهة دلالته الروحية، وكيف أنه ثمرة من ثمار العقل البشرى، ووسيلة يراد بها تحقيق السعادة للإنسان[2].

إذن: هناك جهد بالغ الأثر، يبذله الفلاسفة، وعلماء الاجتماع، والسياسة والإلهيات، لإعادة النظر فى تقرير تصورهم عن الإنسان، ومصيره[3].

هذه الحركة الروحية هى التى دلت عليها طائفة من عناوين الكتب التى تناولت الإنسان، واهتمت بطبيعته، ومكانته، وقدره، ومصيره.

موقنة بأن الوصول إلى إدراك أوضح لماهية الإنسان أمر على جانب كبير من الأهمية. فى هذا العصر الذى يشهد اضطرابا مهولا فى اتجاهات السياسة

---

(١) الأستاذ جلال العشرى، نظرة العقاد إلى الإنسان، مجلة الفيصل ع ٥٩، ص ٢٩ – السعودية.

(٢) المصدر السابق ص ٢٩.

(٣) هار لحدب سمث، مذهب الإسلام فى الإنسان ص ٥٧ الثقافة الإسلامية – مؤسسة فرانكلين.

والأخلاق، ونظم الاجتماع[1].

ومن هذه الكتب كتاب (ستاس) مصير الإنسان الغربى، وكتاب (دونوى) الضمير الإنسانى، وكتاب (نيقولا بردياتيق) مصير الإنسان وكتاب (اندريه مالرو) قدر الإنسان. وكتاب (رينهولدنيمور) طبيعة الإنسان ومصيره. وكتاب (الكسيس كاريل) الإنسان ذلك المجهول. وكتاب (أرنست كاسيرر) مقالات فى الإنسان.

وغيرها من الكتب التى تتخذ موضوعها من الإنسان، ومكانته فى عالمنا الحاضر، من حيث صلته بالله، وعلاقته بمحيط بيئته، وبالمجتمع، وبالجماعة الإنسانية بوجه عام[2].

أما فى العالم الإسلامى، فقد حدثت فى السنوات المائة الماضية طوال القرن الرابع عشر الهجرى. محاولات ذات بال، فى سبيل إعادة تقرير ما يسلم به الإسلام من أراء أساسية فى الكلام، وفى الفلسفة.

غير أن هذه المحاولات اتجهت فى الغالب اتجاهات عامة، ولم يكن بها إلا إشارات عارضة إلى هذا الموضوع الأهم..

ألا هو محاولة استخلاص نظرية فى الإنسان. من حيث علاقته بمجموع بيئته، على أساس من التقاليد الدينية، والثقافية. التى تقوم عليها الحضارة الإسلامية، والمجتمع الإسلامى.. ليست منقولة حرفيا أو نقلا أعمى عن نظم شرقية أو غربية، قد تكون غريبة عن نظرة الإسلام الأساسية[3].

ومن المعروف أن البحث فى الفكر الفلسفى. على مستوى رفيع فى العالم الإسلامى، وقف فجأة بعد الغزالى المتوفى عام ١١١١م.

---

(١) الاستاذ جلال العشرى "نظرة العقاد إلى الإنسان فى الإسلام" مجلة الفيصل ع ٥٩ ص ٢٩.
(٢) المصدر السابق ص ٢٩ وكذلك "الثقافة الإسلامية ص ٥٧.
(٣) هارولدب "سمث" مذهب الإسلام فى باكستان" (ص ٥٨، ٥٩) بتصرف ط فرانكلين.

وعلى الرغم من أن قدرا كبيرا من النشاط فى الشرح، والتعليق، استمر بعد هذا الفيلسوف الكبير. إلا أن قادة الفكر الإسلامى، كانوا يتبعون فى تفكيرهم مدرسة من المدارس الفقهية، أو الكلامية التى تأسست فى القرون الثلاثة الأولى.

وكانوا يلتزمون تعاليم هذه المدرسة، ويسيرون فى استنباطهم وفق الأصول التى سارت عليها، بحيث كاد عملهم أن ينحصر فى دائرة شرح أفكار المدرسة، أو فى إخضاع حادث جديد، لقاعدة عامة، سابقة بحكم المشابهة، والمماثلة. لجزئية أخرى من جزئيات هذه القاعدة[1].

وسار الأمر فى التفكير الإسلامى على هذا النحو إلى عصر ابن القيم، وابن تيمية فى القرن الرابع عشر الميلادى، اللذان استخدما النقد العقلى فى تقويم الأفكار الإسلامية، حول أصول الإسلام..

سواء منها ما يتصل بذات الخالق، وصلته بالمخلوقين.. أو ما يتصل بالجماعة، وتوجيهها التوجيه السليم.

ومن ثم كان الطريق الذى سلكه هذان الرائدان، تمهيدا للحركات الإسلامية العقلية، التى جدت فيما بعد، بحيث تعتبر هذه الحركات الإسلامية المعاصرة، تطورا للعمل الذى قام به هذان الرائدان.

وأهم هذه الحركات الإسلامية الأخيرة: الحركة السلفية التى ظهرت فى مصر، فى القرن التاسع عشر. على يد جمال الدين الأفغانى. المتوفى عام ١٨٩٧م.

و الإمام محمد عبده المتوفى عام ١٩٠٥م.. والحركة العقلية التى ظهرت فى الهند، فى القرن التاسع عشر، بظهور مدرسة أحمد خان الذى ولد سنة ١٨١٧ هـ، وهى المدرسة التى تزعمها من بعده محمد إقبال المتوفى عام ١٩٣٨.

ثم الحركة السنوسية التى ظهرت فى برقة، والتى قام بها، وتحمل فى سبيل نشرها الجد الأكبر لملك ليبيا السابق إدريس السنوسى[2].

(١) جلال العشرى، "مجلة الفيصل عدد شهر جمادى الأولى ١٤٠٢ هـ ص ٢٩، السعودية.
(٢) المصدر السابق، ص ٣٠

ثم الحركة النورسية التى ظهرت فى تركيا، والتى قام بها الإمام بديع الزمان سعيد النورسى المتوفى فى رمضان ١٣٧٩ هـ مارس ١٩٦٠م.

ومن أبرز الأسماء التى تطالعنا على رأس الفريق الآخر، المصلح السلفى المصرى الإمام محمد عبده صاحب (رسالة التوحيد) التى دعا فيها إلى علم كلام جديد، على أساس من الإيقان: بأن الدين لا يمكن أن يتعارض لا مع العلم، ولا مع الفلسفة..

فالحق لا يضاد الحق، ولا يعارضه.. ومن ثم راح يدعو إلى دراسة العلم، والفلسفة جميعا فى هدى الدين.. دون أن يسمح بأى اختبار للعقيدة[1].

وكذلك الإمام بديع الزمان سعيد النورسى صاحب "كليات رسائل النور" الذى دعا فى كليات رسائل النور إلى يقظة إسلامية واعية تنطلق من عقلانية مستنيرة[2].

فالإسلام أنقذ العقل من قيوده، وحرره من التقليد الأعمى الذى استعبده، ورد إليه ميدانه الذى كان يقرر فيه قراراته طبقا لرأيه وحكمته..

غير أنه يجب أن يذل ويخضع أمام الله، وأن يقف عند الحدود التى حددتها العقيدة، وداخل هذه الحدود ليس هناك مانع يعوق نشاطه، وليس هناك حد للتأملات التى يصح أن تجرى تحت حمايته[3].

ويؤكد محمد عبده: مسألة استقلال الإرادة الإنسانية عند حديثه عما درج عليه الغربيون من نسبة ما قد يوجد فى البلاد الإسلامية – من أى تأخر أو جمود – إلى العقيدة الراسخة فى نفوس المسلمين، فى القانون الإلهى، أو القضاء الأزلى..

فبعد أن يسلم محمد عبده بأن العامة قد اصطبغ تفكيرهم بالقدرية المأخوذة من فكرة الجبر، أو القضاء يؤكد أن مفكرى المسلمين من جميع الفرق يعتنقون

(١) المصدر السابق، ص ٣٠.

(٢) راجع كليات رسائل النور.

(٣) راجع جلال العشرى. مجلة الفيصل. جمادى الأولى ص ٢٩.

مذهب حرية الإنسان فى الاختيار[١].

وهو يقرر فى رسالة التوحيد : أن الإنسان يدرك أعماله الاختيارية، ويزن نتائجها بعقله، ويقدرها بإرادته، ثم يصدرها بقوة ما فيه، ويعد إنكار شيء من ذلك مساويا لإنكار وجوده فى مجافاته لبداهة العقل[٢].

وأيا ما كان.. فالإنسان يعلم بالتجربة. أن هناك قوة أعظم من نفسه. هو مسئول أمامها.. وعندما يقول القرآن: ﴿ **كل نفس بما كسبت رهينة** ﴾ (المدثر: الآية ٣٨). ﴿ **لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت** ﴾ (البقرة: الآية ٢٨٦). فإن قوله هذا يتضمن مسئولية.. ومن ثم الحرية اللازمة، لأنه لن يكون ثمة عدل فى اعتبار الإنسان مسئولا عن أعمال، وأحوال تفرضها عليه إرادة أو قوة خارج نفسه[٣].

فالحرية تقف بجانبها المسئولية، وبمقدار ما يكون الإنسان حرا، يكون مسئولا على نفس المستوى، وبنفس القدر[٤].

ويستدل محمد عبده على هذا بمبدأ: "المجاهدة" فقوله تعالى: ﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا** ﴾ (العنكبوت: الآية ٦٩). يبين أن هدى الله ميسر لمن يجاهدون فى سبيل الاهتداء إلى الحق والخير، والصواب.

وكما أن الناس تحكمهم فى حياتهم الاجتماعية. قوانين خاصة. كذلك تحكمهم فى كل مكان وزمان، قوانين الله الخلقية، وهم قادرون على معرفة هذه الشرائع الإلهية بالتدبر، وعن طريق الوحى..

ولكنهم أحرار حين يعملون بها، ويخرجون عليها، كحريتهم فى إطاعة القوانين الدنيوية أو عصيانها..

---

(١) هارولدب سمث "الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة" ص ٦٤ مجموعة بحوث قدمت لمؤتمر برنستون ط مؤسسة فرانكلين.

(٢) الإمام محمد عبده "رسالة التوحيد" ص ٨٩ ط كتاب الهلال ١٣٨٢.

(٣) هارولدب سمث "الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة" ص ٦٤ ط مكتبة النهضة المصرية.

(٤) جلال العشرى "نظرة العقاد إلى الإنسان فى الإسلام" مجلة الفيصل عدد ٥٩ ص ٣٠.

وإذا خرقوا القانون فهم معرضون فى كلتا الحالتين لقضاء السلطة الأخلاقية وعقابها.

والأمم تصل إلى الرفعة، أو تقصر دونها. حسب اختياراتها الأخلاقية الإرادية، أو حسب الاتجاه الأخلافى العام لسياساتها الاجتماعية وهكذا[١].

فقوله تعالى: ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ (الرعد: الآية ١٢). يتضمن أن النظام الذى رسمه الله يقوم على قانون العلة والمعلول، ولكن اختيار الطريق والمسئولية ملقيان صراحة على الناس بسبب حريتهم التى منحهم الله إياها[٢].

وبعد الإمام محمد عبده يجئ الفيلسوف العقلى محمد إقبال، صاحب كتاب (تجديد الفكر الدينى فى الإسلام)[٣] الذى حاول فيه أن يقرر ميتافيزيقا (إسلامية جديدة) مع العناية الواجبة بالتقاليد الفلسفية للإسلام، وبالتطورات الجديدة فى مختلف ميادين المعرفة الإسلامية..

فهو ينادى بالرجوع إلى الدين الإسلامى الحنيف، كما نادى محمد عبده وهو يحارب التقليد، ويدفع الباحثين إلى الاستقلال فى البحث ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، ويؤكد مذهب حرية الاختيار للإنسان[٤].

ولكنه يذهب إلى أبعد مما ذهب إليه الإمام محمد عبده فى إثبات حرية الذات الفردية، واستقلال الإرادة الإنسانية.

يقول الدكتور: (هارولد ب. سمث) استاذ ونائب قسم الديانات بكلية وستر بولاية أوهايو[٥]: ولما كان إقبال من أتباع مدرسة (براد لى) فهو يعنى بتقرير

(١) هارولدب سمث "الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة ص ٦٥ ط النهضة مع فرانكلين.

(٢) هارولدب سمث "الثقافة الإسلامية. ص ٦٥ ط مكتبة النهضة المصرية.

(٣) ترجمة عباس محمود العقاد، وراجع مقدمته والفصل الأول منه المرحوم عبد العزيز المراغى وراجع بقية الكتاب الدكتور مهدى علام.

(٤) انظر: جلال العشرى، نظرة العقاد إلى الإنسان فى الإسلام. مجلة الفصل ع ٥٩ ص ٣٠.

(٥) وكان هارولد ب سمث رئيسا لقسم الفلسفة والأخلاق فى الجامعة الأمريكية. القاهرة.

صدق الإدراك الباطنى للإنسان وطهره.. ويرتب على هذا تأكيد المسئولية الأخلاقية المستقلة لكل كائن إنسانى.

وقد وجد محمد إقبال: أن القرآن الكريم. يعبر عن هذه الفكرة أوضح تعبير. وذلك فى قوله تعالى: ﴿ **وكلهم آتيه يوم القيامة فردا** ﴾ (مريم: الآية ٩٥) وقوله تعالى ﴿ **ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى** ﴾ (الانعام: الآية ١٦٤).

وهكذا فالذات خاصة فريدة، متميزة عن سائر الذوات من حيث استقلال الإرادة والمسئولية[1].

والإنسان عند إقبال جم المواهب، قادر على التفكير، والتدبير، واستهداف الأغراض، والعمل المبدع..

ولكن الإنسان مع ذلك يجد نفسه على الدرك الأسفل من سلم الحياة، تحيط به قوى معوقة. من كل الجهات. قال تعالى: ﴿ **لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم. ثم رددناه اسفل السافلين** ﴾ (التين: الآية ٤، ٥).

وهذا يدعو الإنسان إلى ألا يقر له قرار، فهو دائما يبحث عن مجال جديد للتعبير عن نفسه..

ولما كان الإنسان أسمى من الطبيعة، فقد حمل أمانة أبت الطبيعة أن تحملها..

وهذا الفضل فى الحرية.. هو الذى يسبب تردى الإنسان – والإنسان قادر على تشكيل قوى الطبيعة، وتوجيهها ولكنها تهزمه أحيانا.

وهو عندئذ يقيم عوالم روحية داخل وجوده الباطن، ويتمكن بهذا أن يسمو على الطبيعة.

والإنسان يشكل مصيره، ومصير الكون بان يلائم بين نفسه،وبين قوى الكون منها، وبان يكيف قوى الكون وفق غاياته، وأغراضه حينا آخر وهو بصنيعه هذا ينمو روحيا[2].

(١) انظر: هارولد ب سمث. الثقافة الإسلامية ص ٦٦ ط مكتبة النهضة المصرية.

(٢) راجع: هارولد ب سمث الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة ص ٦٨.

. ولو تقدمنا خطوات فى تحليل آراء هذين المفكرين: محمد عبده، وإقبال لوجدنا أنهما يقرران: أن للإنسان ما يمكن أن نسميه طبيعة ثنائية فالإنسان محدود، وحر معا، هو خاضع للضرورة.. إلا أنه يتغلب عليها ببعض الطرق[1].

وفى تطوير وتقرير لأراء هذه المفكرين. فى مذهب الإنسان فى الإسلام.. يجئ المفكر الإسلامى المعاصر: الإمام بديع الزمان سعيد النورسى، ليقوم بمحاولة تركيبية لوضع نظرية متكاملة عن الإنسان فى الإسلام، تنبثق من تعاليم الدين الإسلامى، ممثلة فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ [2].

فالعالم الإسلامى فى الوقت الحاضر يواجهه، ويؤثر فيه، نظامان عريضان من التفكير السياسى، مؤسسان على نظريات كاملة فى الإنسان. إلا أنهما متعارضة.

ولذا كان من الضرورى أن يحلل مفكرو الإسلام تصوراتهم الأساسية الخاصة بهذه المسألة الجوهرية، حتى لا تخدعهم الدعاية الماهرة. لهذا الفريق أو ذاك.

فيستسلموا من أجل غايات نفعية لطرائق من التفكير، ومن التنظيم السياسى.. أجنبية عن تقاليدهم المقدسة لدينهم[3].

ولا يتعرض العالم الإسلامى لتيارات متصارعة تأتيه من خارجه فحسب. فإن فى داخله فى العصر الحاضر شيعا، وطوائف، تنادى بآراء مختلفة، ومناهج متباينة.

وهذا من شأنه أن يضاعف من صعوبة أى محاولة تبذل. لوضع نظرية فى الإنسان مستمدة من تعاليم الإسلام، وصالحة فى ذات الوقت للعالم الإسلامى..

خاصة فى هذا العصر.. عصر الحياة على مبدأ عقيدة.. وما اكثر المبادئ والعقائد التى نسمع عنها فى هذا القرن، ويسمونها بالمذاهب، والأيديولوجيات..

والتى تطرح أسئلة لا مناص من الإجابة عليها. وإلا كانت الحيرة التى تعصف بالأبدان، وبالعقول.. أو بالأحرى بالإنسان[4].

---

(١) راجع: المصدر السابق ص ٦٨.

(٢) راجع: الإمام النورسى – كليات رسائل النور.

(٣) هارولد ب سمث – الثقافة الإسلامية ص ٥٨.

(٤) راجع: جلال العشرى. نظرة العقاد إلى الإنسان م. الفيصل ع ٥٩ ص ٣٠ السعودية.

ما مكان الإنسان من الكون كله؟.

ما مكانه من هذه السيارة الأرضية بين خلائقها الأحياء؟

ما مكانة بين أبناء نوعه البشرى؟

وما مكانه بين كل جماعة من هذا النوع الواحد؟

أو هذا النوع الذى يتألف من جملة أنواع يضمها عنوان: (الإنسان)؟

وهى أسئلة لا جواب لها فى غير (عقيدة دينية) تجمع للإنسان صفوة عرفانة بدنياه، وصفوة إيمانه بغيبها المجهول..

تجمع له زبدة الثقة بعقله، وزبدة الثقة بالحياة.. حياته، وحياة سائر الأحياء، والأكوان[1].

هذه العقيدة الدينية - كما يقول العقاد - توجد كما ينبغى أن توجد. وإنما الضلال فيمن يريدها على غير سوائها الذى تستقيم عليه، ولا تستقيم على سواه[2].

ونجد ذلك أكثر وضوحا - فيما ذكره الإمام النورسى - فى الكلمة الثانية حيث يقول: (إذا أردت أن تفهم ما الدنيا وما دور الروح الإنسانية فيها. وما قيمة الدين عند الإنسان وكيف أنه لولا الدين الحق. لتحولت الدنيا إلى سجن رهيب، وإن الشخص الملحد هو اشقى المخلوقات)[3].

وقد ذكر النورسى حكاية تمثيلية. انتهى منها إلى الإقرار: (بأن كل من يجعل الحياة الفانية مبتغاه.. فسيكون فى جهنم حقيقة ومعنى.. حتى لو كان يتقلب ظاهرا فى بحبوحة النعيم.

وإن كل من كان متوجها إلى الحياة الباقية، ويسعى لها بجد وإخلاص فهو فائز بسعادة الدارين، وأهل لهما معا.. حتى لو كانت دنياه سيئة، وضيقة. إلا أنه

---

(١) انظر العقاد - الإنسان فى القرآن ص ٣٦١. مجلد رقم ٧ - ط دار الكتاب اللبنانى.

(٢) المصدر السابق ص ٣٦٢.

(٣) الإمام النورسى - الكلمات - ص ٣١ ط القاهرة.

سيراها حلوة طيبة)[1].

وهذا ما عبر عنه العقاد تعبيرا صريحا واضحا فى قوله: إن القرن العشرين منذ مطلعه، يعرض العقيدة، بعد العقيدة على الإنسان وعلى الإنسانية.

ولا نعلم أنه عرض عليها حتى اليوم قديما معادا، أو جديدا مبتدعا هو أوفق من عقيدة القرآن، وأوفق ما فيها أنها غنية عن الاختيار، والامتحان، وأنها على شرط العقيدة الدينية من بنية حية[2].

ويؤكد العقاد على هذه الحقيقة بقوله: ونحن ندعى: أن المنصف بين النصائح لا يستطيع أن ينصح لأهل القرآن بعقيدة فى الإنسان والإنسانية أصح وأصلح من عقيدتهم التى يستوحونها من كتابهم.

وإن القرن العشرين سينتهى بما استحدث من مبادئ، ومذاهب،وأيدلوجيات، ولا ينتهى ما تعلمه أهل القرآن من القرآن[3].

وتاسيسا على ذلك نقول: ما قاله النورسى من أن الإنسان فى عقيدة القرآن هو الخليفة المسئول بين جميع ما خلق الله، يدين بعقله فيما رأى وسمع، ويدين بوجدانه فيما طواه الغيب، مما لا تدركه الأبصار، والأسماع.

والإنسانية من أسلافها إلى أعقابها أسرة واحدة، لها نسب واحد، وإله واحد، أفضلها من عمل حسنا واتقى سيئا، وصدق النية فيما أحسنه وأتقاه[4].

ولما كان القرآن هو المصدر الأول لأوضاع الثقافة الإسلامية، فقد اتجه النورسى إلى هذا الكتاب الكريم، دارسا ما فيه من أقوال صريحة، وآراء ضمنية.

فالقرآن الكريم يقرر صراحة: بان الإنسان مدين بوجوده لله، وقد ميز الإنسان عن سائر الكائنات الحية بان الله ينفخ فيه من روحه.

---

(١) راجع: الإمام النورسى - الكلمات ص ٣٧.
(٢) العقاد الإنسان فى القرآن ص ٣٦٢.
(٣) المصدر السابق.
(٤) راجع: الإمام النورسى - الكلمات ص ١٣٦.

. ولما كان الإنسان مخلوقا، ومخلوقا من تراب، أو من طيب . . فلا يمكن أن يظن أنه مساو لله فى أى وجه من الوجوه، كما لا يستطيع الإنسان نفسه أن يجرؤ على مناهضة السلطان الإلهى.

قال تعالى: ﴿ **ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم. الذى أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلقه الإنسان من طين. ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين. ثم سواه ونفخ فيه من روحه** ﴾ (السجدة: الآية ٦ - ٩).

والإنسان على وجه من الوجوه من الأرض، فهو أرضى، ومخلوق غير مستقل. إلا أن روح الله التى نفخت فيه. تفصله عن سائر المخلوقات غير المستقلة، وتفضله عليهم، وتهب له علاقة فريدة بخالقه.

إنه كائن قادر على السلوك العقلى، والحكم على الأشياء، والتقرير الإرادى، والاختيار الأخلاقى.

والقرآن يدعم هذه الحقيقة الروحية بتقريره: أن الله خلق الإنسان ليكون خليفة فى الأرض.

وقد أقيم الإنسان على الأرض ليسيطر على سائر المخلوقات التى جعلت خاضعة لإرادته. باعتباره ترابيا،ولكنه حر طليق من قيود التراب[١].

قال تعالى: ﴿ **ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا** ﴾ (الإسراء: الآية ٧٠).

يقول الإمام النورسى: (لقد ثبت بالاستقراء التام، وتحريات العلوم وأبحاثها: أن الإنسان هو أكرم المخلوقات وأشرفها).

لأنه يستطيع أن يكشف بعقله عن مراتب الأسباب الظاهرية فى خلق الكائنات ونتائجها، ويعرف العلاقات بين العلل والأسباب المتسلسلة)[٢].

---

(١) راجع: جلال العشرى، نظرة العقاد إلى الإنسان فى القرآن مجلة الفيصل. ع ٥٩ ص ٣١.

(٢) راجع: الإمام النورسى، صيقل الإسلام، ص ٥٠٣.

وتكريم الإنسان – فى فكر النورسى – أى جعله شريفا ذا كرامة. أى أن التكريم بالعقل الذى به يعرف الإنسان الحق من الباطل، والخير من الشر، والنافع من الضار.

ولقد ذكر الإنسان فى القرآن بغاية الحمد، وغاية الذم فى الآيات المتعددة وفى الآية الواحدة.

ولا يعنى ذلك أنه يحمد ويذم فى آن واحد، وإنما معناه: أنه أهل للكمال، والنقص بما فطر عليه من استعداد لكل منهما، هو أهل للخير والشر، لأنه أهل للتكليف، والإنسان مسئول عن عمله – فردا وجماعة – لا يؤاخذ واحد بوزر واحد، ولا أمة بوزر أمة[1].

أما مناط المسئولية فى القرآن، فهو جامع لكل ركن من أركان هذه المسئولية يتغلغل إليه فقه الباحثين عن حكمة التشريع الدينى، أو التشريع فى الموضوع.

فهى بنصوص الكتاب قائمة على أركانها المجملة: تبليغ، وعلم، وعمل فلا تحق التبعة على أحد لم تبلغه الدعوى، فى مسائل الغيب، ومسائل الإيمان[2].

قال تعالى: ﴿ **ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون** ﴾ (يونس: الآية ٤٧).

أما العلم فإن أول أية من الكتاب تلقاها صاحب الدعوة الإسلامية، كانت أمرا بالقراءة، وتنويها بعلم الله، وعلم الإنسان.

قال تعالى: ﴿ **اقرأ باسم ربك الذى خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم** ﴾ (العلق: الآيات ١ – ٥).

وأول فاتحة فى خلق الإنسان كانت فاتحة العلم الذى تعلمه آدم، وامتاز به على سائر المخلوقات.

قال تعالى: ﴿ **وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضها على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا أنك أنت**

---

(١) راجع: العقاد، الإنسان فى القرآن ص ٣٦٧.

(٢) راجع: المصدر السابق ص ٣٦٨.

العليم الحكيم ﴾ (البقرة: الآية ٣١ - ٣٢) .

وأما العمل فهو مشروط فى القرآن بالتكليف الذى تسعه طاقة المكلف، وبالسعى الذى يدعاه لربه ولنفسه قال تعالى: ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ﴾ (البقرة: الآية ٢٨٦) .

ومن المسئولية الإنسانية القائمة فى القرآن على أركانها المجملة،من تبليغ، إلى علم، إلى عمل نجد الإمام النورسى يشير إلى التكليف باعتباره الخاصة المحكمة التى ينفرد بها القرآن، بين سائر الأديان، ومذاهب الفكر الفلسفى فى وصفه للإنسان بأنه: الكائن المكلف.

يقول النورسى: ثم إن فطرة الإنسان وما أودع الله فيه من أجهزة معنوية تدلان على أنه مخلوق للعبادة لأن ما أودع فيه من قدرات، وما يؤديه من عمل لحياته الدنيا لا تبلغه مرتبة أدنى عصفور الذى يتمتع بالحياة أكثر منه وأفضل..

بينما يكون الإنسان سلطان الكائنات، وسيد المخلوقات. من حيث حياته المعنوية بما أودع الله فيه من علم به وافتقار إليه.. وقيام بعبادته[1].

لقد غاص النورسى فى الأعماق، وحلق فى الآفاق، وأطل على الدنيا بفلسفة تقول: "وأما تعريف الإنسان بما وصف به فى القرآن الكريم، وأحاديث النبى ﷺ فقد اجتمع جملة واحدة فى تعريف جامع: "الإنسان مخلوق مكلف".

وعلى ضوء "كليات رسائل النور يمكن أن نقول: (مكان الإنسان فى القرآن الكريم هو أشرف مكان له فى ميزان العقيدة، وفى ميزان الفكر، وفى ميزان الخليقة، الذى توزن به طبائع الكائن بين عامة الكائنات هو: الكائن المكلف) .

هو كائن أصوب فى التعريف من قول القائلين "الكائن المطلق" وأشرف فى التقدير.

ذلك لأن الكائن الناطق ليس بشيء، إن لم يكن هذا النطق أصلا لأمانة التكليف..

---

(١) انظر: الإمام النورسى - الكلمات، ص ٢٠ .

إنما الكائن المكلف شيء محدود بين الخلائق بكل حد من حدود العقيدة، أو العلم أو الحكمة.

والكتاب الذى ميز الإنسان بخاصة التكليف، هو الكتاب الذى امتلأ بخطاب العقل بكل ملكة من ملكاته، وكل وظيفة عرفها له العقلاء، والمتعقلون. قبل أن يصبح العقل درسا يتقصاه الدارسون كنها وعملا وأثرا فى داخله، وفيما خرج عنه، وفيما يصدر منه، ومن يئول إليه..

العقل وازع بعقل صاحبه عما يأباه له التكليف..

العقل فهم، وفكر، يتقلب فى وجوه الأشياء، وفى بواطن الأمور.

العقل رشد يميز بين الهداية والضلال..

العقل روية وتدبير..

العقل بصيرة تنفذ وراء الأبصار..

العقل ذكرى تأخذ من الماضى للحاضر، وتجمع العبرة مما كان لما يكون، وتحفظ، وتعى، وتبدى، وتعيد..

والعقل بكل هذه المعانى موصول بكل حجة من حجج التكليف، وكل أمر بمعروف، وكل نهى عن محظور..

أفلا يعقلون؟.. أفلا يتفكرون؟.. أفلا يبصرون؟.. أفلا يتدبرون؟

أليس منكم رجل رشيد؟ أفلا تتذكرون؟

إن هذا العقل بكل عمل من أعماله التى يناط بها التكليف حجة على المكلفين.. فيما يعنيهم من أمر الأرض والسماء، ومن أمر أنفسهم، ومن أمر خالقهم، وخالق الأرض والسماء..وفلسفة الإمام النورسى: تقرر أن التفكير ضرورة إسلامية.. وضرورة التفكير تشمل على العقل الإنسانى بكل محتواه من وظائف.

يقول النورسى: إن أوائل أكثر الآيات القرآنية، وخواتمها تحيل الإنسان إلى العقل. قائلة: راجع عقلك، وفكرك أيها الإنسان، وشاورهما حتى يتبين لك صدق

هذه الحقيقة فانظروا مثلا إلى قوله تعالى: "فاعلموا.. فاعلم.. أفلا يعقلون.. أفلم ينظروا.. أفلا يتذكرون.. أفلا يتدبرون.. فاعتبروا يا أولى الأبصار" وأمثالها من الآيات التى تخاطب العقل البشرى فهل تسأل: أى شيء منعكم من التفكير، والتدبر فى أحداث الحياة(١).

ويقول: نحن معاشر المسلمين نتبع البرهان، ونقبل بعقلنا، وفكرنا، وقلبنا حقائق الإيمان. والمستقبل الذى لا حكم فيه إلا للعقل، والعلم. وسوف يسدده حكم القرآن الذى يستند أحكامه إلى العقل، والمنطق، والبرهان)(٢).

والقرآن لا يذكر العقل إلا فى مقام التعظيم والتنبيه، إلى وجوب العمل به، والرجوع إليه..

ولا تأتى الإشارة إلى العقل عارضة، ولا مقتضبة فى سياق الآية.. بل هى تأتى فى كل موضع من مواضعها.. مؤكدة جازمة. باللفظ والدلالة..

وتتكرر فى كل معرض الأمر، والنهى التى يحث فيها المؤمن على تحكيم عقله، أو يلام فيها الفكر على إهمال عقله، وقبول الحجر عليه.

ولا يأتى تكرار الإشارة إلى العقل بمعنى واحد من معانيه التى يشرحها النفسانيون من أصحاب العلوم الحديثة. بل هى تشمل وظائف الإنسان العقلية على اختلاف أعمالها وخصائصها.

وتتعمد التفرقة بين هذه الوظائف، والخصائص فى مواطن الخطاب، ومناسباته.

فلا ينحصر خطاب العقل فى العقل الوازع، ولا فى العقل المدرك، ولا فى العقل الذى يناط به التأمل الصادق، والحكم الصحيح.

بل يعم الخطاب فى الآيات القرآنية، كل ما يتسع له الذهن الإنسانى من خاصة أو وظيفة. وهى كثيرة.

وجميعها مما يحيط به العقل الوازع، والعقل المدرك، والعقل المفكر. الذى يتولى الموازنة، والحكم على المعانى، والأشياء.

---

(١) راجع: الإمام النورسى – صيقل الإسلام ص ٤٩٥.

(٢) راجع: الإمام النورسى – المصدر السابق ص ٤٩٥.

وهكذا تخلص للإمام النورسى: فلسفة كاملة، فى حقيقة المدركات، والمعطيات، وفى حقيقة الفهم العقلى.. فلم يقتحم النورسى بابا إلا أطبق بفكره على لبابه، وجوهره.

ولهذا لم يترك موضوع الإنسان كائن مكلف" إلا بعد أن بين مناط التكليف من التكفير والعقل.. وزاد الأمر تأكيدا بسر التوحيد. فإن التوحيد يصبح مفتاحا ثمينا حيث يفتح الكنوز الإلهية السامية، وألوفا من خزائن الكون.

بينما إذا تخبط ذلك العقل فى وحل الضلالة والكفر فإنه يصبح آله التعذيب، ووسيلة إزعاج[1].

ويشير العقاد إلى خصائص العقل، والتى وجدها: فى الإدراك، والتأمل، والرشد، فيقول: ومن خصائص العقل ملكة الإدراك التى يناط بها الفهم والتصور، وهى على كونها لازمة لإدراك الوازع الأخلاقى، وإدراك أسبابه، وعواقبه. تستقل أحيانا بإدراك الأمور فيما ليس له علاقة بالأوامر، والنواهى، أو بالحسنات والسيئات.

ومن خصائص فى العقل: أنه يتأمل فيما يدركه، ويقلبه على وجوهه، ويستخرج منه مواطنه، وأسراره، ويبنى عليها نتائجه وأحكامه.

وهذه الخصائص فى جملتها فى تجمعها ملكة الحكيم،وتتصل بها ملكة الحكمة.

وتتصل كذلك بالعقل الوازع إذا انتهت حكمة الحكيم به إلى العلم بما يحسن،وما يقبح، وما ينبغى أن يطلبه، وما ينبغى له أن يأباه.

ومن أعلى خصائص العقل الإنسانى "الرشد" وهو مقابل لتمام التكوين فى العقل الرشيد، ووظيفة الرشد فوق وظيفة العقل الوازع، والعقل المدرك، والعقل الحكيم، لأنها استيفاء لجميع هذه الوظائف، وعليها مزيد من النضج، والتمام، والتميز بميزة الرشاد، حيث لا نقص ولا اختلال.

---

(١) راجع: الإمام النورسى – الشعاعات ص ١٩.

وقد يؤتى الحكيم من نقص فى الإدراك، وقد يؤتى العقل الوازع من نقص فى الحكمة. ولكن العقل الرشيد ينجو به الرشاد من هذا وذاك.

وفريضة التفكير فى القرآن الكريم تشمل العقل الإنسانى بكل ما احتواه من هذه الوظائف بجميع خصائصها، ومدلولاتها، فهو يخاطب العقل الوازع، والعقل المدرك، والعقل الحكيم، والعقل الرشيد[1].

واللب الذى يخاطبه القرآن الكريم وظيفته عقلية، تحيط بالعقل الوازع، والعقل المدرك، والعقل الذى يتلقى الحكمة، ويتعظ بالذكر، والذكرى، وخطابه خطاب لأناس من العقلاء، لهم نصيب من الفهم، والوعى أوفر من نصيب العقل الذى يكف صاحبه عن السوء، ولا يرتقى إلى منزلة الرسوخ فى العلم والتمييز بين الطيب والخبيث، والتمييز بين الحسن والأحسن فى القول[2].

فالعقل الذى يخاطبه الإسلام. هو العقل الذى يعصم الضمير، ويدرك الحقائق، ويميز بين الأمور، ويوازن بين الأضداد، ويتبصر، ويتدبر، ويحسن الإدكار، والروية.

وإنه ليس هو العقل الذى يقابله الجمود، والعنت، والضلال..

وليس بالعقل الذى قصاراه من الإدراك أنه يقابل الجنون..

فإن الجنون يسقط التكليف فى جميع الأديان، والشرائع.. وفى كل عرف وسنة.. ولكن الجمود، والعنت، والضلال غير. مسقطة للتكليف فى الإسلام..

وليس لأحد أن يعتذر بها كما يعتذر للمجنون بجنونه فإنها لا تدفع الملامة ولا تمنع المؤاخذة بالتقصير.

ويندب الإسلام من يدين به. إلى مرتبة فى التفكير أعلى من هذه المرتبة التى تدفع عنه الملامة، أو تمنع عنه المؤاخذة. فيستحب له أن يبلغه بحكمته، ورشده[3].

---

(١) راجع: العقاد. المجموعة الكاملة. المجلد الخامس ص ٢٨٩.

(٢) المصدر السابق ص ٢٩٥.

(٣) المصدر السابق.

ويبدو فضل الحكمة، والرشد على مجرد التعقل والفهم، من آيات متعددة في الكتاب الكريم، يدل عليها قوله تعالى: ﴿ **ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا** ﴾ (البقرة: الآية ٢٦٩).

والواقع أن تكاليف القرآن جميعا، تقيم الشواهد على هذا التوافق الموصول بين تمييز الإنسان بالتكلف فى القرآن، وبين خطابه للعقل والفكر، وتذكيره بالروية، والتدبير[١].

يقول النورسى: نعم: إن الإنسان بسر التوحيد صاحب كمال عظيم بين جميع المخلوقات. وهو أثمن ثمرات الكون، وألطف المخلوقات وأكملها، وأسعد ذوى الحياة، ومخاطب رب العالمين، وأهل لأن يكون خليله ومحبوبه..

حتى أن جميع المزايا الإنسانية وجميع مقاصد الإنسان العليا مرتبة بالتوحيد وتتحقق بسر التوحيد[٢].

ويبدو لى أن هذا هو ما عبر عنه العقاد حين قال: إنها أى رسالة الإسلام التى لم تعرف قط فى التاريخ البشرى قبل الإسلام، هى تمييز الإنسان بخاصة التكليف، وإعداده لخطاب العقل، وبينات الإقناع[٣].

وليس مما يدين به المسلم أن يرتد النوع الإنسانى إلى ما دون طبيعته.. ولكن ما يؤمن به أن ارتفاع الإنسان وهبوطه.. منوطان بالتكليف.. وقوامه الحرية والتبعية، فهو بأمانة التكليف قابل للصعود إلى قمة الخليقة، وهو بالتكليف قابل للهبوط إلى أسفل سافلين.

وجماع ما يوصف به الإنسان تمييزا من العجماوات، وتمييزا من الأرواح العلوية على السواء.. أنه مخلوق مكلف.

ولهذا كان فى أحسن تقويم، ولهذا يرتد إلى أسفل سافلين[٤].

---

(١) راجع: العقاد، الإنسان فى القرآن الكريم ص ٣٧٦.

(٢) راجع: الإمام النورسى – الشعاعات ص ١٨.

(٣) انظر: العقاد. المجموعة الكاملة، مجلد رقم ٥ ص ٨٤.

(٤) انظر: العقاد. الإنسان فى القرآن الكريم ص ٣٩٤.

ويبدو للباحث أن رؤية الإمام النورسى وظيفة العقل.. تنطلق من القرآن الكريم لذلك كانت رؤية النورسى تتميز بالدقة.

يقول النورسى – رحمة رب العالمين عليه –: (العقل عضو وآلة إن لم تبعه لله، ولم تستعمله فى سبيله. بل جعلته فى سبيل الهوى، والنفس، فإنه يتحول إلى عضو مشؤوم ومزعج، وعاجز.

فإذا بيع العقل إلى الله، واستعمل فى سبيله لأجله. فإنه يكون مفتاحا رائعا بحيث يفتح ما لا يعد من خزائن الرحمة الإلهية، وكنوز الحكمة الربانية.

فاينما ينظر صاحبه وكيفما يفكر.. يرى الحكمة الإلهية فى كل شيء، وكل موجود، وكل حادثة. ويشاهد الرحمة الإلهية متجلية على الوجود كله. فيرقى العقل إلى مرتبة مرشد ربانى)[1].

وقد لا يخفى.. أن وصول العقل إلى مرتبة "الرشد" هو ما أشار إليه عباس محمود العقاد – فيما ذكرناه سابقا –: من أعلى خصائص العقل الإنسانى: "الرشد". إلا أن النورسى تميز هذا العقل عنده بكونه "مرشد ربانى".

وقوام التقويم الحسن: الإيمان، وعمل الصالحات.. وسبيل الارتداد إلى أسفل سافلين: مطاوعة الهوى، والغرور، والسرف، وطغيان الغنى، ومنع الخير، والهلع من البلاء، والعجلة من الضعف، والإغراء.

وقصة آدم مثل لما يعرض للإنسان من الخطيئة والنجاة.. خطيئة لا تدينه أبدا، ولا تدين أبناءه أبدا.. ونجاته رهينة بتوبته، وما ينتفع به من علم ربه[2].

هذا العلم الذى استعد له الإنسان هو مناط التكليف.. وهو مآل التبعة التى نهض بها هذا المخلوق المفضل على كثير من المخلوقات.. الأمين على نفسه وعليها، بما وهبه الله من قدرة، ومن دراية..

فإذا قامت الكفارة على الخطيئة الموروثة فى المسيحية. فالأمانة فى الإسلام هى

---

(١) انظر: الإمام النورسى – الكلمات – ص ٢٣.

(٢) راجع: العقاد – الإنسان فى القرآن الكريم، ٣٩٤.

التى يقوم عليها الخلاص، ويرجع إليها التكليف، وتكتب عليها تبعته فى حياته، غير مسئول عما سلف من قبله.

تبعة يحملها بما كان له من قدرة عليها، ومن سائر مخلوقات الله التى فى ولايته.

وإذا كانت الأمانة هى التى يقوم عليها الخلاص، ويرجع إليها التكليف، فإنها هى التى رفعت الإنسان مكانا عليا، وهبطت به مقاما إلى زمرة الشياطين.

قال تعالى: ﴿ **إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال. فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا** ﴾ (الأحزاب: آية ٧٢).

وهذا معناه: أن الإنسان وحده من بين سائر مخلوقات الله، هو الذى كان أهلا لأمانة الخير والشر، أو لأمانة التكليف، بما أودع فيه من فطرة التكوين.

والأمانة هنا هى: أمانة التكليف، فالكائن المكلف من قبل الله، هو الذى حمل الأمانة.

والأمانة التى عرضت على الخلق عامة، ولم يحملها أحد من خلق الله. وحملها الإنسان، وما كان ليحملها، إلا أن يتعرض لتبعاتها، فهو ظلوم، جهول.

ظلوم لأنه يتعدى الحدود وهو يعرفها، وجهول لأنه يتعدى تلك الحدود وهو لا يعلمها.. وعنده أمانة العقل التى تهديه إلى علمها.

وما من كائن غير الكائن العاقل - يوسف بالظلم، والجهل لأن غير العاقل لا يعرف الحد الذى يتعداه، ولا يطلب منه معرفة الحدود، وإنما يوصف بالظلم، والجهل. من يصح أن يوصف بالعدل، والمعرفة، ومن يصح أن يسأل عن فعل يريده فى الحالين[1].

ويشير الإمام النورسى إلى الأمانة. فيقول: (إن الإنسان له استعداد جامع. كأنه أنموذج مجموع العالم، وأودع فيه أمانة يفهم بها الكنز المخفى ويفتحه، ولم يحد

(١) المصدر السابق.

قواه بل أرسلت مطلقة. فيكون له نوع شعور كلى)[1].

ويقول النورسى أيضًا: (إن مفتاح العالم فى يد الانسان فى نفسه فالكائنات مع أنها مفتحة الأبواب منغلقة. فالحق سبحانه وتعالى أودع من جهة الأمانة فى الإنسان مفتاحًا يفتح به كل أبواب العالم)[2].

ونجد هذا المعنى عند شيخ الإسلام: فخر الدين الرازى. حيث يقول: إنا عرضنا الأمانة أى التكليف: وهو الأمر بخلاف ما فى الطبيعة. وأعلم أن هذا النوع من التكليف ليس فى السموات، ولا فى الأرض،لأن الأرض والجبال والسماء كلها على ماخلقت عليه.

الجبل لا يطلب منه المسير، والأرض لايطلب منها الصعود، ولا من السماء الهبوط، ولامن الملائكة. .لأن الملائكة وإن كانوا مأمورين، منهيين عن أشياء. لكن ذلك لهم كالأكل والشرب لنا، يسبحون الليل والنهار لايفترون، كما يشتغل الإنسان بأمر موافق لطبعه.

ويقول الإمام شيخ الإسلام فخر الدين الرازى فى تفسير حمل الأمانة· وقال بعضهم فى تفسير الآية إن المخلوق على قسمين: مدرك وغير مدرك.

والمدرك منه من يدرك الكلى، والجزئى، مثل الأده ى، ومنه من يدرك الجزئى كالبهائم تدرك الشعير الذى تاكله، ولاتفكر فى عواقب الأمور، ولاتنظر فى الدلائل، والبراهين. .

ومنه من يدرك الكلى، ولايدرك الجزئى. كالملك يدرك الكليات،ولايدرك لذة الجماع والأكل.

قالوا: وإلى هذا أشار الله تعالى بقوله: ﴿**ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء**﴾ فاعترفوا بعدم علمهم بتلك الجزئيات.

التكليف لم يكن على مدرك الأمرين. إذ له لذات بأمور جزئية فمنع منها

---

(١) راجع: الإمام النورسى، المثنوى العربى النورى ص ٣١١.

(٢) راجع المصدر السابق.

لتحصيل لذات الحقيقة، هي مثل لذة الملائكة بعبادة الله ومعرفته..

واما غير الإنسان فإن كان مكلفًا. لابمعنى الأمر بما فيه عليهم كلفة ومشقة، بل بمعنى الخطاب، فإن المخاطب يسمى مكلفًا كما المخاطب مكلف(١).

ويعقب العقاد على تفسير الفخر الرازى، ومقتبسات أخرى(٢) فيقول: ولا تختم هذه المقتبسات قبل أن نعود إلى تاكيد الاتفاق على معنى التكليف، وأن الاختلاف على المذام التى تترتب عليها. إنما هو الدليل على معنى الاستعداد الفطرى للمذاق وما عداها.

أو على الوقوع فى الذمة بمجاورة حدود التكليف ظلمًا. مع العلم بها وجهلاً مع القدرة على التعلم، والاسترشاد فى أمرها.

إلا أن معنى الاستعداد الفطرى لايخفى إذا روجعت الآيات التى ورد فبها ذكر صفات الإنسان بمعنى جنس الإنسان، فإنه بهذه الصفات فى مواضيع كثيرة، مع ذكر آيات التكوين والخلق، وتصريف قوى الطبيعة.

فقد ذكر تكريم بنى آدم مع السلطان على البر والبحر، والزرع، والضرع، والفضيل على كثير من خلائق الله.. وذكر ظلم الإنسان وجهله مع إنفراده، بالفطرة المستعدة للتكليف بين خلق السموات والأرض(٣).

ومعنى هذا: أن الأمانة التى أبت الطبيعة أن تحملها، وحملها الإنسان، تدل دلالة واضحة على الحرية الإنسانية.

وهذا الفضل فى الحرية هو نفسه الذى يسبب تردى الإنسان، وفى ضوء الحرية سر عظمة الإنسان، وخطيئته معًا. فلو لم يكن الإنسان حرًا ماارتكب الخطيئة. ولو لم يكن حرًا ما ساغ أن يحمل الأمانة(٤).

---

(١) راجع العقاد: المجموعة الكاملة، مجلد ٧، ص ٣٩٦.

(٢) تفسير الزمخشرى، وأبن كثير، والسيوطى، والقاسمى، والجواهر.

(٣) راجع العقاد: المجموعة الكاملة، مجلد ٧، ص ٣٩٧.

(٤) انظر جلال العشرى، مجلة الفيصل ع ٥٩،ص ٣٢.

إذن .. ماحدود العلاقة بين التكليف الإلهى . وبين الحرية الإنسانية؟

أو بالأحرى بين إرادة الله، وحرية الإنسان.

يقول النورسى: إن القدر، والجزء الاختيارى.. جزءان من إيمان حالى، ووجدانى يبين نهاية حدود الإيمان والإسلام، وليسا مباحث علمية ونظرية. أيأن المؤمن يعطى الله كل شئ ويحيل إليه كل أمر. وما يزال هكذا حتى يحيل فعله ونفسه إليه.

ولكى لاينجو فى النهاية من التكليف والمسئولية. يبرز أمامة الجزء الاختيارى قائلاً له (أنت مسئول .. أنت مكلف)(١).

وفى فكر العقاد: أن الطاعة والحرية شرطان من شروط التكليف.. وفى فلسفة العقاد: أن هذه بديهة يغفل عنها كثير من المجادلين فى قضية ايمان، وفى قضية التكليف والجزاء.

ذلك لأنهم يقصرون النظر على شروط الحرية، دونما نظر الى شرط الطاعة، وكأنه مناقض للجزاء، وكأنه من اللازم عقلاً أن يكون الجزاء مقرونا بالحرية المطلقة.

وتلك فى ذاتها استحالة عقلية بكل احتمال يخطر على البال فى فهم خلق الإنسان. فمن بحث عن الإيمان بالتكليف غير ناظر الى شرط الطاعة. فلا جزم يضل عنه، ولا ينتهى فيه الى قرارا، لأنه يبحث عن شئ آخر، ولا يبحث عن التكليف، ولا عن الإيمان(٢).

ويبدو للباحث: أن الإمام النورسى كان أقرب الى حل هذه الإشكالية حين قال: (إن القدر، والجزء الاختيارى هما فى أعلى مراتب الإيمان والإسلام.. قد دخلا ضمن المسائل الإيمانية لأنهما ينقذان النفس الإنسانية.

فالقدر ينقذها من الغرور، والجزء الاختيارى ينجيها من الشعور بعدم المسئولية وليسا من المسائل العلمية، والنظرية التى تقضى الى ما يناقض سر القدر.

---

(١) راجع: الإمام النورسى الكلمات،ص٥٤١.

(٢) انظر: العقاد الإنسان فى القرآن ص ٣٩٩.

وحكمة الجزء الاختيارى كليًا بالتشبث بالقدر للتبرئة من مسئولية السيئاتالتى اقترفتها، والافتخار بالفضائل التى أنعمت عليه، والاغترار بها وإسنادها إلى الجزء الاختيارى)[1].

وهذا الذى ذهب إليه الشيخ بديع الزمان سعيد النورسى يؤكد لنا: أن مسألة القدر ليست للفرار من التكليف والمسئولية، بل هى لإنقاذ الإنسان من الفخر والغرور.

ولا يخفى أن فى القرآن الكريم خطاب متكرر الى العقل، وبيان متكرر لحساب الإنسان العاقل على الخير والشر، مع إسناد الإرادة الى الإنسان فى استحقاقه للثواب والعقاب.

وفى آيات صريحة تسند الإرادة الى الله، وتقرر أنه سبحانه وتعالى هو الخالق المقدر الذى يقدر الهداية والضلال، ويعطى كل شئ خلقه ويهديه.

وهى آيات كثيرة مقصودة بالتكرار، وإن لم تبلغ فى الكثرة عدد آيات الخطاب والتكليف، وآيات التذكير بالعقل، والنظر، والتمييز، والتفكير[2].

قال تعالى: ﴿ **فهدى الله الذين أمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم** ﴾ (البقرة: الآية ٢١٣).

وقال تعالى: (**فريقًا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة** ﴾ (سورة الاعراف).

وقال تعالى: ﴿ **الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى** ﴾ (سورة الأعلى).

وقال تعالى: ﴿ **وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء وهو العزيز الحكيم** ﴾ (إبراهيم الآية ٤).

وقال تعالى: ﴿ **يثبت الله الذين أمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء** ﴾ (إبراهيم الآية ٢٧).

---

(١) راجع: الإمام النورسى الكلمات ص ٥٤١.

(٢) العقاد: الإنسان فى القرآن، ص ٣٩٩.

وكثرة الآيات بهذا المعنى تبعد عن الذهن أن يكون فيها مجال للتأويل بغير معناها الظاهر، على اختلاف العبارة والمناسبة.

فمعناها الظاهر الذى لا تأويل فيه: أن الله سبحانه وتعالى هو الفعال لما يريد الذى يخلق عباده، ويخلق ما يعملون[1].

والعقاد يرجع بالقضية الى أسسها المحتملة على كل احتمال، وينفى التناقض ويرينا كيف يكون الاعتقاد حلاً للمشكلة من أسسها المفروضة[2].

يقول العقاد: أفى هذا تناقض فى حكم العقل اذا نظرنا الى المر كله نظرة المعقول، ولم نقصر النظر الى النصوص؟ أو الى واجب الاعتقاد بمقتضى هذه النصوص؟

إن الرجوع بالقضية الى أسسها المحتملة على كل احتمال ينفى التناقض، ويرينا كيف يكون هذا الاعتقاد (حلاً للمشكلة) من أسسها المفروضة جميعا، وخروجاً من التناقض الذى يلزمها على كل احتمال غير هذا الاحتمال[3].

فلو افترضنا الإنسان على صورة من الصور التى يفترضها الماديون، أو المثاليون فكيف يتصور العقل إرادة الإنسان على كل افتراض[4].

وليكن الإنسان روحا وعقلا خلقه الله، أو يكون تركيبا عارضا من تراكيب المادة لم يخلقه أحد، على قول المؤمنين بالمادة مجردة من الفكر والإرادة.

وليكن التكليف إرادة من عند الله، أو يكن ضروة من قضاء الواقع لا يرتبط بها أمر ولا جزاء.

فكيف يتصور آلعقل إرادة الإنسان على ل احتمال؟.

إنه لا يتصورها إرادة مطلقة من جميع القيود، لإن إرادة إنسان واحد تنطلق بغير قيد، هى قيد على كل إنسان سواه.

---

(١) العقاد: المجموعة الكاملة، مجلد ٧، ص ٤٠٠.

(٢) انظر جلال العشرى، مجلة الفيصل ع ٥٩،ص ٣٢.

(٣) العقاد: المجموعة الكاملة، مجلد ٧، ص ٤٠٠.

(٤) المصدر السابق.

وكيف يأتى هذا الانسان الواحد بإرادته المطلقة منفرداً بها بين أمثاله المقيدين؟ .

إما إن يوجد الناس جميعًا بإرادة مطلقة لكل منهم على سواه. فهذه الإحالة العقلية فى الفرض، والتقدير... قبل الوصول بها الى الايجاد والتحقيق.

فإذا انت الإرادة المطلقة هى إرادة الله، فخلق الناس مكلفين بغير أرادة لهم، شئ غير معقول، وغير مقبول.

لأن سقوط التكليف لا معنى له فى هذه الحالة، إلا أن يخلق الناس جميعًا متشابهين متماثلين، متساوين فى العمل الصالح الذى يساقون إليه، كما تساق الآلات.

فلا فضل إذن للعاقل على غير العاقل، ولا تمييز للإنسان على الجماد المجرد من الحس، فضلا عن الحيوان.

فإذا وجب تكليف الإنسان، فالعقل الإنسانى لا يوجبه إلا كما ينبغى أن يوجب على حالة واحدة لا سواها.

وهى حالة الإرادة المخلوقة، ويودعها فيه الخلاق، كما ينبغى أن تودع، وهى لا ينبغى أن تودع إلا على هذا الغرض الذى يدعو إليه القرآن[١].

وعلى ذلك: فإذا وجدنا فى القرآن الكريم آيات صريحة تؤيد كلا الأمرين، كما فى قوله تعالى: ﴿ **فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من احلق بإذنه والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم** ﴾ (البقرة: الآية ٢١٣).

وقوله تعالى: ﴿ **قل يأيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل** ﴾ (يونس: الآية ١٠٨).

إذا وجدنا مثل هذه الآيات، فلا ينبغى أن نظن فى الأمر شبهة تناقض أو تعارض، وإنما الذى ينبغى أن نوقن به – كما يقول المستشرق هارولد ب سمث فى

---

(١) انظر: العقاد الإنسان فى القرآن، ص ٤٠١.

مؤتمر برنستون[1]: إنه حيث يكون الاهتمام موجها الى الله، فإن سلطانه المطلق الكامل يكون موضع تاكيد.

وفى هذا السياق تعتبر أعمال البشر خيرها وشرها على السواء، مسببه عن الإرادة الإلهية مباشرة.. إذ أنه لا يحدث شئ ما لم يرده الله، أو يأذن به.

وإن مشيئة الله الأزلية الأبدية لتنفذ حتى فى مسائل الاعتقاد وعدمه، فيهدى قوم الى الإيمان، ويوجه آخرون الى الضلال.

وإن إرادة الله هى العليا، فهو يهدى من يشاء الى الصراط المستقيم ويصرف من يشاء الى سبيل الكفر والضلال.

هذا حين يكون الاهتمام موجهًا الى الله.

فأما حين يحول الاهتمام الى الإنسان فإن التاكيد ينصب على أن الإنسان قد وهبه الله الحرية والمسئولية الأخلاقية، فكل إنسان ذات أخلاقية حرة.

وهو مسئول أمام الله عن أفكاره، وأحكامه وأعماله.

والله يرشد الإنسان عن طريق الوحى الى مبادئ أخلاقية عامة، منبعثة عن إرادته الأبدية، إلا أن فى الإنسان قوة كامنة، إذ أن فى استطاعته أن يتقبل هدى الله، أو يتحول عنه.

وهنا يحق عليه العقاب، كما يحق له الثواب.. وتلك هى الحرية الإنسانية، أو حرية الإرادة لدى الإنسان[2].

والبحث العلمى يرشد إلى أن الأمام بديع الزمان سعيد النورسى.. عالج هذا الأمر علاجًا حاسمًا. ونجد ذلك واضحا حينما قال (كيف يمكن التوفيق بين القدر

---

(١) الدكتور هارولد ب سمث أستاذ ونائب رئيس قسم الديانات بكلية ووستر بولاي أوهايو إحدى الولايات الامريكية، وقد القى بحثا بعنوان: "مذهب الإسلام فى الإنسان" فى مؤتمر الثقافة الإسلامية الذى عقد برعاية جامعة برنستون ومكتبة الكونجرس فى واشنطن فى المدة بين ٨-١٦ سبتمبر ١٩٥٣.

(٢) هارولد ب سمث: الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص ٦٠.

والجزء الاختيارى؟ والجواب على ذلك بسبعة وجوه.

الأول: إن العادل الحكيم قد أعطى للإنسان جزءاً اختياريا مجهول الماهية، ليكون مدار ثواب وعقاب.

الثانى: أ كل إنسان يشعر بالضرورة، أن له إرادة واختيار فى نفسه، فيعرف وجود ذلك الاختيار وجدانًا، وأن العلم بما هية الموجودات شئ، والعلم بوجودها شئ آخر.

الثالث: أن الجزء الاختيارى لا ينافى القدر، بل القدر يؤيد الجزء اختيارى، لأن القدر نوع من العلم الإلهى، وقد تعلق العلم الإلهى باختيارنا، ولهذا يريد الاختيار ولا يبطله.

الرابع: القدر نوع من العلم، والعلم تابع للمعلوم، أى على أى كيفية يكون المعلوم يحيط به القدر، ويتعلق به، فلا يكون المعلوم تابعًا للعلم.

الخامس: إن القدر يتعلق تعلقًا واحداً بالسبب والمسبب معًا، فالإرادة لا تتعلق مرة بالمسبب ثم بالسبب مرة أخرى.

السادس: إن الميلان الذى هو أس أساس الجزء الاختيارى، أمر اعتبارى، عند الماتريدية، فيمكن أن يكون بيد العبد.

ولكن الميلان أمر موجود لدى الأشعريين، فليس هو يد العبد، إلا أن التصرف عندهم أمر اعتيادى بيد العبد.

ولهذا فذلك الميلان، وذلك التصرف، أمران نسبيان ليس لهما وجود خارجى محقق أما الأمر الاعتبارى فلا يحتاج ثبوته ووجوده الى علة تامة.. التى تستلزم الضرورة الموجبة لرفع الاختيار.

بل اذا اتخذت علة ذلك الأمر الاعتبارى وضعًا بدرجة من الرجحان فإنه يمكن أن يثبت، ويمكن أن يتركه فى تلك اللحظة، فيقول له القرآن آنئذ هذا شر لا تغفل.

السابع: إن إرادة الإنسان الجزئية وجزاه الاختيارى ضعيف وأمر اعتبارى، إلا أن

الله سبحانه وتعالى وهو الحين المطلق، قد جعل تلك الإرادة الجزئية الضعيفة شرطا عادلا لإرادته الكلية[١].

والباحث والمفكر يلاحظ أن هناك محوران دار حولهما الفكر الفلسفى الحديث وهما: (الحرية والعقل).

أما الحرية فلا تكون إلا فكاكًا من قيود.. وأما العقل فلا يكون إلا التزاما للقواعد والقيود.

فكيف يكون الجمع بين فكاك الحرية وانطلاقتها؟

وقيود العقل وقعوده؟

ذلك هو السؤال الذى يحاول الفكر الفلسفى فى نصف القرن الأخير. أن يجيب عنه.. حتى ليجوز لنا أن نقول: انه اذا كان أسلافنا الفلاسفة المسلمون قد جعلوا محور نشاطهم أن يوفقوا بين العقل والنقل، فمحور النشاط الفلسفى فى العصر الحديث هو التوفيق بين العقل والحرية، بحيث يجئ الفعل حرًا، وعاقلاً فى آن معًا[٢].

ذلك أن الناس كانوا قبل النهضة الفكرية الحديثة، كانوا مثقلين بشتى أنواع القيود، بعضها مفروض على النفس من خارجها، وبعضها الآخر كامن فى خفايا النفس من داخلها.

يقول الدكتور زكى نجيب محمود: فمن القبيل الأول: كان استبداد المستبدين من مستعمر وحاكم، استبداد شل فى الناس حركة الحياة النامية.

ومن القبيل الثانى: كانت أغلال الجهل، والخرافة تعمى أبصارنا، فلا نتبين الرشد من الغى، وتقيد خطانا فيسير الكرب ونحن وقوف لا نسير.

فكان لا بد لنا من معولين فى وقت واحد..

---

(١) راجع الامام النورسى، الكلمات، ص ٥٤٧، ٥٤٨.

(٢) راجع الدكتور زكى نجيب محمود، وجهة نظر، ص ٣١١، ط الانجلو المصرية.

معول يفك عنا قيود المستعمر والمستبد، وذلك هو معول الحرية:

ومعول آخر يزيح عنا غشاو الجهل والخرافة، وذلك هو معول العقل.

ومن ثم كانت الحرية، والعقل معا. هما المحوران الرئيسيان اللذان أدرنا عليهما كل نشاطنا الفكرى فى الأعوام التى انقضت من هذا القرن، بل وقبل ذلك بقليل[1].

على أن الفكرتين تلتقيان التقاء يجعل تصورنا لأحدهما أمرًا محالا بغير تصور الأخرى.

ومن الآراء التى يذكرها العلماء: أن الحياة بأسرها عمل فنى، تسوده الأصل نفها التى تسود الأعمال الفنية جميعا على اختلافها.

فالحياة تحكمها الأصول التى تحكم بيت شعر، ولحن الموسيقى، وصورة المصور من حيث التألف فيها بين الحرية والضرورة.. وهو التيلف الذى ما تحقق فى شئ يجعل منه فنا جميلا.

فليست حرية الفن أو حرية الحياة، إلا أن تكون هناك القيود، والقواعد التى تحكم السير. ثم ترانا مع ذلك نخطو فى خفه وانطلاق كأنه لم تكن تقيدنا فى السير قيود، وتقعدنا قواعد[2].

يقول العقاد: أنظر الى بيت الشعر، وتصرف الشاعر فيه، إنه مثل حق لما ينبغى أن تكون عليه الحياة بين قوانين الضرورة، وحرية الجمال، فهو قيود شتى من وزن وقافية واطراد، وانسجام.

غير أن الشاعر يعرب عن طلاقة نفس لا حد لها، حين يخطو بين هذه السدود، خطوة اللعب، ويطفر من فوقها طفرة النشاط، ويطير بالخيال فى عالة لا قائمة فيه للعقبات والعراقيل.

وهكذا فلتكن الحياة، وعلى هذا المعنى، فلنفهم ضرورتها وقوانينها.

---

(١) المصدر السابق، ص ٣١٢.

(٢) المصدر السابق، ص ٣١٢.

فما الضرورات والقوانين إلا القالب الذى تحصر فيه الحياة هند صبها، وصياغتها ليكون لها حيز محدود فى هذا الوجود، ولتسلم من العدم المطلوب الذى تصير بها الفوضى إليه.

وإلا فتصور عالما لا موانع فيه، ولا أثقال، ثم انظر: ماذا لعله يكون؟.. إنه لا يكون إلا فضاء بغير فاصل، أو هيولى بغير تكوين.

فلنعلم كيف نحمل الحياة بقيودها، ونجرى بها كأنها لا تعوقنا عن بلوغ ما نريد[1].

ويعقب الدكتور زكى نجيب محمود على هذا بقوله: هكذا تلتقى الحرية، والقيد فى كيان واحد عند العقاد، حتى ليرى الحياة فى الكائن الحى مجموعة قيود، لأنها ليست القيود التى تكبل النفس الحية الواثبة النابضة، بل هى القيود التى تنظم الوثب والطيران[2].

ولكن هل هذه الحرية الإنساني حرية مخلوقة أم هى حرية مطبوعة؟

وكائنا ما كانت هذه الحرية، فهل يتماثل حكم العقل فيها مع حكم الإيمان.

والواقع أن هذه القضية لها جذورها الممتدة فى تراث الفكر الإسلامى، وقد برزت قضية العلاقة بين إرادة الله، وحرية الإنسان، أو بين مشيئة المطلق، ومشيئة المقيد.

فالمطلق الذى هو الله: إرادة غير محدودة، وقدره لانهاية لها.

والمقيد الذى هو لإنسان إرادة حادثة، وقدرة محدودة.

والذى يترتب على ذلك هو وجود مسئولية ما تتدخل فى الحد من الحرية، بمعنى أن الإنسان مسئول بقدر ما أتيح له من الحرية.

وبما أن الحرية بهذه الكيفية محدودة، فالمسئولية يجب أن تكون بدورها محدودة. ومع ذلك فإن القضية لم تفهم على هذا النحو، عند أغلب الفرق

---

(١) المصدر السابق، ص ٣١٢.

(٢) المصدر السابق، ص ٣١٣.

الإسلامية التى توزع المسلمون عليها. ثم أخذوا يتوزعون عليها من قبل أن ينتصف القرن الأول الهجرى (السابع الميلادى) الى أن تبلور الخلاف فى فرقتين كبيرتين هما:

الجبرية: أى القائلون بالجبر.

والقدرية: أى القائلون بالاختيار.

أما الأشاعرة فقد وقفت وسطا بين الجبرية والقدرية.

وكانت الظروف الاجتماعية فى عصرها، قد هيأت لها كل فرص الظهور، فمن ناحية كان العقل الإسلامى قد نما، وتطور، حتى راح ينكر ما لدى الجبريين من تخاذل، واستكانة، ومن ناحية أخرى كان سلطان المعتزلة الذى خلق القدرية منذ أيام واصل بن عطاء د ضمى عيه قضاء كاملا[1].

والواقع أن الفلسفة الإسلامية، لم تتضح إلا بعد أن احتل الأشاعرة مكان المعتزلة، وحاولوا التوفيق بين الجبر والاختيار، أو بين الإرادة الإلهية والحرية الإنسانية.

ويكاد يجمع الرأى على أن الأشعرى – وهو معتزلى فى الأصل، عاش فى نهاية القرن الثالث الهجرى – ساعد كثيرين من رجال الفلسفة فى بيان حد الحرية.

حتى لقد ذهب عدد من المستشرقين من أمثال رينز، وهاريروكر، وأرنست رنيان الى أن أغلب المتكلمين هم الذين أنشئوا الفلسفة الإسلامية الحقيقة.

وأنه من العبث مجازاة المعتزل وغيرهم من فرق الكلام، فى تحديد معالم الفلسفة الإسلامية. إن الحرية المخلوقة حرية صحيحة كما ينبغى أن تكون فى احتمال العقل المدرك المميز الذى يهتدى بإذن الله لما اختلفوا فيه.

ولا يقال إن الحرية التى تخلق ليست بحرية، فإن الحرية غير القيد سواء كانا مخلوقين أو مطبوعين، وساء كانا من عالم الروح، أو من عالم المادة.

فإن التمايز بينهما يكون واضحا كما تتمايز قيمة المعدن نفسيا وغير نفيس،

---

(١) المصدر السابق، ص ٣١٣.

وكلاهما مخلوق أو مصنوع، فإن صنعنا للأنية الذهبية، وللأنية النحاسية.لا ينفى نفاسة الأولى، ولا يسوى بين الآنيتين المصنوعتين[1].

ويذكر العلماء: إنه ليس فى العقل شئ يسمى حرية مطبوعة، تعلة على الحرية المخلوقة من جميع القيود، إن الانطلاق من جميع القيود، غير معقول، وغير موجود[2].

واذا وجدت للمخلوقات العاقلة حرية، أو وجدت لها إرادة، فلنرجع الى العقل لنرى كيف يتصورها العقل، أى عقل - وكيف تكون على احتمال واحد دون كل احتمال.

إنها لا تكون سواء فى كل إنسان، لأنها اذا امتنع فيها خلاف القوة لم يمتنع فيها خلاف الزمن والعمر، ولا خلاف المكان والجسد، ولا خلاف الصغر والكبر، ولا خلاف الحركة والجمود.

واذا امتنع فيها كل هذا الخلاف، فليست هى بشىء، إذ ليست الموجودة التى لم تتمايز، ولم تتنوع بأشياء يقبلها التصور.

بل هى عدم ينقطع عن الوجود، أو كائن لا تمييز فيه ولا تكليف، ولا حسنة، ولا سيئة، ولا ثواب، ولا عقاب.

فاذا وجد المخلوق حرا، ذا إرادة، فلا وجود له، إلا بهذا الاختلاف فى حكم العل كيفما كان حكم النصوص.

واذا قضى العقل بهذا دون سواه، فالعقل يتصور إرادة الله، وإرادة الإنسان على احتمال واحد دون سواه.

وحكم الإيمان هنا، وحكم العقل متماثلان، إذ كان كل ما عدا حرية الإيمان فرضا غير معقول، بل غير موجود[3].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) انظر: جلال العشرى، نظرة العقاد الى الإنسان، مجلة الفيصل، ع ٥٩، ص ١٣٣.

(٣) راجع، العقاد، الإنسان فى القرآن، ص ٣٩٧.

واستخلاصا للنتائج من مقدماتها، نصل الى ان العقل الذى يزيد عليه الإيمان هو العقل الذى خاطبه القرآن بالتكليف.

ولا يعرف عقل الإنسان تكليفا غير التكليف الذى بسطته نصوص القرآن، فلا معنى للتكليف أصلا إن لم كن فيه طاعة وحرية، ولا معنى للحرية دون إرادة الخالق، وإرادة المخلوق[1].

ولما كانت إرادة الله هى الموجودة للبشر أجمعين، فقد ترتب على هذا: أنه لا يفضل إنسان انسانا بشرف مولده، ولا بنوع عمله، ولا بجاهه فى قومه.

فالإقرار بالمساواة بين البشر باعتبارهم من خلق الله، امر من الأمور الأساسية فى الإسلام.

وليس فى الإسلام خاصة، ولا جماعات ممتازة، ولا أم مختارة، إذ أن البشر جميعا فى أصلهم أمة واحدة قال تعالى: (كان الناس أمة واحدة).

والطريقة الوحيدة التى يستطيع بها الناس، أن يصنفوا أنفسهم، هى نوع استجابتهم لله، هى قبول هدى الله، أوالخروج عن طاعته.

وهو المبدأ الذى تتضمنه الأصول النظرية لشعائر الإسلام، التى استهدفت أن يكون الناس جميعا سواسية أمام الله.

والقرآن الكريم قد وضع الإنسان - علما، ودينا، فى موضعه الصحيح، حين جعل تقسيمة الصحيح أنه: ابن ذكر وأنثى، وأنه ينتمى بشعوبه وقبائله الى الأسرة البشرية التى لا تفاضل بين الأخوة فيها بغير العمل الصالح، وبغير التقوى.

قال تعالى: ﴿ **يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم أن الله عليم خبير** ﴾ (الحجرات: الآية ١٣).

ولا شك ان تعدد الشعوب، والقبائل، واختلاف اللغات، والألوان، من أقوى الأسباب لإحكام صلة التعارف بينها، وتعريف الإنسانية كلها بأسرار خلقها.

فإن تعدد الشعوب، والقبائل، يعدد المساعى، والحيل، لاستخراج كنوز الأرض،

---

(٣٠٣) راجع العقاد، المجموعة الكاملة، مجلد ٧، ص ٤٠٤.

واستنباط أدوات الصناعة، لى حسب المواقع والأزمنة، وعلى حسب المكلمات، والعادات التى تتفتق عنها ضرورات العيش، والذود عن الحياة، فينجم عن هذا مالا بد أن ينجم عنه، من تعدد الحضارات وأفانين الثقافة.

وتزداد الإنسانية عرفانا بأسرار خلقها، وعرفانا بخالقها، واقترابا فيما بينها وتضطر الى الاقتراب اضطرارا لما تحسه من اشتباك منافعها، وسريان الضرر من قريبها الى بعيدها.

قال تعالى: ﴿**ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم أن فى ذلك لآيات للعالمين**﴾ (الروم: الآية ٢٢).

إن هذه الوحدة فى صلة الإنسان بالإنسان، مشدودة الأزر بالوحدة بين الناس كافة فى الصلة بالله ربهم ورب العالمين، الذى يسوى بينهم، ويدينهم بالرحمة والأنصاف، ثم لا يقضى بينهم فيما اختلفوا فيه. إلا بقسطاس العدل، أيهم أحسن عملا، وأقرب الى التقوى واستباق الخيرات.

واذا كان عصرنا هو عصر العلاقات العالمية الذى لا يتطلب مواطنا أصح وأصلح من الإنسان الذى يوقن بالأسرة الإنسانية فإن هذا العصر لا تسعده عقيدة أخرى أصح له، وأصلح من عقيدة القرآن الكريم.

واذا كان عصرنا هو عصر الوحدة الإنسانية من إيمان برب واحد للعالمين، وبنبوة تختم النبوات، فإن القرآن الكريم يعطى كما يذكر النورسى إنسانه الذى ليس من إنسان أصح منه وأصلح لهذا العصر[1].

إذن الإنسان فى المنظور الإسلامى فى فكر النورسى هى الإنسان الذى يحمل فى ذاته الإيمان الحى، وتتأثر سياسته، واجتماعه، واقتصاده بإيمانه.

وقد لا يخفى على أهل العلم، أن الانسان فى المنظور غير الاسلامى ينصرف فى النواحى الاجتماعية، والسياسية بعيدا عن الدين، منقطعا عن عالم الغيب.

ويرى أن حقل الايمان يجب أن يعزل كما هو الموقف الماركسى مثلا، حيث

---

(١) المصدر السابق، ص ٤٠٤.

ينكر الإيمان، ولا يعترف بأى مساحة فى الذات الإنسانية لعالم الغيب وللألوهية، وللروحانيات.

وكذلك الخلفية الفلسفية أو اللافلسفية للرأسمالية التى لا تبالى بأن يكون هذا الإنسان مرتبطا أو ذا أو شائج م عالم الغيب.

فهى تركز فقط على عالم الشهادة، على اقتصاد الإنسان، وعلى اجتماع الإنسان، وعلى سياسة الإنسان، وعلى ما يجنيه من فوائد ومكاسب مادية.

إذن نحن فى الفكر المعاصر أمام إنسانين مختلفين، لا إنسان واحد.

إنسان لا يعترف بالغيب، ويرى نفسه معطى، أى أنه موجود هكذا فى هذا العالم من دون جذور، من دون منبت، من دون وشائج بالموضع الكونى، والطبيعة، وسير الحياة فيها، وفى الجنس البشرى، وذلك على قاعدة: أنه مخلوق عبثى.

هذا الإنسان يتحقق بامتلاكه القدرة، والسلطة على الطبيعة والبيئة، والإنسان، فالموجود الأكمل هو الموجود الأقوى القادر على حفظ وجوده وعلى نفى ضده ومنافسته فى ميدان تنازع البقاء كما فى فكر (داروين، ونيتشه، وفرويد، وماركس).

وعلاقة هذا الإنسان بالآخرة، هى علاقة طرد، ونفى، واغتصاب، وسيطرة فالبقاء للأقوى.

وإنسان آخر يؤمن بالله، وبعالم الغيب، ويتغلل الإيمان فى أنشطته كلها، ويرى لوجوده هدفا وغاية.

يقول الامام النورسى فى هذا الإنسان الذى يدرك أن عليه رسالة، وأنه لم يوجد عبثا: (الإنسان الذى يظفر بالإيمان الحقيقى، يستطيع أن يتحدى الكائنات، ويتخلص من ضيق الحوادث[1].

ويقول أيضا: (سعادة الدنيا فى العبادة، وفى الجندية الخالصة لله)[2]

---

(١) انظر الامام النورسى،الكلمات، ص ٥٤١.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٥٢..

والموجودات كلها فى نظر المؤمن خدام مؤنسون[1].

وإن مقام الإنسان الراقى، وتفوقه على سائر الأحياء، وامتيازه عليها، إنما ه لساياه السامية، ولاستعداداته الفطرية الجامعة، ولعبوديته الكلية، ولسعة دوائر وجوده[2].

إذن: الفكر النورسى: يقوم على: أن الإنسان فى التصور الإسلامى، قمة الكائنات الحية التى تعيش على وجه البسيطة، وأفضلها وأكرمها.

لما أودعه الله فى الإنسان من مزايا، وميزه من صفات.

لأن الإسلام يريد أن يعيش الإنسان فى جو الاطمئنان، والاستمتاع بالحياة الإنسانية استمتاعا يرفع الإنسانية، فوق مستوى الاحتكاك، والصراع، والشك.

وإن الإنسان المؤمن هو المحسن، والمحسن هو صاحب الوجدان الرفيع.

إذن: هذا الإنسان المؤمن يعترف بالآخر، ويقيم علاقات حسنه مع الآخرين فى ظل مبادئ التعارف، والمبادئ، والقيم الإنسانية.

وهذا الإنسان المؤمن تفوقه على الآخرين، يرجع إلى سجاياه، وإنسانيته، وتقواه كما قال تعالى: (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) (سورة الحجرات).

وإذا كان هذا شأن الإنسان المؤمن بالله فى فكر الإمام النورسة.. فإن الإنسان غير المنتمى إلى الأيمان.. يمكن أن يصوغ حياته، وفقا لرؤى متباينة، ويمكن أن يكون عادلا فى حال، وظالما من جهة أخرى فى الحال نفسها، ويمكن أن يكون أخلاقيا فى حال، ومتوحشا فى الحال نفسها.

أما الإنسان المؤمن حق الإيمان، فإنه لا يملك إلا أن يكون فى جميع الأحوال، على حال واحدة من القيم، والضوابط والمعايير.

وفى القرآن الكريم نجد ما يشير الى الإنسان المؤمن، والإنسان الذى لا ينتمى الى الإيمان، قال تعالى: ﴿**ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون، ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا**﴾ (الزمر: الآية ٢٩).

---

(١) المصدر السابق، ص ١٤..

(٢) المصدر السابق، ص ١١.

فالرجل الأول (انسان) تتجاذبه ولاءات شتى، ورغبات شتى، ومعايير شتى فهو له ضائع، ومضطرب وتائه.

أما الرجل الآخر (إنسان) اتجاه واضح سليم، وعلى هدى وبينات.

فالإنسان فى المعيار النورسى القرآنى، لا يمكن أن يكون نتاج لإنعكاسات المجتمع كما تذهب الى ذلك بعض المدارس النفسية.

أو هو حصيلة التفاعلات الفزيزلوجية التى تنشئ جهازه التنفسى والعقلى والعاطفى، كما تذهب الى ذلك المدرسة السلوكية.

أو أنه الانسان الذى هو ناتج اجتماعى اقتصادى، كما يذهب الفكر الماركسى.

هذا الانسان ليس هو الانسان الحقيقى، هذا الانسان يحمل معنى التاله، والعنف، والثقافة الحسية البصرية، ويحمل معنى المصالح المباشرة، والنفعية البرجماتيه.

وقد لا يخفى أن هذا الإنسان هو الذى أنتج عصر الاستعمار، وهو الذى أنتج الشيطان الماركسى، وهو الذى أنتج العبث واللا معنى فى المذهب الوجودى، وهو الذى يحمل الإنسان على التعالى والصلف والغطرسة وحب السيطرة والاستكبار فى الأرض.

والإنسان فى المعيار النورسى القرآنى، يدين بعقله فيما رأى وسمع، ويدين بوجدانه فيما طواه الغيب، مما لاتدركه الأبصار والأسماع.

يقول النورسى: (إن الإنسان بسر التوحيد صاحب كمال عظيم بين جميع المخلوقات. وهو أثمن ثمرات الكون، والطف المخلوقات وأكملها، وأسعد ذوى الحياة حتى أن جميع المزايا الإنسانية، وجميع مقاصد الإنسان العليا مرتبطة بالتوحيد، وتتحقق بسر التوحيد[1].

فالإمام النورسى – كما ترى – يؤكد على أن سجايا الإنسان، وماهيته تظهر بالتوحيد أى الإيمان بالله سبحانه وتعالى.

---

(١) الإمام النورسى، الشعاعات، ص ١٨.

واذا كانت سجايا الإنسان تظهر بالتوحيد، فإن أسعد إنسان فى فكر النورسى القرآنى هو ن لا ينسى الآخرة لأجل الدنيا، ولا يضحى باخرته للدنيا، ولا يفسد حياته الأبدية لأجل حياة دنيوية، ولا يهدر عمره بما لا يعنيه[1].

ويؤكد النورسى على ضرورة الإيمان بالآخرة لحياة الإنسان الفردية والاجتماعية. فالمنصف لا يستطيع ان ينصح لأهل القرآن بعقيدة فى الإنسان والإنسانية أصح وأصلح من عقيدتهم التى يستوحونا من القرآن الكريم.

لأن الناس استمعوا إلى المادية التاريخية، والفاشية والعقلية والرأسمالية فوجدوا ان إنسانيتهم ضائعة.

أما الإنسان فى القرآن الكريم فهو الخلفية المسئول بين جميع ما خلق الله والإنسانية من أسلافها الى أعقابها أسرة واحدة. لها نسب واحد، أفضلها من عمل حسنا، واتقى سيئا.

بقلم الدكتور أحمد عبد الرحيم السايح

(١) راجع الامام النورسى، المكتوبات، ص ٨٩ وانظر كذلك الشعاعات، ص ١٨.

الفصل الخامس

فلسفة الأخلاق

في منظور الإمام النورسي

الأخلاق: جمع خلق – بضم الخاء واللام – كعنق وأعناق، أو– بضم فسكون – كصلب، وأصلاب، ولا تكسر على غير ذلك.. بمعنى أنها ليست من الكلمات التي تكسر على صور مختلفة، ككلمة " جمل " مثلاً فإنها تجمع جمع تكسير على إجمال، وجمال، وجمل، وجمالة، وجمالات، وأجامل، وجمائل، وجامل "[1].

والخلق – بضم اللام – والخلق – بسكون اللام – في لسان العرب: السجية. يقال: خالص المؤمن، وخالق الفاجر، وفي الحديث: " ليس شيء في الميزان أثقل من حسن الخلق ".

والخلق – بضم اللام وسكونها –: هو الدين، والطبع، والسجية.

وحقيقته: أنه صورة الإنسان الباطنة. وهي نفسه، وأوصافها، ومعانيها المختصة بها، بمنزلة الخلق لصورته الظاهرة، وأوصافها، ومعانيها، ولها أوصاف حسنة وقبيحة.

والثواب والعقاب. يتعلقان بأوصاف الصورة الباطنة أكثر مما يتعلقان بأوصاف الصورة الظاهرة[2].

وفي معجم ألفاظ القرآن الكريم: أن الخلق – بضم الخاء واللام – السجية، والطبع وما يجري عليه المرء من عادة لازمة[3].

وقد تكررت الأحاديث في مدح حسن الخلق. في غير موضع، كقوله: "من أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق".

---

(١) الدكتور منصور رجب (تأملات في فلسفة الأخلاق)، ص ١٢، ط ٣، سنة ١٩٦١، القاهرة.

(٢) ابن منظور (لسان العرب) المجلد الثاني، ص ١٢٤٥، ط: دار المعارف، مصر.

(٣) مجمع اللغة العربية " معجم ألفاظ القرآن الكريم "، جـ ١، ص ٣٦١، ط: لجنة التراث للجميع، القاهرة.

وقوله: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا».

وقوله: «ان العبد ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم».

وقوله: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

وكذلك جاءت في ذم سوء الخلق أيضًا أحاديث كثيرة.

وفي حديث عائشة رضى الله عنها: " كان خلقه القرآن " أى كان متمسكًا به، وبآدابه، وأوامره، ونواهيه، وما يشتمل عليه من المكارم، والمحاسن، والألطاف.

وفي حديث عمر: من تخلق للناس بما يعلم أنه ليس من نفسه شانه الله. أى تكلف ان يظهر من خلقه خلاف ما ينطوى عليه. مثل: تصنع وتجمل. إذا أظهر الصنيع والجميل.

وتخلق بخلق كذا: استعمله من غير أن يكون مخلوقًا فى فطرته.

وقوله: تخلق مثل تجمل أى أظهر جمالاً وتصنع وتحسن، إنما تأويله الإظهار. وفلان يتخلق بغير خلقه اى يتكلفه. قال سالم بن وابصة:

يأيها المتحلي غيـر شيمته إن التخلق يأتى دونه الخلق

أراد بغير شيمته. فحذف وأوصل[1].

وإذا كان ابن منظور قد ذكر: أن الخلق - بضم اللام وسكونها - هو الدين، والطبع، والسجية. فهل هناك فرق بين مدلول الطبع، ومدلول السجية؟ أم هما من الألفاظ المترادفة؟

يرى كثير من علماء البحث والدراسة: أن هناك فرقًا بين المدلولين. وهو أن الطبع يطلق على الخلق الفطرى.

فالطبع بسكون "الباء" هو الجبلة التى خلق الإنسان عليها.

والسجية: تطلق على الخلق الفطرى والمكتسب إذا أصبح عادة، ومما يؤيد ذلكم قول حسان بن ثابت:

(١) ابن منظور (لسان العرب)، المجلد الثانى، ص ١٢٤٥، ط: دار المعارف، مصر.

سجيته تلك فيهم غير محدثة   ان الخلائق فاعلم شرها البدع

فالسجية قد تكون صحيحة، وقد تكون غير صحيحة[1].

ويقتضينا البحث اللغوى أن نعرف معنى كلمة " خلق – بفتح الخاء وسكون اللام – لنصل إلى الارتباط القائم بين الخلق – بفتح الخاء وسكون اللام – وبين الخلق – بضم الخاء واللام.

فالخلق – بفتح الخاء وسكون اللام –: التقدير[2].. يقال: خلق الأديم يخلقه خلقًا: قدره لما يريد قبل القطع، وقاسه ليقطع منه مزادة أو قربة، أو خفا.. قال زهير من قصيدة يمدح هرم بن سنان:

ولأنت تفرى ما خلقت وبعـ   ض القوم يخلق ثم لا يفرى [3]

يقول: أنت إذ قدرت أمرًا قطعته، وأمضيته، وغيرك يقدر مالا يقطعه، لأنه ليس بماضى العزم، وأنت مضاء على ما عزمت عليه.. [4]

ويقال: الخلق: التقدير المستقيم فى إبداع الشيء من غير أصل، ولا احتذاء، قال تعالى: ﴿**خلق السموات والأرض**﴾ [النحل، الآية: ٣] أى أبدعها بدلالة قوله: ﴿**بديع السموات والأرض**﴾ [البقرة، الآية: ١١٧].

ويستعمل فى إيجاد الشيء من الشيء، قال تعالى: ﴿**وخلقكم من نفس واحدة**﴾ [الزمر، الآية: ٦] وليس الخلق بمعنى الإبداع إلا لله تعالى، ولهذا قال تعالى فى الفصل بينه وبين غيره: ﴿**أفمن يخلق كمن لا يخلق**﴾ [النحل، الآية: ١٧].

وأما الذى يكون بالاستحالة فقد جعله الله لغيره فى بعض الأحوال، كعيسى عليه السلام حيث قال: ﴿**وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير**﴾ [المائدة، الآية: ١١٠]، والخلق لا يستعمل فى جميع الناس إلا على وجهين:

---

(١) الدكتور منصور رجب " تأملات فى فلسفة الأخلاق "، ص ١٣، الطبعة الثانية.

(٢) الفيروزآبادى " بصائر ذوى التمييز "، جـ ٢، ص ٥٦٦، ط: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

(٣) زهير بن أبى سلمى " الديوان " شرح ثعلب، ص ٩٤، الطبعة الأولى.

(٤) ابن منظور " لسان العرب "، الجزء الثانى، ص ١٢٤٥، ط: دار المعارف بمصر.

أحدهما: فى معنى التقدير – كما ذكرنا – من قول زهير. وثانيهما: فى الكذب نحو قوله تعالى: ﴿ **وتخلقون إفكا** ﴾ [العنكبوت، الآية: ١٧].

وكل موضع استعمل فيه الخلق فى وصف الكلام، فالمراد به الكذب. ومن هذا الوجه امتنع كثير من الناس من إطلاق لفظ الخلق على القرآن وعلى هذا قوله: ﴿ **إن هذا إلا خلق الأولين** ﴾ [الشعراء، الآية: ١٣٧]. وقوله: ﴿ **ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق** ﴾ [ص، الآية: ٧].

والخلق فى معنى المخلوق، والخُلق والخَلق فى الأصل واحد[١]، فالخلق بالضم – ذو علاقة وثيقة بمعنى الخلق – بالفتح – وذلك لأنه فى أصله مصاحب لأصل الخلقة. يوجد مع المخلوق بوجوده، ثم يأخذ فى النمو والتطور وفقًا لنمو صاحبه وتطوره.

فكل استقامة فى سلوك المخلوق وفق السنن الصحيح، تصاحبها استقامة الخلق نفسه، وكل انحراف أو فساد فى ذلك السلوك، مؤد إلى مثله فى الخلق والتصوير. وما أدق إشارة المتنبى إلى ذلك فى قوله:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدق ما يعتاده من توهم

كذلك نجد الصلة بين الخلق والخلق من حيث التقدير الغائى، فوجود الخلق فى الكائن البشرى يستهدف أصلاً تزويده بالناظم الذى يعينه على معرفة الخير والأحسن وما يقابلهما[٢].

وإذا كان الخلق – بضم الخاء واللام – والخلق – بفتح الخاء وسكون اللام – أصلهما واحد. فقد خص الخَلْق – بفتح الخاء وسكون اللام – بالهيئات، والأشكال، والصور المدركة بالبصر. وخص الخُلُق – بضم الخاء واللام – بالقوى، والسجايا المدركة بالبصيرة[٣].

---

(١) الفيروزآبادى " بصائر ذوى التمييز "، جـ٢، ص ٥٦٧، ط: المجلس الأعلى بالقاهرة.

(٢) الشيخ محمد المجذوب (الأخلاق بين الفلسفة والإسلام) ص ٣٢١، ندوة المحاضرات، مكة المكرمة، السعودية.

(٣) الفيروزآبادى " بصائر ذوى التمييز "، جـ٢، ص ٥٦٧، ط: المجلس الأعلى بالقاهرة.

قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾ [القلم، الآية: ٤]. قال ابن عباس رضى الله عنهما: "لعلى دين عظيم، لا دين أحب إلى ولا أرضى عندى منه، وهو دين الإسلام".

وفى الصحيحين أن هشام بن حكيم سأل عائشة عن خلق رسول الله (فقالت: كان خلقه القرآن[١].

يقول بديع الزمان سعيد النورسى: " أى أن محمداً (هو النموذج لما بينه القرآن الكريم من محاسن الأخلاق وهو أفضل من تمثلت فيه تلك المحاسن بل إنه خلق فطرة على تلك المحاسن "[٢].

فالأخلاق بمعنى الدين عبارة :عن نظام من العمل غايته تحقيق الحياة الخيرة الطيبة، ونمط من السلوك مع النفس، والغير، من حيث ما يجب أن يكون عليه هذا السلوك. كما أنها ليست جزءاً من الدين فحسب بل جوهره وروحه. لأن الدين فى مضمونه: عبارة عن الواجبات التى يلتزم بها الإنسان نحو الله، ونحو نفسه وغيره من المخلوقات.

والأخلاق عند القدماء: ملكة تصدر بها الأفعال عن النفس من غير تقدم روية وفكر وتكلف. فغير الراسخ من صفات النفس لا يكون خلقاً، كغضب الحكيم. وكذلك الراسخ الذى تصدر عنه الأفعال بعسر وتأمل. كالبخيل إذا حاول الكرم.

وقد يطلق لفظ الأخلاق على جميع الأفعال الصادرة من النفس محمودة كانت أو مذمومة. فتقول: فلان كريم الأخلاق، أو سيئ الأخلاق. وإذا أطلق على الأفعال المحمودة فقط دل على الأدب، لأن الأدب لا يطلق إلا على المحمود من الخصال[٣].

ويرى العلماء المعاصرون: أن الأخلاق فى أوجز تعريف هى: " قوة ذاتية تحس أثرها فى ترغيبنا بشىء، وتنفيرنا من ضده، فهى إذا طبيعية مركوزة فى فطرة الإنسان. وظيفتها إصدار الأحكام على الأعمال، والأشياء بالحسن أو القبح، والخير

---

(١) ورد فى الجامع الصغير عن مسند ابن حنبل ومسلم وابى داود.

(٢) راجع: الإمام بديع الزمان سعيد النورسى، اللمعات، ص ٩٥.

(٣) الدكتور جميل صليبا " المعجم الفلسفى "، الجزء الأول، ص ٤٩، ط: دار الكتاب اللبنانى.

أو الشر، والفضيلة أو الرذيلة، وهى من حيث كونها مصدراً واحداً خفيًا لهذه الأحكام تسمى " الضمير " ومن حيث آثارها المتعددة ومظاهرها المتكاثرة تسمى "الأخلاق"(١).

وإن الإنسان، كل إنسان، وفى كل عصر من العصور، يعيش حياة اجتماعية. والحياة الاجتماعية تقوم على التعامل والسلوك مع الآخرين، ومثل هذا التعاون أوجب وجود قواعد وأنماط للسلوك ترضى عنها المجتمعات وتقاليدها وأصولها الاعتقادية أو لا ترضى عنها.

وقد احتاج هذا التعامل إلى التمييز بين الحسن والسيئ، وبين الفاسد والصالح، وبين النافع والضار، كما احتاج إلى إصدار الأحكام على تصرفات الإنسان بالخير والشر، والحسن والسوء، بالصلاح والفساد.

وموضوع الخير والشر، والحسن والقبح، والسلوك الخطأ والصواب، شغل أذهان جميع المفكرين، والفلاسفة، والمصلحين، فى مختلف أدوار الإنسانية، فقد أراد الإنسان منذ وجد أن يقوم سلوكه، ويحكم عليه حكمًا أخلاقيًا، وسواء كانت نتيجة التقويم مدحًا أو ثوابًا، ذمًا أو عقابًا، فإن عملية التقويم تبدو ضرورية لكل فعل بشرى مهما كانت حقيقته(٢).

والدين الإسلامى قد فصل الكلام فى المسائل الخلقية الرئيسية التى تناولها القدامى والمحدثون، من الأصل الخلقى للسلوك الإنسانى والبواعث الخلقية والحكم الخلقى والغاية من الفعل الخلقى ونسبية الأخلاق وإطلاقها (٣).

١- فاصل الشعور الخلقى، أو بمعنى آخر، كيف نعرف أن عملاً من الأعمال خلقى، وآخر غير خلقى. هناك رأيان:

---

(١) فضيلة الشيخ محمد المجذوب " الأخلاق بين الفلسفة والإسلام "، ص ٣٢١، ندوة المحاضرات، مكة المكرمة.

(٢) الدكتور عبد الكريم عثمان " معالم الثقافة الإسلامية "، ص ٢٨٢، الطبعة الثالثة بالسعودية.

(٣) الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى " التربية الإسلامية "، ص ١٠٠، ط: عيسى البابى الحلبى، مصر، والدكتور عبد الكريم عثمان " معالم الثقافة الإسلامية "، ص ٢٨٥، ط: ٣، السعودية.

أحدهما يقول: بأن مصدر هذا الشعور غريزة فى الإنسان، سابقة على تجربة تبدأ متكاملة وترسخها التربية، ولكنها ليست نتيجة مباشرة لها.

والآخر يرى: بأن معرفة الخير والشر تعتمد على التجربة، وتنمو بتقدم الزمان، ورقى الفكر.

والذى ينسجم مع نظرة الإسلام الخلقية، أن هذا الشعور فطرى فطره الله عليه.

والشيخ بديع الزمان سعيد النورسى ينطلق من أن الشعور الخلقى فطرى فى الإنسان. ولهذا يقول: "إن" "أنا" لا يحمل فى ذاته معنى. بل يدل على معنى فى غيره. كالمرآة العاكسة، والوحدة القاسية، وآلة الانكشاف، والمعنى الحرفى.

فهو شعرة حساسة من حبل وجود الإنسان الجسيم. وهو خيط رفيع من نسيج ثوب " ماهية البشر ". وهو حرف " ألف " فى كتاب شخصية بنى آدم. بحيث أن ذلك الحرف له وجهان:

١ . وجه متوجه إلى الخير والوجود. فهو فى هذا الوجه يتلقى الفيض ويقبله فحسب. أى يقبل الإفاضة عليه فقط. إذ هو عاجز عن إيجاد شىء فى هذا الوجه. أى ليس فاعلاً فيه.

٢ . والوجه الآخر. متوجه إلى الشر، ويفضى إلى العدم. فهو هذا الوجه فاعل، وصاحب فعل.

والذى يعرف ماهية " أنا " ويعمل مقتضاه. يدخل ضمن بشارة قوله تعالى: ﴿ **قد أفلح من زكاها** ﴾ [الشمس، الآية: ٩] ويكون قد أدى الأمانة. وحين يؤدى" أنا " وظيفته يرقى الإنسان إلى مقام أحسن تقويم. ولكن إذا نسى "أنا" حكمة خالقه، ونظر إلى نفسه بالمعنى الإسمى تاركًا وظيفته الفطرية. فقد الأمانة ودخل ضمن النذير الإلهى: ﴿ **وقد خاب من دساها** ﴾[1]. قال تعالى: ﴿ **ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها** ﴾ [الشمس، الآية: ٧-١٠].

(١) راجع الإمام النورسى، الكلمات. الكلمة الثلاثون، ص ٦٣٧، ٦٣٨ بتصرف.

وهذا الشعور يحمل الإنسان على حب بعض الصفات، وكراهة أخرى.. وهو وإن كان متفاوتاً وعلى أقدار متنوعة فى مختلف أنواع البشر، إلا أن الشعور العام متفاوت وعلى أقدار متنوعة فى مختلف أنواع البشر.

إلا أن الشعور العام يقطع النظر عن الأفراد، لا يزال يحكم على بعض السجايا الخلقية بالحسن، وعلى بعضها بالقبح فى كل زمان(١).

٢- والباعث الباطنى النفسى الذى يحمل على إطاعة ما يمليه الشعور الأخلاقى، والذى يدفع إلى القيام بأنواع من السلوك دون أخرى، لاشك أن هذا الباعث يتعلق بالغايات والأغراض التى يهدف إليها الإنسان.

فالإنسان هو الكائن الوحيد الذى يقوم بأعمال اختيارية، والمفروض أنه يفكر فى الغرض من عمله قبل أن يشرع فيه، ثم يفتش عن الوسيلة المناسبة لتحقيق هذا الغرض وتختلف الأغراض عند الناس باختلاف تكوينهم العقدى والفكرى، كما تختلف حسب أعمالهم وظروفهم.

٣- ويتعلق بالباعث معرفة الأهداف أو النتائج الأخيرة التى يحاول الإنسان الوصول إليها بأعماله الأخلاقية.. إن هذه الأهداف فى فكر الإمام النورسى تشكل محوراً تدور حوله الأغراض القريبة، وتتلون.

فإذا كان هدف الإنسان فى حياته تحقيق مجده الشخصى، دارت أغراضه جميعاً حول هذا الهدف، واصطبغ سلوكه به، فهو لا ينظر إلى الحوادث وبالتالى لا يكيف موقفه إلا بحسبها. كذلك الذى يهدف إلى تحقيق مثل أعلى كإرضاء الله تعالى، وتحقيق الخير العام، فإنه لا ينظر إلى الأمور إلا بهذا المنظار. ومن هنا كان إلحاح الإسلام على الأهداف السامية التى تربط سلوك الإنسان بهدف أعلى يتسامى إليه، ويعمل جاهداً لتحقيقه(٢).

والمتأمل فى الدراسات الإسلامية. يجد أن العلماء المسلمين لم يقفوا عند

---

(١) الدكتور عبد الكريم عثمان " معالم الثقافة الإسلامية "، ص ٢٨٣، السعودية، الطبعة الثالثة.
(٢) انظر: الإمام النورسى، الكلمات. الكلمة الحادية عشر، ص ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩.

حصائل الألفاظ، والمصطلحات. بل عاشوا حياة العلم ذاتها، وبذلوا كل الاهتمام باللباب دون القشور، واشتغلوا بالجوهر دون العرض، وزكوا أنفسهم بالمحمود الذى يزداد حمداً كلما ذكا ونما.

والفضيلة التى اهتم بها المسلمون مشتقة من الفضل، والفضل ضد النقص والفضيلة الدرجة الرفيعة من الفضل. ومعنى الفضل الزيادة على الحاجة أو الإحسان ابتداءً بلا علة. وفضيلة الشىء مزينة أو وظيفته التى قصدت منه، أو كماله الخاص به، ويقال فضيلة السيف إحكام القطع.

والفضيلة التى عنى بها الإمام بديع الزمان سعيد النورسى فى علم الأخلاق هى الاستعداد الدائم لسلوك طريق الخير والفضيلة أو مطابقة الأفعال الإرادية للقانون الخلقى، أو مجموع قواعد السلوك المعترف بقيمتها.

فالفضيلة تعود الإرادة تحقيق الخير واجتناب الشر، فى كل ما يصدر عنها، من فعل أو قول، أو اعتقاد.. ولذلك كانت ملكة مقدرة لكل فعل هو خير من جهة ذلك التقدير، أو يظن به أنه خير. أعنى الحافظة لهذا التقدير، والفاعلة له. ولهذا كانت موجدة لكل فعل به نحو غاية ما جليل القدر، عظيم الشان فى حصول تلك الغاية عنه[1].

ومن هذا يتضح لكل مفكر. ان الفضيلة لا تتحقق بفعل الخير مرة أو بصدور الخير عن الإرادة فى وقت دون وقت.. ولكى يكون الإنسان متصفاً بالفضيلة لابد أن يكون متعوداً على فعلها،وأن تصدر عنه الفضيلة صدوراً مستمراً، فلا يكفى فى وصف الإنسان بالصدق أن يصدق فى موطن ويكذب فى آخر.. بل لابد أن يكون صادقًا فى المواطن كلها. ومثل هذا يقال فى كل فضيلة أو فى الفضائل جملة.

ويرى العلماء: أن الفضيلة لا تتحقق إلا بالعلم، والإرادة، والثبات:

١ - **أما العلم**: فلأن العمل لا يكون فاضلاً إلا إذا كان مسبوقًا بالعلم بفضيلته

(١) انظر الإمام بديع الزمان سعيد النورسى، الكلمات. الكلمة الحادية عشر، ص ١٣٦-١٣٧.

ومن ثم يجب على المرء أن يعلم أصول المعارف والمعاملات والتأديبات. كما يجب العلم بالرذائل والشرور الضارة بالإنسان حتى يتسنى له بذلك معرفة نفسه، وتطهيرها من التخلي عن الرذائل قبل التحلي بالفضائل[1].

٢ - وأما الإرادة: فلا يكون الإنسان فاضلاً إلا إذا كان مريداً مختاراً لما يتصف به من الفضائل. ومن هنا فالمكره والمجنون لا توصف أعمالهما بالفضيلة، فالإرادة شرط الفضيلة بل هي أساس المسئولية والجزاء.. ولذلك يقول ابن مسكويه: الخيرات هي الأمور التي تحصل للإنسان بإرادته وسعيه في الأمور التي لها أوجد الإنسان، ومن أجلها خلق. والشرور هي الأمور التي تصرفه عن هذه الخيرات بإرادته وسعيه كله وانصرافه.

٣ - وأما الثبات: فبالإضافة إلى العلم بالفضيلة والإرادة لها: لابد من الثبات عليها ودوامها لأنها بذلك تصبح عادة وسجية وتربى في النفس الإرادة القويمة نحو الفضائل والإقبال عليها والتمكن منها. ومن ثم فصدور الفضيلة من الإنسان بغير ثبات عليها لا يجعله من الفضلاء.

وبالعلم والإرادة والثبات تتحقق الفضيلة الكاملة للإنسان في فكر الإمام النورسي فلا تنال منه الأحداث ولا يفزع من نوائب الدهر، ولا يرضى إلا بإظهار الحكمة إلى أهلها.

ومن شرط الفضيلة أن تتم في الحياة الاجتماعية، لأن من ترك مخالطة الناس، وتفرد بالأمر دونهم لا تحصل له الفضيلة، ولا معنى للتواضع، والصدق، والكرم، والإخلاص، وإنكار الذات، وغيرها من الفضائل إلا بالنسبة إلى رجل يعيش مع الناس ويشاركهم في أحوالهم.

ولذا يقول العلماء: إن الفضائل تختلف باختلاف طبقات المجتمع. فإذا كانت العفة فضيلة العمال، والشجاعة فضيلة الجنود، والحكمة فضيلة الحكام. فإن المجتمع الفاضل هو المجتمع العادل الذي تتحقق فيه جميع الفضائل الإنسانية في وزن واحد من الإنسان.

---

(١) انظر الإمام النورسي، صيقل الإسلام، ص ٤٩٥، ٥٠٢، ٥٠٣.

ومن شروط الفضيلة أيضاً: قدرة الفاعل على التمييز بين الفضيلة والرذيلة، أو بين الخير والشر، فالذى يعمل الخير، ولا يدرى أنه خير، لا يقال عنه إنه فاضل، ولا يوصف فعله بأنه فضيلة. ولكى يُعد العمل فضيلة، والعامل فاضلاً. لابد أن تتجه نيته وقصده إلى الفضيلة.. والمرء لا يوصف بفضيلة ما لأنه فعلها مرة أو عدة مرات بل لابد أن يتعود على فعلها، وأن يستمر على التمسك بها دائماً.

ولكى يوصف المرء بفضيلة العدل. لا يكفى أن يكون عادلاً مرة أو مرات بل لابد أن يكون عادلاً على الدوام.

والفضائل كثيرة ومتنوعة. فالبر، والعدل العام، والشجاعة، والمروءة، والعفة، والرحمة، والحلم، والسخاء، والحكمة، والصدق، والصبر. كلها فضائل وهذه الفضائل وإن كانت مظاهر لحب الخير، ومقت الشر إلا أنها مختلفة فمنها ما هى فضائل فى ذات فقط، ومنها ما هى فضائل من جهة أنها تُفعل فى أناس آخرين.

وهذه التى تفعل فى أناس آخرين، تكون أعظم عند قوم منها عند آخرين، وفى حال دون حال.. مثال ذلك: أن لفضيلة الشجاعة آثر فى وقت الحرب منها فى وقت السلم.

وأما فضيلة العدل فمؤثرة فى السلم والحرب جميعاً، وفضيلة السخاء والمروءة عند المحاويج أثر منها عند المحاويج - المحاويج أحوج وزان أكرم من الحاجة فهو محوج وقياس جمعه بالواو والنون لأنه صفة عاقل والناس يقولون فى الجمع محاويج مثل مقاطير ومفاليس وبعضهم ينكره ويقول غير مسموع - وإنما تنفصل فضيلة المروءة من السخاء.. بالأقل والأكثر لأن فعل كليهما هو المال. لكن المروءة هى فعل أكثر من فعل السخاء.

فأما البر فهو فضيلة عادلة يعطى الفاضل بها لكل امرئ ما يستحق، وذلك بقدر ما تأمر به السنة، والجور هو الخلق الذى يأخذ به المرء الأشياء الغريبة التى ليس له أن يأخذها، وأما الشجاعة ففضيلة يكون المرء بها فعالاً للأفعال الصالحة النافعة فى الجهاد وعلى حسب ما تأمر به المبادئ حتى يكون الفعل خادماً للتعاليم التى توجهه.

فالفضائل الشخصية هى الفضائل التى تنظم حياة الفرد، وتجعل قواه وملكاته فى حالة تعادل وتوازن.

وأما الفضائل الاجتماعية. فهى الفضائل التى تجعل المرء فى حالة وفاق مع غيره من الناس، ومما يلحظ أن كلاً من الفضائل الشخصية، والفضائل الاجتماعية لها علاقة وثيقة بالأخرى، فبدون الفضائل الشخصية لا يمكن تحقيق الخير للمجتمع، وبدون الفضائل الاجتماعية تلحق الأضرار والمفاسد بالأفراد.

ويجدر بنا ونحن نتحدث عن الفضيلة والفضائل .أن نذكر أن الباحثين وصلوا إلى أن مراتب الصفات فى الجانب الخلقى ثلاث:

المرتبة الأولى: مرتبة التعامل المألوف، الذى يجرى عليه كافة الناس، حين لا يكون هناك سبب من أسباب المجاملة والمكارمة، ولا سبب من أسباب المنازعة والمخاصمة. والشأن فيه أن يقع فى المستوى الطبيعى فلا يعلو عنه ولا يهبط.

وإن شئت بعبارة أخرى فقل: هو التعادل المحض، والتوازن الصرف، فهذا يبيعك سلعة وأنت تشتريها فلا فضل لك عليه ولا فضل له عليك، لأنك حققت مصلحتك بالأخذ، وهو حقق مصلحته بالإعطاء. ثم ما دمت قد أخذت منه حقك كاملاً، وأعطيته حقه كاملاً، فليس أحد منكما قد أخل بمستوى التعادل والتوازن.

وإذا أردنا أن نصف هذه المرتبة الخلقية فى المجتمع فإننا نصفها بأنها " هيكل التعامل " تشبيهًا لها بالهيكل الذى يقوم البناء، وتأتى من بعده الإضافات والمكملات وهى لا تسمى فضيلة ولا رذيلة. ومع أنها هى الحد الاجتماعى الذى يقاس عليه التعامل والذى هو الشأن الغالب فى أى مجتمع فإنها لا تكفى الناس ولا يستقيم عليها شأنهم.

المرتبة الثانية: مرتبة التعامل الفاضل الذى يقوم على أساس أن يعتقد كل إنسان أن واجبه يقتضيه الفضل أى الزيادة فهو لا يقيس علاقاته مع الناس بمقدار ما يفيد منهم وما يفيدهم قياسًا صارمًا لا هوادة فيه، بل ينبنى دائمًا على أن يتفضل ويتكرم ثم لا يعتبر تفضله وتكرمه فضلاً له وكرامة. وإنما يعتبره واجبًا. وبهذا

تسرى فى المجتمع روح السماحة واليسر والمحبة ويرتبط الناس برابطة الإحسان الذى هو فوق العدل وينبعث فيهم الأمن ولون من النشاط المثمر البناء. وهذا ما عناه الإمام بديع الزمان سعيد النورسى من اهتمامه بالفضائل العملية[١].

المرتبة الثالثة: مرتبة التعامل النازل، وأساسها الأنانية البغيضة، وأن يشعر الأفراد بأنهم فى معترك قوامه: القوة، والخديعة، والتحايل على استلاب ما يمكن استلابه من الآخرين، وأن يؤدى الإنسان أدنى الأموال، أو الجهود ليحصل على أقصى ما يمكنه من الميزات، وأسباب التفوق. ومن نافلة القول: أن مجتمعًا تكون درجته الخلقية هى هذه الدرجة لا يمكن أن يكون مجتمعًا سعيدًا.

وهذه المراتب الثلاث إنما هى منازل طبيعية، وصور واقعية عقلية معًا، لذلك لا يتبدل الحكم عليها فى زمن من الأزمان، ولا يمكن أن ينقلب أفضلها فيصبح أرذلها،ولا أدناها فيصبح أعلاها. والعقول تقرر ذلك فى آخر الزمان. كما تقرر فى أول الزمان.

ولعل من أشد البلايا على الأخلاق ما نراه من داء التقليد الذى منشؤه ضعف النفوس واستهانتها بالقيم، والفضيلة، والدين. وهى بلايا خلقية تبتلى بها الأمم الضعيفة التى أتلف الغزو الفكرى فيها روح الصلابة والمقاومة فهى تسرع إلى تقليد الأقوياء فى رذائلهم دون أن تلتمس الطرق إلى معرفة فضائلهم ولو تمسك الناس بعرى الأخلاق وعرفوا لأنفسهم قيمتها لكانوا بنجوة من هذا السقوط المزرى[٢].

ونحن نحمد الله عز وجل فقد بقى للأمة الإسلامية على الأبد – مع تباعد أقطارها واختلاف أحوالها، وتفرق آمالها – ديوان من الفضائل السامية، وهذا الديوان ثابت القاعدة، شاهق البناء وهو الذى لم يزل يشدها إلى طباعها من الاستعداد والتأهب.

---

(١) انظر الإمام بديع الزمان سعيد النورسى، الكلمات، ص ١٤٥.

(٢) راجع الدكتور أحمد السايح، مواجهة الغزو الفكرى ضرورة إنسانية ص ١٨٠ ط: مركز الكتاب للنشر، القاهرة.

فقد تفتحت فى ظل الإسلام الأخلاق فتسامت بفضائل النفس، وعائشة رضى الله عنها. تنبه إلى ذلك فى إجابتها حين سئلت عن خلق النبى ﷺ كيف كان؟

قالت: "كان خلقه القرآن" وهذا يمدنا بعطاء خلق النفس الناطقة التى يمتاز بها القرآن لأنه حكم وتنظيم، ورأى وحكمة، ومنهاج وتدبير.

وإذا لم تُرسم لهذه النفس الإنسانية فضائلها المميزة فإن الإنسان يستوى عند الغضب بالنمر الجائع، وعند الزهد بالسبع المريض، وما أجدرنا أن نتمسك بالفضائل التى دعا إليها الإسلام ونتخلق بأخلاق القرآن الكريم، ويكون سلوكنا مثلاً يحتذى به فى عالم الفضائل حتى تتربى النفوس وتزكو، ويرتفع شأن الفرد والجماعة والأمة، وتقوى عرى التآخى والتعاون بين بنى الإنسان.

٤ - والمقياس الذى نقيس به أعمالنا لنحكم عليها بالصلاح أو الفساد بالخير أو الشر. أو بمعنى آخر،، القانون الخلقى وما له من قوة ملزمة تحمل الإرادة على العمل بموجبه.. قال العقليون: إن هذا القانون فى أنفسنا، فالضمير ذاتى ينبع من داخل الإنسان، فهو فطرى لا مكتسب ولا متطور.

وقال التطوريون، والاجتماعيون: إن هذا القانون يتكون من مصادر خارجية منها المعتقدات الدينية.. ومنها ما تواضع عليه الناس من أحكام. ثم أجبروا عليها بالمعاملة، فصارت أعرافًا وعادات، فالخوف من الله، والخوف من المجتمع، هو الذى يشكل القانون الخلقى الذى نزن به أمورنا.

والإمام النورسى ينطلق من القرآن الكريم. فيجعل مقياس كل حكم وميزان كل سلوك. هو القواعد الخلقية التى جاء بها الرسول عليه الصلاة والسلام. فقد أرسله الله - كما بعث كل رسول - وأنزل معه الكتاب لهداية الإنسان، وإرشاده إلى طريق الخير والسعادة[1].

٥ - نسبية الأخلاق وإطلاقها، وقد اختلف الناس وما يزالون مختلفين فيما هوة الحسن والسيئ، وفيما إذا كان بالإمكان أن نطلق أحكامًا عامة فى الحسن والقبح، فى الخير والشر.

(١) راجع الإمام النورسى، اللمعات، ص ٦٥.

وبعبارة أخرى: هل نستطيع أن نقول بخير مطلق، أو شر مطلق، يتدرج حكمهما على جميع الأزمان والظروف.

أم أننا أمام أحكام نسبية، بمعنى أن ما هو شر فى مكان، أو زمان. قد يكون خيراً فى مكان أو زمان آخرين، والعكس.

لقد وجد بين المفكرين القدماء من قال بالقيم العامة المطلقة، ووجد منهم من قال بعكس ذلك، ولعل أفلاطون من فلاسفة اليونان، من أوائل الذين قالوا بالخير والشر المطلقين.

وقد أدلى المفكرون المسلمون بدلوهم فى هذا الموضوع، واختلفوا فيه كما اختلف غيرهم.. إلا أنهم تميزوا عن الآخرين فى الأساس الذى قامت عليه نظرتهم له.. فقد جعلوا هذا الأساس متصلاً بالعناية الإلهية من خلال صلتها بالعالم وبالمكلفين.

أما فى العصر الحديث فقد استمر النقاش حول هذا الموضوع، وأصبح يدرس من خلال نظرية القيم التى يتناول الأخلاقيون من خلالها عامة قيم الأشياء من خير أو شر، وجمال أو قبح.

والإمام النورسى يرى أن: النظرة الإسلامية إلى نسبية الأخلاق وإطلاقها، تؤكد إطلاق الأخلاق وعموميتها، فالصدق، والأمانة، والعدالة، والوفاء بالعهد مثلاً كل ذلك مما عدته الإنسانية من الصفات الخلقية الجديرة بالثناء والمدح.

ولم يأت على الإنسانية وقت استحسنت فيه الكذب، والظلم، والخيانة.. وكذلك أمر المجتمعات.. فما عرفت الإنسانية مجتمعاً يستحق الاحترام إلا المجتمع الذى يتمتع بحسن الإرادة، وجودة النظام، والتناصح، والتكافل، والعدالة، ولا هى نظرت بعين الإعجاب إلى مجتمع خيمت عليه أخلاق الفوضى، والتباغض، والتنافر، والتحاسد، والتفاضل بين أفراد البشر.. [1].

يقول النورسى – رحمه الله –: " إن الفضائل والأخلاق. وكذا الحسن والخير.

---

(١) انظر الإمام النورسى، صيقل الإسلام، ص ٥٠٦، ٥٠٩.

أغلبها أمور نسبية. تتغير كلما عبرت من نوع إلى آخر وتتباين كلما نزلت من صنف إلى صنف، وتختلف كلما بدلت من مكان بمكان، وتتبدل باختلاف الجهات، وتتفاوت ماهيتها كلما علت من الفرد إلى الجماعة، ومن الشخص إلى الأمة "(١).

والأخلاق نظرية وعملية ولم ينص الإسلام على أخلاق نظرية منفصلة يتبعها السلوك العملي ويستمد قوته من تلك النظريات المقررة.. وإنما رسم للناس قواعد العمل الصالح الذى ينبغى أن يسيروا عليه.. والقرآن زاخر بهذه القواعد العملية التى تتناول أغلب أحوال الناس فى معاشهم، وفى صلاتهم بغيرهم من الناس، ومعاملتهم بعضهم بعضاً (٢).

والإمام بديع الزمان سعيد النورسى. حينما عالج قضايا الأخلاق فى كليات رسائل النور. انطلق من الارتباط القائم بين الأخلاق النظرية والأخلاق العملية. ولذلك يقول: " وظيفة الإنسان الحقة. هى العبودية واجتناب الكبائر "، ويقول أيضًا: " المسلم التقى هو الذى يجاهد نفسه والشيطان خشية الوقوع فى الخطأ والذنوب "(٣).

ويشير النورسى إلى أن نيل الفضائل العملية هو الغاية من حياة الإنسان(٤).

والأخلاق من الأمور المعيارية التى تبسط للناس مثلاً عليا ينبغى اتباعها وتختلف عما يكون عليه الإنسان فى الواقع(٥).

ولا يخفى أننا نفهم من رؤية الإمام النورسى: أن النظام الخلقى فى الإسلام ينبثق من تصوره للكون والوجود، ويعتمد هذا التصور على أن لهذا الكون إلهاً، وأنه لا إله غيره. خلق الكون وأوجده، وهذا الكون يسير بانتظام مذعناً لأمر الله

---

(١) انظر الإمام النورسى، صيقل الإسلام. السنوحات، ص ٣٣٣.

(٢) المصدر السابق.

(٣) راجع النورسى، الكلمات، ص ١٨-٢٠.

(٤) المصدر السابق، ص ١٤٥.

(٥) المصدر السابق.

ومشيئته، والإنسان جزء من هذا الكون، خلقه الله بطبيعة متميزة لعبادته والانقياد لأمره.

ولا معنى لحياته إلا أن تكون كلها خالصة العبودية لله. فالغاية البعيدة من مجهودات الإنسان ومساعيه فى الدنيا هى ابتغاء وجه الله تعالى ونيل رضاه. وهذا هو القياس الذى يقاس به فى الإسلام كل عمل من أعمال الإنسان، ويحكم عليه الخير أو الشر فى مقابل مقاييس اللذة أو المصلحة أو السعادة أو غيرها.

يقول الإمام النورسى: "إن الذى يتحدث عن القدر والجزء الاختيارى إن كان ذا إيمان كامل مطمئن القلب. فإنه يفوض أمر الكائنات كلها، ونفسه كذلك إلى الله سبحانه وتعالى، ويعتقد أن الأمور تجرى تحت تصرفه سبحانه وتدبيره[1].

وقد أنعم الإسلام على الإنسان بهذا القياس، وزوده بمرجع دائم لمعرفة الحسن أو القبح الخلقى.. وهذا المرجع ثابت دائم لا يحصر علمنا بالأخلاق على العقل، أو التجارب، أو العلوم الإنسانية، حتى تتغير أحكامنا باستمرار.. وليس هذا المرجع إلا كتاب الله وسنة رسوله، ففيهما خطة كاملة لكل شئون الحياة، وانطباق متسع لأصول الأخلاق على شئون الحياة المختلفة .

ومن يتأمل كليات رسائل النور للإمام النورسى، ويحاول أن ينعم النظر فيما يتصل بالأخلاق فى هذه الكليات. يجد أن الإمام النورسى ينطلق من رؤية قرآنية تقوم: على: أن نظام الأخلاق فى الإسلام يقوم على خصائص ثلاث، هى:

١ – أن الإسلام يجعل ابتغاء وجه الله ونيل رضاه، غاية منشودة فى الحياة الإنسانية، ويجعل بذلك مقياسًا ساميًا للأخلاق، لا يقوم معه فى وجه الارتقاء الخلقى شيء يفوقه عن الارتقاء والتقدم، ويهيئ للأخلاق من خشية الله تعالى قوة تحث الإنسان على القيام من غير أن تكون فيها يد لعامل من العوامل الخارجية[2].

٢ – أنه لا يوجد بهذا التحريض والترغيب أخلاقًا مبتكرة، ولا يحاول حط

---

(١) راجع الإمام النورسى، الكلمات. الكلمة السادسة والعشرون، ص ٥٤٤.

(٢) راجع: الإمام النورسى، اللمعات، اللمعة الحادية والعشرون، ص ٢٤٢.

بعض الأخلاق الإنسانية المعروفة "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" ولكنه يريد أن يجعل الأخلاق مسيطرة في جميع نواحي الحياة، ومهيمنة عليها[1].

٣ – إنه يطالب الناس، ويلتمس منهم إقامة نظام للحياة، ينهض بنيانه على المعروف، ولا يشوبه شيء من المنكر، ويدعوهم إلى أن يقيموا الخيرات في كل زمان ومكان، وأن يشيعوا إقامة هذه الخيرات في العالم. وهذه هي مهمة المجتمع الإسلامي والأمة الإسلامية[2].

إن القيم الإسلامية في منطلقات الإمام النورسي تحقق وظائف عدة، ففيما يتعلق بالفرد، تحاول هذه القيم رفعه فوق مرتبته الراهنة، وتعمل على العلوية عن المستوى الحيواني الذي يقتصر على الماديات من طعام وشراب، إلى المستوى اللائق بكرامة الإنسان وتقدمه ورقيه.

وفيما يتعلق بالمجتمع فإنها تحقق أعظم عامل للربط بين أفراده والسمو بالجماعة من المرتبة المادية الحيوانية إلى مرتبة الحضارة والمدنية، وتقيم الصلات بين الأفراد والهيئات على أسس نبيلة كريمة تعتمد على الإيثار والتفاني في سبيل خير المجموع، بأكثر مما تعتمد على الأثرة والمنفعة الخاصة[3].

يقول النورسي "علينا أن نحي الصدق الذي هو حجر الزاوية في حياتنا الاجتماعية في نفوسنا، ونداوي به أمراضنا المعنوية. أجل... إن الصدق هو عقدة الحياة في حياة الإسلام الاجتماعية".

ويقول النورسي أيضًا: " صفة المحبة هي ضمان الحياة الاجتماعية البشرية والتي تدفع إلى تحقق السعادة "[4].

والفلسفة الخلقية في فكر الإمام بديع الزمان سعيد النورسي. هي جوهر العقيدة الدينية، والدين قد يصبح فلسفة، إذا حاول العقل الإنساني، أن يبرر ويحلل

---

(١) راجع الإمام النورسي، اللمعات، اللمعة الحادية عشر، ص ٩٥.

(٢) راجع الإمام النورسي، صيقل الإسلام، المقدمة التاسعة، ص ٥٢.

(٣) الدكتور عبد الكريم عثمان "معالم الثقافة الإسلامية"، ص ٢٨٩، الطبعة الثالثة الإسلامية.

(٤) انظر الإمام النورسي، صيقل الإسلام، ص ٥٠٦–٥٠٩.

مبادئه من الوجهة النظرية العقلية، فليست الفلسفة إلا التعليل العقلى للموجود. فإذا علل الموجود من مبادئ الدين، فقد دخلت هذه المبادئ فى نطاق العمل الفلسفى.

والدين إذا أصبح فلسفة أرضى رجال العقل والفلسفة.. ومع أنه يمكن أن يصبح فلسفة، فإنه لا يتحول إلى فلسفة. كتلك التى أنشأها الإنسان بصنعته العقلية بادئ بذى بدء.. بل تبقى لفلسفة الدين خصائص الدين أو طابعه العام.

وجاء فى القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾ [القلم، آية: ٤]. فالأخلاق والسلوك الحسن، جوهر العقيدة وروحها.

ويشير القرآن إلى أن النبى نفسه يمثل المثل الأعلى، والنموذج الأرفع فى الأخلاق، وإذا كان النبى عليه السلام قد عرف بالأمانة، والصدق، والرأفة، والسماحة، والعفة، والصبر، والحزم، والحلم، والعفو، والإحسان، والمحاسبة. لهذه كلها جماع الصفات المحمدية[١] وهى أيضاً كما يقول العقاد: " مثال الكمال الذى يطلبه لنفسه من يزع نفسه، ويختار لها أحسن الخيرة "[٢].

فالإسلام وحدة متماسكة مترابطة لا تتجزأ. هو عقيدة، وعبادة، ومعاملات، وحقوق وأخلاق، وروح، وجسد. يعمل المسلم لدينه ودنياه معاً، والتناسق ظاهرة عجيبة فى الإسلام فى مجموعه كله، عقائده وتشريعاته وأخلاقه[٣].

ويلمس هذا التناسق من تأمل فيه، وألقى عليه فى مجموعة نظرة عامة بين عقائده وعباداته، وبين ما يشرعه من المعاملات والحقوق، ويحمده من الأخلاق والآداب.. هناك وحدة تامة أو بنية واحدة، يجمعها ما يجمع البنية الحية من تجاوب الوظائف وتناسق الجوارح والأعضاء.

ويروع الباحث فى الإسلام ذلك التناسق بين عقائده وأحكامه، أو بين عقائده وأخلاقه. ولعل هذا التناسق أظهر ما يكون بين الأخلاق المتعددة التى حمدها

---

(١) الدكتور عبد الفتاح الديدى " الفلسفة الاجتماعية عند العقاد "، ص ١١٧، ط: الانجلو.
(٢) العقاد، المجموعة الكاملة، م ٧، ص ٢٨.
(٣) الأستاذ حمد بن نايف الشمرى، " العقاد وتراثه الإسلامى "، ص ٢٨٦، ط: التقدم.

الدين من المسلم، وهى متفرقات تجمعها وحدة لا تستوعبها إلا وحدتها الإسلامية، فهى فى جملة وصفها: "أخلاق إسلامية وكفى".

ويناقش عباس العقاد فى كتابه "الفلسفة القرآنية" آراء القائلين بتعليل نشأة الأخلاق رأيا رأيًا.. يقول العقاد: " قيل فى تعليل نشأة الأخلاق: انها مصلحة اجتماعية تتمثل فى عادات الأفراد لتيسير العلاقات بينهم، وهم متعاونون فى جماعة واحدة.

فلو انطلق كل فرد فى إرضاء نزعاته، وتحقيق منافعه دون غيره. لتعذر قيام الجماعة، وانتهى الأمر بفوات المصلحة الفردية نفسها، لتعرض كل فرد لعدوان الآخرين وعجزه عن تدبير منافعه كلها.

وهى تتوقف على أعمال كثيرة موزعة بين الأفراد الكثيرين على اختلاف الصناعات.. ومن هنا وجب على كل فرد أن ينزل عن بعض نفعه، ويعدل عن بعض هواه لكى يضمن بهذا النزول المختار أكبر قسط مستطاع من الحرية والأمان. وليس من اللازم أن يتم هذا النزول المختار بالتفاهم والتشاور، أو عن علم سابق بالنتيجة التى يصل إليها المجتمع بعد هذا النزول الإجماعى الذى يشترك فيه جميع الأفراد، ولكنه يتم اضطرارًا بعد المحاولة والتجربة وتصحيح الأخطاء بالعبرة والعقاب.

وأيا كان مذهب القائلين فى تعليل الأخلاق، فمما لا مشاحة عليه. أن الأخلاق مصلحة اجتماعية، وأن الجماعات تختلف بينها فى العادات وأصول العرف على حسب اختلافها فى أحوال الاجتماع[1].

ورؤية العقاد لا تقف عند هذا الحد من البيان والتقرير، بل تأخذ بك إلى قمة التفكير، فتقول: " لكنك خليق أن تسأل " إذا تعادل خلقان فى النفع الاجتماعى ألا يوجد هناك مقياس نرجع إليه فى تفضيل أحدهما على الآخر؟

أليس لحاسة الجمال أو لنزوع الإنسان إلى الكمال شأن فى تفضيل بعض

---

(١) العقاد، الفلسفة القرآنية، ص ٣٠، ط: دار الكتاب اللبنانى،.

الأخلاق على بعض، أو فى تمييز بعضها بالاستحسان والإيثار وبعضها بالمقت والاستنكار؟

إن الوجوه كلها نافعة، بما فيها من الحواس التى تؤدى وظائف الحياة. ولكننا نرى وجهًا واحدًا من بينها يعلو بروعة الحسن على ألوف الوجوه ويفدى بألوف الوجوه، ولعله من جانب المنفعة التى تستفيدها وظائف الجسم أقل من تلك الوجوه فى بعض المزايا، وأحوج منها إلى العلاج والتصحيح.

فهل يدخل اعتبار الجمال إلى جانب المنفعة فى وصف الجسد الإنسانى، ولا يحسب له اعتبار فى خصائص النفس أو خصائص المزاج؟

وهل نعتبر كل إعجاب بخلق من الأخلاق ميزانًا حسابيًا للمنفعة والخسارة، وتقديرًا تجاريا لصفقة من الصفقات؟

وهل يروعنا كل خلق بمقدار ما ينفعنا؟ سواء نظرنا إلى المنفعة المعلومة المحسوبة، أو نظرنا إلى المنفعة التى تتحقق على طول الزمن فى أطوار الاجتماع؟

لابد أن يخطر على البال أن " لحاسة الجمال " شأنًا هنا كشأنها فى الإعجاب بمحاسن الأجسام، بل كشأنها فى الإعجاب بمحاسن الجماد أيًا كان القول فى أصل الشعور بالجمال[١].

والشىء الجميل هو الذى يريح نفس الإنسان، ويجعل النظر إليه محببًا، ويبعث فيه على التأمل، والإدراك.

وإدراك الجمال لموضوع " ما " معناه: التأمل بعمق، وإدراك ما فيه من اتساق وانسجام، ويبصر الإنسان فيه معنى من المعانى التى ارتبطته بينه وبين نفسه. وفى هذا إدراك لحقيقة الجمال[٢].

يقول الإمام النورسى: والجمال الظاهر فى هذه المخلوقات، والحسن البارز فيها. إذن ليس هو ملك ذاتها. وإنما هو إشارات إلى ذلك الجمال المقدس السرمدى الذى

---

(١) العقاد، المصدر السابق، ص ٣١.

(٢) الأستاذ على القاضى " جوهر الإسلام "، ص ٦٤، ط: تونس ١٣٩٦هـ.

يريد الظهور. وعلامات ولمعات لذلك الحسن المجرد الدائم التجلى، والجمال المنزه الذى يريد المشاهدة والإشهاد[١].

وإذا كان العقاد قد ناقش القول فى تعليل نشأة الأخلاق " بأنها مصلحة اجتماعية" ووصل بفلسفته إلى أن لحاسة الجمال أو لنزوع الإنسان إلى الكمال شأن فى تفضيل بعض الأخلاق على بعض. فى حالة ما إذا تعادل خلقان فى النفع الاجتماعى.. فإنه بعد أن قرر هذا المقياس ووضعه علامة مضيئة فى الطريق، انتقل إلى مناقشة من يقول فى تعليل نشأة الأخلاق: انها ترجع إلى مصدرين فى كل جماعة بشرية لا إلى مصدر واحد. وأنها ترجع إلى مصلحتين لا إلى مصلحة واحدة، وقد تكون إحداهما على نقيض الأخرى، فيما تمليه، وفيما تستمليه " قيل إنها ترجع فى ناحية منها إلى مصلحة السادة، وترجع فى ناحية أخرى السادة إلى والعبيد.

والمرجح أن التفرقة بين أخلاق الكرام الأحرار، وبين أخلاق اللئام الهجناء، ملحوظ فيها هذا المعنى فى اللغة العربية بين العرب الأقدمين. فكانوا يفهمون من وصف الأخلاق بالكريمة أنها أخلاق السادة الأحرار ومن وصفها باللئيمة أنها أخلاق قوم ليست لهم أعراق، وليس لهم خلاق.

وأحدث القائلين بهذه التفرقة بين المفكرين من الأوربيين "فردريك نيتشه" المعروف بمذهبه المشهور عن "إرادة القوة" التى يعارض بها الاكتفاء بمجرد إرادة الحياة، وهى قوام أخلاق الضعفاء من لا مطمع لهم فيما وراء عيش الكفاف أو عيش الأمان"[٢].

ولكن ما هى الأخلاق القيمة؟ هل هى أن يفعل القوى ما يشاء، لأنه قادر على أن يفعله، ولأن الضعيف عاجز عن صده، والوقوف فى سبيله[٣].

والقائلون بأنها أخلاق قوة. يقولون: إن الأخلاق كلها ترجع إلى القوة، فلا

---

(١) انظر النورسى، الشعاعات، الشعاع الرابع، ص ٨٥.

(٢) العقاد " المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد "، ص ٦٤، تونس ١٣٩٦هـ.

(٣) العقاد " الفلسفة القرآنية "، ص ٣٢، ط: دار الكتاب اللبنانى.

يرحم إلا القوى، ولا يملك العطاء إلى القوى، ولا يعفو إلا القوى، وهكذا[١].

وهل كل ما يفعله الأقوياء خلق حميد محبوب؟

ويضيف العقاد قائلاً: وإذا قلنا: أن أخلاق القوة، هى أخلاق القوى أمام الضعفاء فما هى أخلاق القوى أمام مثله؟ وما هو الضابط الذى يجعل للقوى عملاً يليق به، وعملاً آخر لا يليق؟

قديمًا فسر " هوبس " الفيلسوف الإنجليزى " كل خلق حميد. بانه قوة أو دليل على قوة ". فالصبر قوة لأن الضعيف يجزع، ولا يقوى على الصبر، والاحتمال.. والكرم قوة لأن الكريم يثق من قدرته على البذل، ويعطى من هو محتاج إلى عطائه، وهو ضعيف. والشجاعة قوة لأنها ترفض الجبن والاستخذاء، والعدل قوة، لأنه غلبة الإنسان العادل على نوازع طمعه، ودوافع هواه. والعفة قوة، لأنها تقاوم الشهوة، والإغراء. والحلم قوة، لأنه مزيج من الصبر والثقة، وقد ينطوى على شىء من الترفع والاستخفاف بالمسىء.. والرحمة قوة، لأنها إنقاذ لمن يستحق الرحمة من المرضى أو العجزة أو الصغار الموكولين إلى رعاية الكبار.. وقس على ذلك كل خلق حميد تفسره على هذا النحو من التفسير[٢].

فالناس على زعم هؤلاء يحمدون الرحمة، لأنهم يحمدون القوة، ويرون فى الرحمة دليلاً على قوة الرحيم، لأنه يتفضل بها على الضعيف ويترفع بها عن معاملته كما يعامل الأنداد والنظراء.

والناس يحمدون العفو لأن الذى يعفو عن المسىء إليه يعتد بقوته وبأمنه أن وفى له بالشكر أو غدر به على السواء.

وهم يحمدون الكرم لأنه عطاء، ولا يملك ما يفضل من حاجته ويجود به على المفتقر إليه غير الأقوياء.

وهم يحمدون الصبر، لأن القوى جليد يتماسك لصدمة المصاب ولا يتضعضع

---

(١) الأستاذ حمد بن نايف الشمرى، " العقاد وتراثه الإسلامى "، ص ٢٨٧، دار التقدم.

(٢) العقاد " الفلسفة القرآنية "، ص ٣٣، ط: دار الكتاب اللبنانى.

تحت وقره الثقيل، فهو يصبر على بلائه لأنه قوى يحتمل ضد مالا يحتمله الضعيف، ولا يكون القوى جزوعًا وإن عظم عليه المصاب.

وهم يحمدون الدهاء، لأنه قوة فى العقل يتمكن بها صاحب العقل القوى من تسخير الأقوياء بالأجسام.. ويحمدون الذكاء، والحذق، والمعرفة، والبراعة فى صناعة من الصناعات، لأنها علامة من علامات القوة على نحو من الأنحاء.

وهذه الفضائل أو المزايا تفيد أصحابها قوة، كما تنم فيهم عن القوة التى تصدر عنها. فهى محمودة لما تدل عليه، ولما تؤدى إليه.. أما العظمة، والمجد، والشجاعة، فلا حاجة بها إلى تفسير عند من يرجعون بالأخلاق جميعًا إلى القوة على هذا الأسلوب، لأنها ظاهرة بقوتها معترف بسبب الإعجاب بها بين الأقوياء أو الضعفاء[1].

والقوى تحمد منه أعمال، ولا تحمد منه أعمال " وأيًا كان الظن بصواب هذا الفحوى، أو هذا التفسير، فليس فى وسع أحد أن يقول: إن القوى يفعل ما يشاء، ويندفع مع قوته كما يشاء، وأن كل ما يفعله، وكل ما يندفع إليه حميد جميل[2].

فما هو الضابط إذن للأخلاق القوية؟.. أهو الاستطاعة؟ أكل ما يستطيعه القوى حميد، وكل مالا يستطيعه ذميم؟ إن معنى هذا إبطال مذهب القوة من أساسه، والرجوع إلى العجز وقلة الاستطاعة فى خاتمة المطاف.

ولماذا يشاء القوى أمرًا، ولا يشاء أمرًا آخر؟ لأنه يشاء ما يليق؟ أو يشاء ما يقدر عليه، أو يشاء بلا ضابط من القدرة واللياقة؟.. كل ذلك لا تفسره كلمة " القوة " وحدها، ولا تغنى فيه عن تفسير يقترن بالقوة ويميز لنا ما هو جميل من أعمالها، وما هو شائن قبيح[3].

وبعد أن يناقش العقاد مذهب القوة، بالعقل الحكيم، والمنطق السليم، يفتش

---

(١) العقاد " المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد "، المجلد ٥، ص ٢٦٠، ط: دار الكتاب اللبنانى.

(٢) العقاد " الفلسفة القرآنية "، ص ٣٣، ط: دار الكتاب اللبنانى.

(٣) العقاد، المصدر السابق، ص ٣٣.

عن مذهب المنفعة فى الأخلاق، ليضعه أمام الوعى، والفلسفة الصحيحة، ولهذا نراه يقول: ونعود إلى مذهب المنفعة فى الأخلاق فنسأل: هل نرتضى أخلاق الجزع أو أخلاق الغدر، أو أخلاق المشاكسة، ولو لم يكن لها علاقة بمصلحة الاجتماع؟

أليس فى رؤية الرجل الجزوع قبح تنفر منه النفس، ولو كانت فيه سلامة صاحبه، ولو لم يكن للخلق فى ذاته علاقة بالفضائل الاجتماعية؟

أليس لنا مقياس آخر، غير مقياس المنفعة أو مقياس التفرقة بين الأقوياء والضعفاء[1].

وبعد أن يترك الباحث يتلمس هذا المقياس. بكل أنواع الدلالات. يعلن وجود هذا المقياس: .. هناك مقياس لابد من الرجوع إليه فى جميع هذه الأحوال، وهو" صحة النفس، وصحة الجسد على السواء " فالنفس الصحيحة تصدر عنها أخلاق صحيحة، والجسد الصحيح يصدر عنه عمل صحيح.. أيًا كان أثر الأخلاق والأعمال فى حياة الجماعة، أو حياة الأفراد.

وبدا لى بعد تأمل عميق، وقراءات فلسفية واعية. أن الإمام النورسى.. كونه انطلق من القرآن الكريم.. لا يقول: " بصحة النفس وصحة الجسد " فحسب، لأن القضية ليست صحة نفس وصحة جسد. وإنما يقول " سجايا الإنسان وماهيته تظهر بالتوحيد ". كما يقول: " جميع المزأيا الإنسانية، وجميع مقاصد الإنسان العليا مرتبطة بالتوحيد وتتحقق بسر التوحيد.

فلولا التوحيد لأصبح الإنسان أشقى المخلوقات، وأدنى الموجودات، وأضعف الحيوانات، وأشد ذوى المشاعر حزنًا، وأكثرهم عذابًا وألمًا.

ذلك لأن الإنسان يحمل عجزًا غير متناه، وله أعداء لا نهاية لهم، وينطوى على فقر دائم لا حدود له، وحاجات لا حدود لها[2].

إن القوى الذى يفعل ما يشاء ليس بصحيح، لأن النفس الصحيحة لا تنطلق

---

(١) العقاد " الفلسفة القرآنية "، ص ٣٤، ط: دار الكتاب اللبنانى، بيروت.

(٢) انظر الإمام النورسى، الشعاعات. الشعاع الثانى، ص ١٨.

كما تنطلق الآلة التى تملؤها قوة البخار، أو قوة الكهرباء فتصدم وتهشم، وتخبط خبط عشواء حيث تحملها القوة العمياء..

لا صحة بغير ضابط أيًا كان حكم الاجتماع ومطلب الاجتماع.. وكل ضابط معناه: " القدرة على الامتناع، ورد النفس عن بعض ما تشاء " وليس معناه القدرة على العمل فحسب، ولا المضى فى كل ما تشاء " [1].

ويبدو أنه علينا أن نترك قليلاً هذا الضابط الخلقى. والذى معناه: " القدرة على الامتناع، ورد النفس عن بعض ما تشاء " حتى نعود إليه مرة أخرى بعد أن نعرض بعض المذاهب الخلقية وموقف الإسلام منها فهل:

الأخلاق هى أخلاق قوة؟

هل هى أخلاق محبة؟

هل هى أخلاق قصد واعتدال؟

هل هى أخلاق اجتماعية؟

هل هى أخلاق إنسانية؟

هى كذلك أحيانًا، ولكنها ليست كذلك فى جميع الأحيان، لأن أخلاق القوة قد تفهم على وجوه متعددة، أو متناقضة، يحمد الإسلام بعضها، ولا يحمد بعضها، أو يذمها جميعًا إذا فهمت على مذهب فلاسفة القوة فى العصر الأخير[2].

وأخلاق القوة فى العصر الأخير مقترنة باسم " فردريك نيتشه " رسول " السوبرمان" الذى كاد إيمانه بالسوبرمان أن ينقلب إلى عداوة للإنسان. فالسوبرمان لا يرحم ولا يغفر، ولا يعرف للضعيف نصيبًا من " الإنسان الأعلى " غير نصيب الزراية، والإذلال، أو الإبادة والاستئصال، محافظة على سلامة النوع من عدوى الضعف، وعواقب الإبقاء على الضعفاء، وهم فى عرفه أولى بالاجتناب من مرضى الجذام " .

---

(١) العقاد، الفلسفة القرآنية، ص ٣٤.

(٢) العقاد " المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد " المجلد ٥، ص ٢٥٩، ط: دار الكتاب اللبنانى.

والأخلاق عنده قسمان: قسم للسادة لا يقبله العبيد، وقسم للعبيد لا يقبله السادة، فليس بين الفريقين جامعة إنسانية تلتقى بهم فى صفة من الصفات، بل هم أعداء يتسلط منهم القادر على العاجز، ولا يحسن بالمتسلط أن يقبل من العاجز غير الخنوع والهبوط فى الذلة من هاوية إلى هاوية، لا نهاية لها غير الانقراض والفناء.

وأخلاق القوة عرفت قبل " نيتشه " بتفسير، لا تفسير فيه عند الحاجة إلى التفسير. لأنه يجعل القوة مرادفة للإحسان. ولا تدرى منه لماذا يكون هذا الإحسان. وتفسير الفيلسوف " هوبز " للقوة من هذا القبيل "[1].

وقبل الرجوع بالأخلاق جميعًا إلى القوة على مذهب " هوبز " أو على مذهب نيتشه، كانت المدرسة اليونانية تعتبر الأخلاق الفاضلة وسطًا بين طرفين، أو تحث طالب الفضيلة على الاعتدال فى جميع الأمور، والاتجاه إلى الحسن من كل خلق، على قدر حظه من الاعتدال.

فالشجاعة وسط بين التهور والجبن، والكرم وسط بين الإسراف والبخل، والصبر وسط بين الجموح والجزع، والحلم وسط بين الترقى والبلادة والرحمة وسط بين القسوة والخور.. وكل فضيلة على هذا القياس فهى مسألة توسط فى المسافة بين غايتين[2].

وفى زماننا هذا يغلب على مدارس الأخلاق: أنها تؤول بالفضائل كلها إلى باعث واحد، وهو باعث المصلحة الاجتماعية، أو باعث الغرائز النوعية التى يتصل بها بقاء نوع الإنسان.

ومن هذه المدارس ما يحصر المصلحة فى الطبقة الغالبة على المجتمع. فلا مصلحة للمجتمع كله فى الأخلاق الفاضلة التى يحمدها المجتمع فى عهد من العهود.. ولكن المصلحة فيها للطبقة المتحكمة فيه بثروتها وسطوتها.. فما نراه حسنًا فهو

---

(١) العقاد " المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد "، المجلد ٥، ص ٢٥٩، ٢٦٠، ط: دار الكتاب اللبنانى، بيروت

(٢) المصدر السابق، ص ٢٦١.

الحسن بالنسبة إليها لاستبقاء منافعها.. وهى إذن تسوم الطبقات الأخرى أن تستحسنه على المحاكاة والتقليد، وإن لم يكن لها خير فيه[1].

والإسلام يحمد كثيراً من الأخلاق المحمودة فى هذه المذاهب.. ولكننا لا نستطيع أن نجمع الأخلاق الإسلامية كافة فى نطاق مذهب منها، ولاسيما مذهب القوة فى فلسفة نيتشه، ومذهب الطبقة الاجتماعية فى فلسفة الماديين. ولا يخلو كل مذهب من هذه المذاهب من النقص، وعدم الدقة والشمول. وقد لا يخلو من العيوب والاعتراض عليه، فقد يجعلون من الأخلاق ما ليس منها [2].

ومذهب القوة فى رأى نيتشه يناقض جميع الأديان الإلهية. ولعله يوافق ديناً يعتقد اتباعه أنه دين إله يختارونه ويختارهم، فيستبقيهم، ويمحق غيرهم من العالمين.

ولكنه لا يوافق الأديان التى تدعو إلى إله واحد للأقوياء والضعفاء.. وقد يكون الأخذ بمذهب القوة فى رأى " نيتشه " هدماً لهذه الأديان من قواعدها، واقتلاعاً لها من جذورها، إذ لا قيمة للدين ما لم ينشئ أمام القوة الطاغية قوة تكبحها وتهذبها، وهى قوة الضمير.

ولا رسالة للدين بين البشر إن لم تكن رسالته أن يربى فيهم وازعاً للقوة البدنية، وقوة المطامع والشهوات.

وقد تعلم الناس دهراً طويلاً أن حماية المريض غير حماية المرض، وأن العناية بالمرضى تؤول على الدوام إلى عناية بالصحة، يستفيد منها الأصحاء، كما يستفيد منها المصابون. وليس بالعسير عليهم أن يتعلموا كذلك أن حماية الضعيف غير حماية الضعف، وأن العناية بالضعفاء تؤول إلى عناية شاملة يستفيد منها الأقوياء والضعفاء[3].

---

(١) العقاد، المرجع السابق.

(٢) الأستاذ حمد بن نايف الشمرى " العقاد وتراثه الإسلامى "، ص ٢٨٨، ط: دار التقدم.

(٣) العقاد " المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد "، المجلد ٥، ص ٢٦١، ط: دار الكتاب اللبنانى.

وتفسير "هوبز" للقوة لا يقرب مذهب القوة كثيراً إلى حقيقة الأخلاق الإسلامية. التى انطلق منها الإمام النورسى. لأن الإسلام لا يحمد من الأخلاق أنها حيلة ملتوية أو مستقيمة إلى طلب القوة. بل يحمد منها فى شأن من شئون الإنسان. أنها وسيلة إلى طلب الكمال، ويحبب إلى الإنسان أحياناً أن يؤثر الهزيمة مع الكمال على الظفر مع القوة. إذا كان الظفر وسيلة من وسائل القوة الباغية التى لا تتورع عن اللجاج بكل سلاح [1].

ومذهب الفلسفة اليونانية ما هو إلا مقياس. لا يصدق على الأخلاق. لأن الأخلاق متباينة، وليست درجات. فلا يمكن أن نقول: أن الكرم نقص فى رذيلة البخل، أو نقص فى رذيلة الإسراف، ولا يمكن أن نقول أن زيادة الكرم إسراف وإنما هو كرم كبير، ولا نقول: أن السرف إذا أنقص أصبح كرماً. فالأخلاق متباينة. فلا يكون الكرم أبداً درجة من درجات السرف، ولا البخل درجة من درجات الكرم وهكذا[2].

ومذهب الفلسفة اليونانية ينتهى بنا إلى مقياس للأخلاق شبيه بمقاييس الهندسة والحساب، بعيد عن تقدير العوامل النفسية، والقيم الروحية فى الأخلاق العليا على التخصيص.

وقد تصدق هذه الفلسفة إذا كان المطلوب من الإنسان أن يختار بين رذيلتين محققتين، فإنه فى هذه الحالة يحسن الاختيار بالتوسط بين طرفين متقابلين كلاهما مذموم ومتروك.

إلا أننا لا نقول من أجل ذلك أن الكرم نقص فى رذيلة البخل، أو نقص فى رذيلة السرف، ولا نقول من أجل ذلك أن الكرم إذا زاد أصبح سرفاً، وأن السرف إذا نقص أصبح كرماً. بل تكون الزيادة فى الكرم كرماً كبيراً، والنقص فى السرف سرفاً قليلاً ولا يكون الكرم أبداً درجة من درجات السرف، ولا البخل أبداً درجة من درجات الكرم، بل هى أخلاق متباينة فى الباعث، متباينة فى القيمة، يتقارب

---

(١) العقاد، المصدر السابق، ص ٢٦٢، ط: دار الكتاب اللبنانى، بيروت.

(٢) الأستاذ حمد بن نايف الشمرى " العقاد وتراثه الإسلامى "، ص ٢٨٨، ط: دار التقدم بمصر.

الطرفان فيها أحدهما من الآخر، ولا يتقارب الطرف من الوسط، كما يظهر من قياس الهندسة، أو قياس الحساب.

وقد رأينا فى مباحث العقل النفسية التى كشفها العلم الحديث أن الشذوذ يقرب بين المسرفين، والبخلاء فى أعراض متشابهة، وأن العلة الكامنة فى التركيب قد تظهر فى الأسرة الواحدة. بخلاف أحد الأخوين، وسرفا فى الأخ الآخر، أو تظهر فى أحدهما هوسًا بالإقدام والاقتحام، وتظهر فى أخيه هوسًا بالحذر والإحجام.

فلا إفراط هنا ولا تفريط فى " كلية " واحدة تقاس بمقياس الهندسة والحساب، ولكنها خلائق متباينة تختلف بالباعث لها، وتختلف بقيمتها فى معايير الأخلاق. ولو صح مذهب الفلسفة اليونانية، أو مذهب أرسطو على الأصح. لما جاز للإنسان أن يطلب المزيد من فضيلة الكرم - مثلاً - لأنه ينتقل على هذا الرأى إلى رذيلة السرف والتبذير.

إلا أن زيادة الكرم لا تكون إلا زيادة فى فضيلة مشكورة. ولابد من التفرقة بين زيادة الكرم، وزيادة العطاء. فإنهما فى الواقع أمران مختلفان.. وقد قيل لا خير فى السرف، ولا سرف فى الخير.

وفى القول الثانى توضيح لازم للقول الأول، لأن زيادة الخير إلى أقصى حدوده واجبة لا تخرج به عن كونه خيراً محموداً، يزداد حمده مع ازدياده ولا يحسب من السرف على وجه من الوجوه"[1].

وإنما يلتبس الأمر على أصحاب مدرسة التوسط فى جميع الأمور، لأنهم ينظرون فى تقدير الكرم إلى المال المبذول، وإلى مصلحة الباذل فى حساب المال، ولا التباس فى الأمر. إذا نظروا إلى الباعث، والموجب، والمصلحة فى عمومها. ولو ناقضت مصلحة الباذل فى بعض الأحيان [2].

---

(١) العقاد، المصدر السابق، ص ٢٦٣.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٦٣.

وتصعب المقارنة بين التطرف والتوسط. حين تكون المسألة درجات ولا تكون هناك مقادير تعد بالأرقام، فإذا جاز أن يقال: إن الكريم هو الذى ينفق ألف دينار والسرف هو الذى ينفق ألفين، والبخيل هو الذى يبذل مائة، أو لا ينفق شيئًا، فمن هو الشجاع؟ ومن هو المتهور؟ ومن هو الجبان؟.

ليست هناك مقادير تعد بالأرقام. فإذا عرفنا: أن الجبان هو الذى يحجم عن الخطر، فمن هو الشجاع؟ ومن هو المتهور؟.. فلا يجوز أن نقول أن الشجاع هو قليل الإقدام، وأن المتهور كثير الإقدام.

إن المسألة هنا هى معرفة الواجب، فالشجاع الذى يقدم على الخطر حيث يجب الإقدام عليه، لكن الجبان والمتهور لا يعرفان الواجب.. فالأخلاق هنا تقاس بالواجب وليست مقادير [(١)].

"وتصبح المسألة هنا مسألة قدرة على فهم الواجب والعمل به وليست مسألة أعداد أو أبعاد.. فالجبان والمتهور كلاهما عاجز عن فهم الواجب والعمل به، والشجاع هو القادر على الفهم والعمل، ولا يستقيم فى التعبير إذن يمكن أن نقول أن المتهور أكثر شجاعة من الشجاع، وأن الجبان أقل شجاعة منه، لأنهما معًا خلو من الشجاعة الواجبة بغير إفراط أو تفريط "[(٢)].

ولن يشذ الإنسان عن الاعتدال فى الطبع إذا هو أثر أن يذهب فى كل فضيلة إلى نهايتها القصوى، فماذا يعاب فى جمال الوجوه – مثلاً – إذا انتهى إلى غاية لا غاية بعدها فى معهود الأبصار؟

إن كلمة من كلمات اللغة العربية العامرة بمدلولاتها النفسية والفكرية لتهدينا إلى قسطاس الحمد فى كل حسنة مأثورة. فكلمة " ناهيك " حين نقول ناهيك من رجل، أو ناهيك من عمل، أو ناهيك من خلق.هى قسطاس الثناء فيما تنشده النفوس الإنسانية من كل فضل منشود، فهو الفضل الذى ينتهى بنا إلى النهاية فلا نتطلع بعده إلى مزيد".

---

(١) الأستاذ الشمرى " العقاد وتراثه الإسلامى "، ص ٢٨٩، ط: التقدم بمصر.

(٢) العقاد، " المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد "، جـ ٥، ص ٢٦٤، ط: دار الكتاب اللبنانى.

غير أن مذهب الاعتدال – مع هذا – أقرب المذاهب إلى فهم الأخلاق المحمودة فى الإسلام، على اعتبار أن خلق الاعتدال فضيلة مستقلة تدل على طبع سليم، وعقل رشيد، يقدران لكل عمل قدره، ولا يمنعهما الاعتدال أن يذهبا به إلى غاية الكمال، إذا كان له هذا القدر بين أقدار الأخلاق (١).

ومذهب المصلحة الاجتماعية لا يناقض مكارم الأخلاق الإسلامية كل المناقضة، ولا يوافقها كل الموافقة، إذ مجمل الرأى فى الإسلام أن المجتمع يقاس بالدين، وليس الدين يقاس بالمجتمع ورؤية الإمام النورسى تلك هى. قد يسفل المجتمع فتتفق فيه الآراء والأهواء على مصلحة يأباها الدين ويحسبها مضرة، أو مفسدة يؤنب المجتمع من أجلها كما يؤنب الأفراد(٢).

ومن عيوب مذهب الأخلاق الاجتماعية، والأخلاق الإنسانية، أن هذه المدرسة تحصر المصلحة فى الطبقة الغالبة على المجتمع.. فما تراه حسنًا فهو الحسن بالنسبة إليها لاستبقاء منافعها.. كما أن المجتمع قد ينحدر بأخلاقه وتقاليده، حتى تنقلب إلى رذائل، فلا يصح إذن أن يكون المجتمع مرجعًا للأخلاق (٣).

والباحث لا يستطيع أن يجمع الأخلاق الإسلامية. فى نطاق مذهب واحد من المذاهب، وإن كان الإسلام يحمد كثيراً من الأخلاق المحمودة فى هذه المذاهب، ولكنه يترفع عن تلك النقائص، ويتنزه عن تلك العيوب خصوصاً مذهب " نيتشه " الذى يحارب الضعفاء، ويجعلهم كمرضى الجذام الذى يجب الابتعاد عنه. والإسلام يحمد القوة الخالية من الجبروت، والطغيان، والقسوة، والتعالى على الناس، والكبر، فهى قوة فى محلها ومواضعها فى الحرب والإنفاق فيها اللين، والعطف، والرحمة بالضعفاء.

وقد توصف الأخلاق الإسلامية بأنها أخلاق محبة، لأن أصول العلاقات فى الإسلام قائمة على المحبة والأخوة بين الناس، كأنهم أسرة واحدة، ولكن الإسلام

---

(١) العقاد، المصدر السابق، ص ٢٦٥.

(٢) العقاد، المصدر السابق، ص ٢٦٥.

(٣) الشمرى، العقاد وتراثه الإسلامى، ص ٢٨٩.

ينكر من المسلم أن يحب الخبيث، كما يحب الطيب، ويعرف العداوة في الحق كما يعرف الصداقة فيه[1].

والإسلام يزكى التوسط فيما يقبل التوسط بالمقادير، أو بالدرجات كالإنفاق الذى ينتهى الإسراف فيه إلى اللوم والحسرة. قال تعالى: ﴿ **ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً** ﴾ [الإسراء]. . والإسلام هو الذى يفرض الأخلاق على المجتمع، فقد يسفل المجتمع بأخلاق حتى يأباها الدين ويرفضها، وقد تكون أخلاق المجتمع فاضلة فيتقبلها الدين.

وربما كانت مصلحة النوع الإنسانى أصدق المقاييس للخلق المحمود فى الإسلام، ولكن النوع الإنسانى يترقى فى العلم بمصالحه حقبة، بعد حقبة. ومن حوافزه إلى الترقى أن تكون أمامه مثل عليا للأخلاق أرفع من مألوف الأخلاق التى يسترسل معها بغير جهد، وبغير رياضة، وبغير تربية مفروضة عليه، يعتقد أنه يتلقاها ممن هو أكبر من الإنسان وأحق منه بالطاعة والإصغاء إلى هدايته وتعليمه.

وفلسفة الإمام النورسى تؤكد على أنه لابد من الفضائل الإلهية فى تعليم الإنسان مكارم الأخلاق. . وما اكتسب الإنسان أفضل أخلاقه إلا من الإيمان بمصدر سماوى يعلو به عن طبيعته الأرضية. . وهذا هو المقياس الأوفى لمكارم الأخلاق فى الإسلام. . ليس مقياسها الأوفى أنها أخلاق قوة، ولا أنها أوساط بين أطراف، ولا أنها ترجمان لمنفعة المجتمع، أو منفعة للنوع الإنسانى بأجمعه، فى وقت من الأوقات، وإنما مقياسها أنها أخلاق كاملة " وأن الكمال اقتراب من الله ".

ولذلك يقول النورسى: شعور الإنسان بالشكر ومعرفته أقسام تجليات الأسماء الحسنى التى تعم الوجود كله. يجعل الكمالات الإنسانية تنمو وبهذا يغدو الإنسان إنساناً حقاً[2].

وجملة ما نريد أن نؤكد عليه: أن هناك علامات مضيئة فى الفلسفة الخلقية. . هذه العلامات تشير إلى أن "لحاسة الجمال، أو النزوع إلى الكمال" فى فكر

---

(١) العقاد " المجموعة الكاملة "، جـ ٥، ص ٢٥٩، ط: دار الكتاب اللبنانى.

(٢) انظر الإمام النورسى، الكلمات. الكلمة الحادية عشر، ص ١٣٦-١٣٧.

النورسى شأن فى تفضيل بعض الأخلاق على بعض، أو فى تمييز بعضها بالاستحسان والإيثار، وبعضها بالمقت والاستنكار. فملاك الأخلاق الصالحة نفس صالحة قادرة على التلقى والأداء.

ونرى العقاد وهو يعرض مذهب المنفعة ويناقشه يضع مقياساً لابد من الرجوع إليه فى جميع الأحوال الخلقية وهو "صحة النفس، وصحة الجسد على السواء"، ومعنى هذا: القدرة على الامتناع، ورد النفس عن بعض ما تشاء.. وهذا قبل كل شيء هو مصدر الجمال فى الأخلاق.. مصدره أن القوة النفسية أرفع من القوة الآلية.. مصدره أن يتصرف الإنسان كما يليق بالكرامة الإنسانية، ولا يتصرف كما تحمله القوة الحيوانية أو القوة التى يستسلم لها استسلام الآلات مصدره أن يكون الإنسان سيد نفسه، وأن يحلم أنه يريد فيعمل أو يمتنع عن العمل، وليس قصاراه أنه باق إلى ما يراق[1].

إن المجتمع قد يملى على الإنسان ما يليق وما لا يليق، ولكنه لا يغنيه عن هذا الضابط الذى تناط به جميع الأخلاق، كما تناط به حاسة الجمال. لأنه دليل على صحة التكوين، وخلو النفس من الخلل والتشويه.

ونحن ندرك القيمة الجمالية لموضوع معين بما تثيره أجزاؤه المتناسقة المنسجمة.. فالإنسان يشعر بجمال الأخلاق. لأنها تبعث على إثارة مكنونات، نفسه ويجد المرء فيها تزويداً لما تتجاوب به حوائج قلبه وصدى ملحاً من أصدائه النفسية.

والاستمتاع الجمالى يغذى الوجدان والرغبات المكبوتة داخل النفس ولذلك فإنه يعمل على تجديد طاقات المرء وتنويع مظاهرها، واتزان نواحيها وأول درجة فى الجمال النفسى صفاء النفس واستمتاعها بالتأمل الهادى. إذ كثيراً ما تغطى ماديات الحياة على معنوياتها.. وكثيراً ما تغطى على نداء القلب، ونداء الضمير.. فإذا صفت النفس، صارت قابلة للاستمتاع بالجمال.

لأن الصفاء والجمال يمثلان الحركة الحية فى الحياة، وفى ارتفاع قيمة النفس، وفى تنظيم نواحى الحياة، وغاياتها الروحية.

---

(١) العقاد، الفلسفة القرآنية، ص ٣٤، ط: دار الكتاب اللبنانى، بيروت.

يقول الإمام النورسى: "إن جمال أثر مصنوع يدل دلالة قاطعة على جمال صنعه. وإن جمال الصنع وإتقانه هذا يدل على جمال عنوان صانعه الناشئ من تلك الصنعة. وإن جمال عنوان الصانع المتقن يدل على جمال صفة ذلك الصانع التى تعود إلى تلك الصنعة. وأن جمال صفته هذه يدل على جمال قابليته واستعداده، وإن جمال قابليته يدل على جمال ذاته وجمال حقيقته" (١).

وترى الفلسفة الحديثة: أن الجمال يكمن فى الحركة. حركة القلب فى عاطفة الحب، وحركة العاطفة فى البذل، وحركة الضمير فى يقظته، وحركة الذهن فى أفكاره وأدائه لرسالته، وفى التأمل بعد الدرس، وفى الوفاء بعد الوعد (٢).

وبهذا الضابط "ضابط الجمال" الذى لا غنى عنه فى كل خلق من الأخلاق، يتحدى الإنسان فرائض المجتمع كله، إذا فرضت عليه ما ينفر منه طبعه، أو يجرح فيه حاسة الجمال، وسليقة الشوق إلى الكمال، فيعلو على المجتمع فى كثير من الأحيان، ولا يكون قصاراه أن ينقاد لما يمليه عليه. بل يخلق الآداب الاجتماعية الجديدة، ولا يكون فى أعماله ومقاييسه مخلوقًا للمجتمع فى جميع الأحوال.

ومصدر جمال الأخلاق – فى فكر الإمام النورسى – هو أن يشعر الإنسان بالتبعة وأن يدين نفسه بها لأنه يأبى أن يشين نفسه، ويعتبر الشين غاية ما يخشاه من عقاب..

فالشخصية الإنسانية فى الجمال الخلقى فى فكر الإمام النورسى، ترتقى حسب الاستعداد للتبعة، ومحاسبة النفس على حدود الأخلاق.

وليس للتفاوت فى جمال الخلق مقياس أصدق من هذا المقياس أعم منه فى جميع الحالات، وفى جميع المقابلات، بين الخصال المحمودة أو بين أصحاب تلك الخصال.

---

(١) انظر: الإمام النورسى، الشعاعات، ص ٥٦.

(٢) الأستاذ على القاضى "التربية الجمالية فى الإسلام"، جوهر الإسلام، ع ٢، ٣، ص ٨٤، السنة ٨، تونس.

والقرآن الكريم يقرر التبعة الفردية، وينوط بها كل تكليف من تكاليف الدين، وكل فضيلة من فضائل الأخلاق.

قال تعالى: ﴿ **ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى** ﴾ [الانعام، الآية: ١٦٤].

وقال تعالى: ﴿ **كل نفس بما كسبت رهينة** ﴾ [المدثر، الآية: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿ **لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت** ﴾ [البقرة، الآية: ٢٨٦].

وقال تعالى: ﴿ **قل يأيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل** ﴾ [يونس، الآية: ١٠٨].

وما من خصلة حث عليها القرآن الكريم إلا كان تقدير جمالها بمقدار نصيبها من الوازع النفسانى، أو بمقدار ما يطلبه الإنسان من نفسه، ولا يضطره أحد إلى طلبه. فالحق الذى تعطيه، ولا يضطرك أحد إليه هو أجمل الحقوق وأكرمها على الله، وأخلقها بالفضيلة الإنسانية.

وغنى عن التفصيل: أن الفضائل المثلى التى يحض عليها القرآن الكريم هى الفضائل التى ترتفع إلى ضبط النفس، وملك زمامها، وعزم الأمور، واتخاذ الوازع منها حين لا وزاع من غيرها، فالصبر، والصدق، والعدل، والإحسان، والمحاسنة، والأمل، والحلم، والعفو، هى مثال الكمال الذى يطلبه لنفسه من يزع نفسه، ويختار لها أحسن الخيرة، ويأبى لها أن يهبط بها مكانًا دون مكان الجميل الكامل من الخصال ومن الفعال.

وقد يكون الكمال كالجمال مقياسًا غير متفق عليه قابلاً للتفاوض - بل للتناقض - كما تتفاوت مقاييس العرف، وتتناقض فى كثير من المعقولات والمحسوسات.. لكننا نقول قولاً مفيدًا حين نقول: إن الإنسان يحب أجمل الشمائل، أو أجمل الخصال.. ونقول قولاً مفيدًا حين نضع الكمال فى موضع الجمال.. إلا أن الإسلام يقرن بالمثل الأعلى فى كل فضيلة بالصفات الإلهية: "ولله المثل الأعلى" وكل صفة من صفات الله الحسنى محفوظة فى القرآن الكريم، يترسمها المسلم ليبلغ فيها غاية المستطاع فى طاقة المخلوق.

وجماع هذه الأخلاق الإسلامية - كما يرى الإمام بديع الزمان سعيد النورسى - كلها هو تلك الصفات التى اتصف بها الخالق نفسه فى أسمائه الحسنى وكلها مما يحمد الإنسان أن يروض نفسه عليه، وأن يطلب منه أوفى نصيب يتاح للمخلوق المحدود، فيما عدا الصفات التى خص بها الخالق دون سواه.

وإن المسلم ليؤمن بمصدر هذه الأخلاق المثلى، ويؤمن بأنها جميعًا مفروضة عليه بأمر من الله.

ولكن المسلم وغير المسلم يستطيعان أن يقولا معًا: إنها صفات لا ترجع إلى مصدر غير المصدر الإلهى، الذى تصدر منه جميع الأشياء، لأن مناطها الأعلى لم يتعلق بمنفعة المجتمع، ولا باستطاعة القوة، ولا بالقانون والسلطان، ولكنه تعلق بما فى الإنسان من حب للجمال، وشوق إلى الكمال. وكلاهما نفحة من المخلوق يهتدى بها الأحياء عامة فى معارج الرفعة والارتقاء.

والفيلسوف بديع الزمان سعيد النورسى يؤكد أن الأخلاق التى يهتدى إليها المسلم بهدى الأسماء الحسنى كثيرة وفيها يجد ما يتحراه الإنسان فى مراتب الكمال المطلوبة لكمالها مع عموم نفعها فى حياة الفرد والجماعة، ومنها: العزة، والقدرة، والمتانة، والكرم، والإحسان، والرحمة، والود، والصبر، والعفو، والعدل، والصدق، والحكمة والرشد، والحفاظ، والحلم، واللطف، والولاء، والسلام، والجمال.

وكلها منشود. لأنه كمال لا يقاس إلا بمقياس الكمال، وأنه ليوافق مقاييس القوة والتوسط والمصلحة الاجتماعية فى أجمل مطالبها وأصحها على هدى الفكر، وهدى الضمير، ثم لا تستوعبه مدرسة خاصة من هذه المدارس المتفرقة كما تستوعبه مدرسة الإسلام، أو مدرسة الكمال بهداية الأسماء الحسنى.

وخير للمجتمع الإنسانى أن تقاس الأخلاق فيه بهذا القسطاس ولا تقاس بمنفعة تفسد بفساد المجتمع نفسه، وتنحرف مع انحراف نظرته إلى منافعه ومضاره.

فإن المجتمع قد يصاب بآفات الذل والعجز، والهزل، والبخل، والسوء، والقسوة، والبغضاء وسائر الآفات الموبقة من نقائص الخلائق فيصلحها الترياق من الدين، أو يصلحها أن تقلع عنها، ولا يصلحها أن تتمادى فيها.

إن أدب الإسلام فى تصور النورسى يخرج للمجتمع الإنسان الكامل، فيخرج له الإنسان الاجتماعى الكامل فى أقوى صورة وفى أجملها.

والإسلام فى مجموعه بنية حية متسقة، تصدر فى العقائد، والأخلاق من ينبوع واحد، فمن عرف عقيدة المسلم عرف أن الخلق الذى يحمده الإسلام هو الخلق الذى يرتضيه إنسان يؤمن بأن الله رب العالمين، وأن النبوة تعليم لا تنجيم، وأن الإنسان مخلوق مكلف على صورة الله وأن الشيطان يقوى الضعيف ولا يستولى عليه، إلا إذا ولاه زمامه بيديه، وأن العالم بما رحب أسرة واحدة من خلق الله، أكرمها عند الله أتقاها.

والدين الإسلامى بعقائده، وآدابه، أو بجملته وتفصيله، يستحب القوة للمسلم ويأمره بإعداد عدتها من قدرة الروح والبدن، ولكنه يستحبها قوة تعطف على الضعيف، وتحسن إلى المسكين. واليتيم، ويمقتها قوة تصان بالجبروت والخيلاء، ولا ينال الضعفاء منها غير الهوان، والإذلال.

ولا يستحب الإسلام القوة للقوى إلا ليدفع بها عدوان الأقوياء على المستضعفين العاجزين عن دفع العدوان.. ولم يوصف الله بالكبرياء فى مقام الوعيد للكبراء بالنكال والإذلال. إلا ليذكر المتكبر الجبار، أن الله أقدر منه على التكبر والجبروت.

والإسلام يزكى مذهب التوسط فيما يقبل التوسط بالمقادير أو بالدرجات كالإنفاق الذى ينتهى الإسراف فيه إلى اللوم والحسرة. قال تعالى: ﴿**ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً**﴾ [سورة الإسراء].

وقال تعالى: ﴿**والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما**﴾ [سورة الفرقان].

وقال تعالى: ﴿**كلوا من ثمره إذا أثمر وأتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين**﴾ [سورة الأعراف].

ولكن القسطاس فى فضائل الإسلام لا يرجع إلى المقدار والتوسط فيه بل يرجع إلى الواجب وما يقتضيه لكل أمر من الأمور.

فإذا وجب بذل المال كله، وبذل الحياة معه فى سبيل الحق. فلا هوادة، ولا

توسط هنا بين طرفين، وإنما هو واجب واحد يحمد من المرء أن يذهب فيه إلى أقصاه، ولا يصدق هذا على شئون القوة، والكرم وحسب، بل يصدق فى شئون الرحمة. حيث تجب لمن هو أهل لها.

فالإسلام على كراهته الذل لاتباعه يستحب منهم الذل فى الرحمة بالوالدين الشيخين قال تعالى: ﴿**واخفض لهما جناح الذل من الرحمة**﴾.. لأن الذل هنا زيادة فى الرحمة يأتى من كرامة فى النفس، ولا يأتى من هوان فيها.

وخلاصة القول فى الاعتدال فى الخلق الإسلامى: أن المسلم يؤمر بالعمل لدنياه كما يعمل لدينه، ويؤمر بصلاح الجسد كما يؤمر بصلاح الروح. فلا يكون فى هذه الدنيا روحًا محضًا، ولا يكون فيها جسداً محضًا ومن أبى عليه دينه أن يكون فى هذه الدنيا جسداً محضًا فمن العنت أن يقال أنه يعمل ليكون جسداً محضًا فى عالم الرضوان، عالم الروح والصفاء.

إن الأديان جميعًا تنظر إلى النعيم الإلهى. كأنه المثل الأعلى للحياة الدنيوية، وليس فى المثل الأعلى فى الحياة - فى عقيدة المسلم ما يجعله - على زعم المضللين من أعداء الإسلام - جسداً محضًا فى أخلاقه وآدابه، أو يجور على الجانب الأخلاقى فيه.. ومن أبى عليه دينه أن يكون فى الأرض جسداً محضًا فمن السخف أن يقال أنه يرتضى لنفسه أن يكون جسداً محضًا فى جوار الله الذى بلغ به الإسلام غاية ما يتصوره العقل والضمير من التنزيه.

وهذا قسطاس لا يخطئ فى تقويم كل خلق حسن يستحبه الدين فى المسلم.. فإنه مأمور ألا ينسى نصيبه من الحياة الجسدية، ولكنه مأمور فى الوقت نفسه أن ينظر إلى صفات الله الحسنى كما تجلت فى أسمائه التى وردت فى القرآن الكريم، فهى قبلته التى يهتدى بها فى كل مكارم الأخلاق، لا يكلف أن يدرك منها شأو الكمال الإلهى، ولكنه يكلف منها بما فى وسعه، كأنها قطب السماء الذى يهتدى به ملامح البحر وهو يعلم أنه فى فلكه الرفيع بعيد المنال.

ولعل ما جاء عن الأخلاق الإسلامية - فى فكر الإمام النورسى - يرينا أن مما يعنى به الإسلام. بل يجعله نقطة الانطلاق فى كل تصرف إنسانى تكوين إرادة خلقية عند الفرد. وهى الإرادة التى تحمل الفرد من نفسه على أن يكون سلوكه

خلقيًا، يسير فى الخط الذى رسمته التعاليم والوصايا الإسلامية وهي: العزم القوى، والتصميم الحازم الذى لا يقبل التردد ويصدر عنه الفعل صدورا سهلاً، ويصحبه كثير من الارتياح النفسى الداخلى على نحو ما يصدر هذا الفعل عن العادة القوية التى اكتسبها الإنسان، وتمكنت منه وصارت أحد طبائعه وعناية الإسلام بتكوين الإرادة الخلقية عند الفرد يسهم فيها أكثر من فرض من فروض العبادات. وربما تكون الغاية من العبادات جميعها تكوين هذه الإرادة[1].

فالتكليف بالصلاة، والحرص على أدائها فى أوقاتها المحددة والتكليف بالزكاة ووجوب إخراجها، والتكليف بالصوم والحث على تحمله فى الأيام المعدودة، سواء أكان نهارها طويلاً أم قصيرًا، وسواء أكان حارًا أم باردًا.

والتكليف بالحج - للقادر طبعًا - وتأكيد أدائه منه فى صورته المعروفة كل ذلك يضيق من منافذ الهوى والشهوة ويساعد بالتالى على التحكم فى النفس، ويجعل أمر توجيهها مرتبطًا باختيار الإنسان، واختيار الإنسان هو التعبير عن الإرادة الحرة، أى تلك الإرادة التى تحررت من سيطرة الشهوة، وسلطان الهوى.. وإذن تكاليف العبادات فى الإسلام هى وسائل يصدر السلوك الخلقى للإنسان، ولذا كانت إرادته خلقية[2].

ولعلنا ندرك أن الأخلاق لا تفهم بمعزل عن المشيئة والاختيار.. فإننا لا نعرف آلة ذات خلق، وإنما تبدأ الأخلاق حين يبدأ الإدراك والتكليف.

ولولا أن تكليف العبادات مرتبط أداؤه بالله جل شأنه، لما كان له الأثر فى تكوين تلك الإرادة.. لولا أن هناك إيمانًا بالله، ولولا أن المؤمن به حريص على رضائه لما أثمرت فروض العبادات فى توجيه الإنسان إذ أن الإيمان بالله إيمان بموجود دائم، صفاته فى الكمال غير محدودة.

ولذا فارتباط العبادة به يتيح فرصة زمنية طويلة الأجل فى حياة الفرد المؤمن تتكون فيها هذه الإرادة، ولها من القوة ما يمكنها من اداء وظيفتها التوجيهية فى حياته[3].

---

(١) الدكتور محمد البهى " الدين والحضارة الإنسانية "، ص ٢٠٦، ط: كتاب الهلال.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٠٧.

(٣) المرجع السابق.

وصاحب هذه الإرادة الخلقية – بعد ذلك – يسلك فى حياته مسلك الخلق المستقيم، ويعامل غيره معاملة من استطاع السيطرة على أنانيته. لا يرضى أن يظلم نفسه فيحملها عبء العبث، وعبء الشهوة والهوى، ولا يرضى أن يعتدى على غيره فى حق له فى الحياة.. بل ربما لا يقدر أن يظلم نفسه ويعتدى على غيره.. لأنه بتكوين الإرادة الخلقية لديه أصبح شبه مقدور فى تصرفاته[1].

هناك قوة فى الفرد تناط بها تلك الأخلاق، وتتفاوت بها أدوات البناء فى المجتمع، كما تتفاوت بها أدوات البناء فى كل تركيب.. تلك القوة هى ضابط الإرادة أمام الشهوات، والرغبات، ولا يلزم أن تكون تلك الشهوات والرغبات من قبيل العلاقات والمعاملات ليبدو فيها ضابط الإرادة بقوته التى تناط بها الأخلاق.

ومن الواضح أن النسق الخلقى الذى كان النورسى قد وضعه إنما كان يهدف أصلاً إلى تأسيس " فلسفة أخلاقية أصيلة " فوق الأفعال الفردية، غير أن الأخلاق تدخلت فى كافة التصرفات الإنسانية، ونفذت إلى العلاقات العامة بين الناس فى المجتمع، وبهذه الصورة يؤكد النورسى وحدته الفكرية إزاء الإنسان والوقائع المختلفة.

ولا يلبث الإمام النورسى أن يعقد رابطة قوية بين منهجه الخلقى فى تقصى الوقائع والدلالات، ومنهجه الإنسانى فى الانتقال من المعطى الجزئى والواقعة البسيطة إلى الإنسانية الجامعة ويتخلل هذين المنهجين منهج ثالث لدى النورسى ولا يفارقهما. وهو منهجه المنطقى الذى يحترم حرية الفرد، ولا يعزله عن الآخرين..

ويعنينا أن نهتم بالحقائق التى يسمو بها البحث العلمى، وتمد الفكر بكل أصيل، وقد كان الإمام النورسى – بلا شك – من كبار الفلاسفة الذين أثروا الفكر، وجددوا للعقل حيويته، وقد أتى النورسى بفلسفة فى الأخلاق الإسلامية – كما رأينا – دلت على اقتدار العقلية الإسلامية وتميزها حين تتفجر طاقاتها.. ويدلك على تفرد النورسى فيما جاء به أن ما كتبه الفلاسفة المسلمون – والذين يفترض أن الأخلاق تقع ضمن اختصاصهم – موزع الاتجاه، أو هو بعبارة أخرى

(١) الدكتور محمد البهى " الدين والحضارة الإنسانية "، ص ٢٠٧، كتاب الهلال بمصر.

يتجه إلى الفلسفة اليونانية ويتكرس لمذاهبها.. وهذا أول فيلسوف إسلامى أبو يوسف يعقوب ابن إسحاق الكندى، يقال انه كتب رسالة فى تسهيل سبل الفضائل، وأخرى فى الأخلاق، وثالثة فى التنبيه على الفضيلة، ورابعة فى خير فضيلة سقراط.

وقد تعرضت هذه الرسائل لعوامل، لم تجعلها تصل إلى أيدى العلماء المحدثين.. ولو وصلت لما افادت كثيراً فى موضوع الأخلاق الإسلامية. لأن الكندى متأثر بالفلسفة اليونانية وقد أخذ نظرية النفس عن أرسطو وأفلاطون وسائر الفلاسفة..

ومن الثابت لدى الباحثين: أن نظرية النفس عند افلاطون هى أساس نظرية الكندى فى الفضائل، وأكثر من هذا: فإن النظرة اليسيرة ترى أن الكندى متأثر بأرسطو ذلك أنه يقول بنظرية الفضيلة وسط بين الطرفين.

ومضى تلاميذ الكندى فى الاتجاه إلى الأخلاق اليونانية وكتبوا ما كتبوا فيها.

أما أبو نصر الفارابى فله كتاب أراء أهل المدينة وكتاب تحصيل السعادة ومنهج الفارابى فى هذين الكتابين يونانى فى جوهره وكثير من أصوله.. والمدينة الفاضلة أثر مباشر لجمهورية أفلاطون، وكذلك تحصيل السعادة.

يقول دى بور: أن الفارابى يوافق أفلاطون تارة، وأرسطو تارة أخرى وقد يتجاوز أراءهما أحياناً نازعاً منزع تصوف وزهد.

وأحد الباحثين يرى أن معظم جهود الفارابى كانت متجهة إلى تجويد بحوث الفلسفة اليونانية.

والشيخ الرئيس ابن سينا من كبار العباقرة، والفلاسفة الحكماء له كتاب فى علم الأخلاق، وكتاب البر والاثم، ورسالة فى تهذيب النفس.

والاتجاه السائد فى هذه الكتب والرسائل هو النظرة اليونانية، والذين درسوا فلسفة ابن سينا لا يذكرون شيئاً عن مذهبه الخلقى.

وأشهر من ألف فى الأخلاق من القدماء أحمد بن مسكويه، وأشهر مؤلفات ابن مسكويه كتاب "تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق" يقول المستشرق كارادى فو عن ابن مسكويه فى هذا الكتاب: انه لم يفلح من حيث التفاصيل فى التوفيق بين

مختلف النظريات اليونانية الأخلاقية التى أدخلها فى مذهبه، ولا فى التوفيق بينها وبين أحكام الشريعة الإسلامية".

وكثير من العلماء يرى أن ابن مسكويه ينقل عن الفلسفة اليونانية بطريقة صريحة لا لف فيها ولا مداورة، فهو من مجددى فلسفة اليونان مع الحرص بقدر ما يمكن على موافقة الشريعة الإسلامية.

ويؤكد العلماء: بعد ابن مسكويه عن الدين فى فلسفته الأخلاقية وما جاء عنه فى الأخلاق لا يختلف فى قليل ولا كثير عما ذهب إليه أرسطو لا فى أصل الفكرة ولا فى منهجها وتطورها.

والناظر فى كتاب " تهذيب الأخلاق " أو كتاب السعادة أو الفوز الأكبر يرى هذه المحاكاة واضحة كل الوضوح ".

ويكاد يتفق معظم الباحثين على أن الكندى والفارابى وابن سينا وأحمد بن مسكويه أقاموا مذاهبهم فى الأخلاق على أساس من الفلسفة التى ثقفوها عن اليونان معلنين ذلك غير مستخفين.

فإذا جئنا إلى صاحب مقاصد الفلاسفة، وتهافت الفلاسفة: الفيلسوف أبو حامد الغزالى. وجدنا أن أهم مؤلفاته فى الأخلاق كتاب " ميزان العمل " وإن كانت مؤلفاته الأخرى وفى مقدمتها " الإحياء " لا تخلو من الأفكار والمذاهب الأخلاقية.

والغزالى حقيقة قد اهتم بالفضائل وكرس لها فصولاً كاملة فى كتابه " ميزان العمل " وكتابه " إحياء علوم الدين " .. وأخطر ما يواجه الباحث فى الأخلاق الإسلامية عند الغزالى. هو اعتماد الغزالى لنظرية النفس لدى أفلاطون وتقسيماته لقواها.

فالإنسان عند أفلاطون مؤلف من جوهرين: أحدهما منسوب إلى عالم المثال وهو النفس، والآخر منسوب إلى عالم الحس، وهو البدن .. وإذا كانت النفس من عالم المثال وجب أن تكون إلهية وأزلية وأبدية ومعنى أزليتها وجودها قبل البدن. ومعنى أبديتها بقاؤها بعد الموت وخلودها وقد اقتبس أفلاطون فكرة وجود النفس

قبل البدن من تعاليم "فيثاغورس" وأغلب الظن أنه أمن بها إيمانًا حقيقيًا، وذلك أن النفس الإنسانية فى نظره شبيهة بنفس العالم. فنفس العالم أول ما خلق الصانع وهى إلهية مثله. وهى مبدأ حركة العالم المنظمة، وهى علة الحياة بوجه عام. أما النفس الإنسانية الشبيهة بنفس العالم من كل وجه فهى مبدأ حركة الجسم، وفيها مبدأ خالد ينظم حركاتها، وهذا المبدأ الخالد هو العقل.

والنفس الإنسانية عند أفلاطون ثلاث قوى وهى:

١ – القوة الشهوانية وهى مجموع الشهوات الجسدية والحسية، ومهمتها رئاسة الوظائف الغذائية والجنسية وفضيلتها: العفة.

٢ – والقوة الغضبية، وهى مجموع الغرائز النبيلة والكريمة، ومهمتها حفظ كرامة الفرد، وفضيلتها: الشجاعة.

٣ – والقوة العاقلة، وهى قوة النظر والتأمل، ومهمتها إدراك الحقيقة والسيطرة على القوة الغضبية والقوة الشهوانية، وفضيلتها: الحكمة[١].

فإذا أخذت تفتش فيما كتبه الغزالى عن الأخلاق والفضائل وجدت أنه متأثر إلى حد كبير بنظرية أفلاطون فى النفس والفضائل، والجديد فى كلام الغزالى هو التوفيق بين أفلاطون ونظريته فى النفس وبين فضائل القرآن..

يقول الغزالى: " ومهما أصلحت القوى الثلاث – الشهوية والغضبية والعقلية – وضبطت على الوجه الذى ينبغى، وإلى الحد الذى ينبغى، وجعلت القوتان – الشهوية والغضبية – منقادتين للثالثة التى هى الفكرية العقلية، فقد حصلت العدالة وبمثل هذا العدل قامت السموات والأرض، وهى جماع مكارم الشريعة.

وطهارة النفس، وحسن الخلق المحمود، بقوله عليه السلام: "أكمل المؤمنين إيمانًا، أحسنهم أخلاقًا، وألطفهم بأهله".. وقوله عليه السلام: "أحبكم إلى أحاسنكم أخلاقًا، الموطئون أكنافًا، الذين يألفون ويؤلفون".

وثناء الشرع عن الخلق الحسن خارج عن الحصر، ومعناه: إصلاح هذه القوى

---

(١) الدكتور جميل صليبا، تاريخ الفلسفة العربية، ص ٤٤، ٤٥، ط: دار الكتاب اللبنانى، بيروت.

الثلاث، وقد جمعه الله سبحانه وتعالى فى قوله: **﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله، ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون﴾**. فدل بالإيمان بالله ورسوله مع نفس الارتياب على العلم اليقينى، والحكمة الحقيقية التى لا يتصور حصولها إلا بإصلاح قوة الفكر.. ودل بالمجاهدة بالأموال على العفة والجود اللذين هما تابعان بالضرورة إصلاح الشهوة.. ودل بالمجاهدة على النفس على الشجاعة والحلم اللذين هما تابعان لإصلاح الحمية، وإسلاسها للدين والعقل[1].

وإذا كان الغزالى قد تأثر بأفلاطون ونظريته فى النفس والفضائل فقد تأثر أيضاً بالوسط الأرسطى. وهو المبدأ الذى يقوم على أن الفضيلة وسط بين رذيلتين، وهذا المبدأ يسمى فى فلسفة الأخلاق بنظرية الأوساط.

وملخص هذه النظرية: أن كل فضيلة من الفضائل هى وسط بين طرفين كلاهما رذيلة. فالشجاعة مثلاً وسط بين الجبن والتهور، والكرم وسط بين الشح والإسراف، والعفة وسط بين الفجور والجمود، وهكذا..

وقد بلغ اهتمام الغزالى بالوسط الأرسطى أن أول آيات القرآن الكريم لكى يحملها على التوافق معه، فقوله تعالى: **﴿فاستقم كما أمرت﴾** معناه عند الغزالى: "يعنى الاستمرار على الصراط المستقيم وطلب الوسط بين هذه الأطراف شديد وهو أدق من الشعرة وأحد من السيف" [2].

وعلى الرغم من إدراك الغزالى للفضائل الإسلامية وكثرة تعددها وتجاوز عددها للتقسيم الأفلاطونى الضيق. فإنه تمسك بذلك التقسيم وقال تحت عنوان: " أمهات الفضائل " فى كتاب " ميزان العمل ": الفضائل وإن كانت كثيرة فتجمعها أربعة: تشتمل شعبها وأنواعها وهى: الحكمة، والشجاعة، والعفة، والعدالة، فالحكمة فضيلة القوة العقلية، والشجاعة فضيلة القوة الغضبية، والعفة فضيلة

---

(١) الغزالى، ميزان العمل، ص ٢٣٤، ٢٣٥، تحقيق: الدكتور سليمان دنيا، ط: دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٤م، الطبعة الأولى.

(٢) الغزالى، المصدر السابق، ص ١٦٨.

القوة الشهوانية، والعدالة عبارة عن وقوع هذه القوة على الترتيب الواجب فيها تتم جميع الأمور، ولذلك قيل: بالعدل قامت السموات والأرض " (١).

ومن المؤكد أن الغزالى أدرك أن كثيراً من العلماء لا يرضيهم أن يصل تأثره بالفلسفة اليونانية إلى هذا الحد. فراح يعترف بنقل الأفكار ويسوغ ذلك، قائلاً: ولقد اعترض على بعض الكلمات المبثوثة فى تصانيفنا ولم تنفتح إلى أقصى غايات المذاهب بصائرهم.

وزعم أن تلك الكلمات من كلام الأوائل، مع أن بعضها عن مولدات الخاطر، ولا يبعد أن يقع الحافر على الحافر " وبعضها يوجد فى الكتب الشرعية وأكثرها موجود معناها فى كتب الصوفية، وهب أنها لم توجد إلا فى كتبهم، فإذا كان ذلك الكلام معقولاً فى نفسه، مؤيداً بالبرهان ولم يكن على مخالفة الكتاب والسنة، فلم ينبغى أن يهجر وينكر (٢).

وأنت ترى من كلام الغزالى هذا أنه يحاول أن ينفى التأثر باليونان وفى الوقت نفسه يضع تبريراً لهذا التأثر.. ويقال أن الغزالى حاول أن يطبع ما أخذه عن اليونان بطابع إسلامى صوفى (٣).

وهذا كله يدلنا على أن الفلاسفة المسلمين كان تأثرهم بالفلسفة اليونانية وغيرها فى الأخلاق يحجب عنهم الرؤية الصحيحة لاكتشاف الفلسفة الأخلاقية فى الإسلام. إلى أن جاء الفيلسوف الكبير الإمام بديع الزمان سعيد النورسى فأدرك تصور الفلاسفة المسلمين، واستطاع بعقليته الفذة، وعبقريته الفريدة، وإيمانه الراسخ أن يؤسس فلسفة خلقية إسلامية، لم تشأ أن تنقل الإنسان من طبيعته، ولم تحاول أن تقوم جانباً وحده دون جانب آخر.. ومحاولتها فى التوجيه أن تحقق للإنسان ذاتيته الإنسانية.

بقلم الدكتور أحمد عبد الرحيم السايح

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٦٤.

(٢) الغزالى، ميزان العمل، ص ١٤٤، ط: دار المعارف بمصر، الطبعة الأولى.

(٣) الدكتور محمد يوسف موسى، تاريخ الأخلاق، ص ٢٠١.

الفصل السادس

عقيدة الإيمان باليوم الآخر

إن المتأمل لماهية بناء الدين فى ذات الإنسان يقف على أن العقيدة هى العقد اللازم للإنسان منذ كان، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. والعقيدة فى لسان الشرع: هى المعتقد النفسى الذى تطمئن إليه النفس ويمتلئ به القلب.

وعقيدة الإيمان باليوم الآخر من أهم العقائد وأخطرها فى البناء الإيمانى، لأن تحقيق الإيمان بالله يقتضى الإيمان باليوم الآخر، لتكامل أركان الإيمان فى ذات الإنسان[1].

وهذا هو الميلاد الحقيقى على طريق المؤمن فى حياته الدنيا والآخرة لأن هذا الإيمان يتوقف عليه قبول الإنسان لتشريعات ربه مما يشكل سلوكه ومعاملاته فى الدار الأولى ويحقق جزاءه عليها فى الآخرة فى دائرتى: التكاليف الإيمانية والتكاليف العملية.

ولذا اقتضت حكمة الخالق – سبحانه وتعالى – أن يكون لكل مخلوق أجل يعقبه ميلاد للخلائق ليوم الجزاء ليروا ما كسبت أيديهم وما اقترفوه فى دنياهم من أعمال، ﴿**فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره**﴾ (الزلزلة: الآية ٨). تحقيقا للعدل الإلهى.

فاليوم الآخر: هو يوم القيامة الذى تنتهى فيه الحياة الدنيا، وتبدل الأرض غير الأرض والسموات.

والحديث عن عقيدة الإيمان باليوم الآخر يقتضى البيان للمحاور التالية:

مفهوم الإيمان باليوم الآخر فى القرآن؟

ولماذا سمى هذا اليوم بهذا الاسم؟.

وما هى المفاهيم التى أطلقت عليه وما مراتب الخلق فيه؟

---

(١) راجع د. سامى حجازى فى بحث العلاقة بين العقيدة والأخلاق – مخطوط بكلية أصول الدين القاهرة.

وما أثره فى حياة الإنسان من خلال رؤية كليات رسائل النور للإمام بديع الزمان سعيد النورسى ممثلة فى:

* الحكمة الإيمانية لليوم الآخر.
* الإيمان باليوم الآخر بين النقل والعقل.
* ضرورة الإيمان باليوم الآخر.
* الثمرات العملية للإيمان باليوم الآخر.

إن المتامل فى عقيدة الإيمان باليوم الآخر، وما فيه. يدرك ماهية الموقف وما يتلوه من: الشفاعة. ثم الحساب. ثم الصراط ثم إما الجنة أو النار.

وذلك لانه بالنفخة الأولى تنتهى الحياة [1] البرزخية فى القبور. قال تعالى: **﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم. يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها. وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾** (الحج، الآيات: ١ - ٣).

وبالنفخة الثانية يقوم الناس من قبورهم إلى الحياة بعد الموت للحشر والبعث والحساب والثواب والعقاب، وهذه المرحلة هى مرحلة يوم القيامة أو اليوم الآخر. قال تعالى: **﴿ ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله. ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾** (الزمر، الآية: ٦٨). ولذا فالحديث يدعونا لبيان المحاور السابقة.

أولا: مفهوم الإيمان باليوم الآخر:

فاليوم الآخر: هو اليوم الذى أمر المؤمن بالإيمان به كما ورد فى مفهوم الإيمان: "أى بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر"[2].

---

(١) فالحياة البرزخية يكون الحساب فيها على الاعتقاد والتصديق الاعتقادى والحياة الآخرة يكون الحساب فيها على العمل والسلوك.

(٢) رواه الشيخان.

وهو اليوم الذى يقوم فيه الخلائق لرب العالمين للسؤال عن أعمالهم ومحاسبتهم عليها قال تعالى: ﴿ **يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره** ﴾ (الزلزلة، الآية ٨).

كما أخبرنا القرآن الكريم عن وصف هذا اليوم فى قول الله تعالى: ﴿ **ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم. يوم يقوم الناس لرب العالمين** ﴾ (المطففين، الآية ٦).

كما جاء فى وصف المؤمنين فى القرآن الكريم بما أنزل إلى نبيه محمد (وسلم وما أنزل من قبله من المرسلين لإيقانهم باليوم الآخر، وأن الإيمان لا يكمل إلا به، ويتلخص فى إيقانهم بما كان المشركون به جاحدين للبعث والنشور، والحساب والميزان.. مما أعد الله لخلقه فى هذا اليوم الآخر، كما ورد عن ابن عباس فى تفسيره لقوله تعالى: ﴿ **وبالآخرة هم يوقنون** ﴾[1].

أى بالبعث والقيامة والجنة والنار والحساب والميزان.. وبكل وقائع هذا اليوم الآخر بخلاف ما يعتقده هؤلاء الذين يزعمون أنهم آمنوا بما كان قبلك ويكفرون بما جاءك من ربك مع اليقين بتحقيق هاتين النفختين كما أخبرنا الحق تعالى فى قوله: ﴿ **يوم ترجف الراجفة. تتبعها الرادفة** ﴾ (النازعات، الآية ٧).

فالراجفة: النفخة الأولى:

والرادفة: النفخة الثانية.

ومآل هذا البيان كما يقول: صاحب دراسة كليات رسائل النور فى مجلد إشارات الإعجاز فى مظان الإيجاز: "أنه من المقاصد الأساسية للإيمان الذى هو مفتاح للسعادة الأبدية"[2]. المعلن عنه فى وصف المتقين.

قال تعالى: ﴿ **ألم. ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين. الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون. والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما**

---

(١) سورة البقرة: الآية (٤) وراجع أبا جعفر محمد بن جرير الطبرى، جامع البيان فى تفسير القرآن جـ ١، ص ٢٣٥، دار المعارف.

(٢) الإمام بديع الزمان سعيد النورسى، كليات رسائل النور، المجلد السادس ص ٦١.

أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون. أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾ (البقرة، الآيات من ١ - ٥).

ومع أن الإيمان بالآخرة من جملة الإيمان بالغيب. إلا أننا نجد صفات المتقين في هذه الآيات الكريمة بدأت بالإيمان بالغيب وانتهت باليقين التام باليوم الآخر لما لهذا الإيمان بذلك اليوم من عظيم المكانة لدى المؤمنين.

وعلى كل حال. فإن الإيمان بالغيب من أعلى درجات الإيمان وأرفع منازل التقوى، لأنه اختبار حقيقي لصدق الإيمان، كما أنه فرقان بين الإيمان والكفر[١]. ثم بين آدمية الإنسان واستخدامه لعقله، وبين الحيوانية واقتصارها على عالم الحواس[٢]. إذ إنه من البديهي أن المحسوسات التي يشاهدها الإنسان بحواسه لا يصبح له فضل في التصديق بها، لأنه يستوي في التصديق بها المسلم والكافر، فأي فضل للإنسان أن يؤمن بأن الشمس في وضح النهار طالعة مشرقة؟!

وعلى هذا فالإيمان الذي يتميز به العبد المؤمن الصادق عن الملحد الجاحد هو الإيمان بما قامت الأدلة والبراهين عليه نقلية كانت أو عقلية بخلاف أن يلمسها بحواسه فقط. وهذا شأن كل رسالات الوحي الإلهي، وأنه لا يوجد رسول أرسل إلى قومه إلا وقد أنذرهم عذاب اليوم الآخر.

ضرورة أن هذا من أصول عقيدة جميع الأنبياء حتى إن المتأمل في سورة "هود" ليقف على أن الله تبارك وتعالى - بعد أن ذكر قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم - يعطينا العبرة في آية موجزة قال تعالى: **﴿إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود﴾** (هود، الآية ١٠٣).

---

(١) ويوقفنا على هذا المعنى قول الله تعالى في سورة الزمر: "وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون" سورة الزمر الآية ٤ وراجع الدكتور محمد عبد المهيمن عقيدة البعث في القرآن الكريم.

(٢) راجع الشيخ عبد المجيد الزنداني في بحثه توحيد الخالق ص ١٢١١ مؤسس الكتب الثقافية، بيروت ط الأولى ١٩٨٨م. نقلا عن المرجع السابق.

ولذا يقول بديع الزمان النورسى: إن الإيمان بالله تعالى نقطة استناد قوية ونفطة استمداد لا تنضب لترسيخ الإيمان الله واليوم الآخر[1].

ثانيا: وجه تسميته باليوم الآخر:

سمى هذا اليوم بهذا الاسم للأقوال التالية:

قيل: لأنه آخر أيام الدنيا كما يقول أئمة العلماء، وسميت الآخرة آخرة لتأخرها عن بداية الخلق، كما سميت الدنيا دنيا لدنوها من الخلق.

وقول آخر: لأنه لا ليل بعده، وهو الوقت الممدود الذى لا حد له، وهو الأبد الدائم الذى لا ينقطع له أمد.

وقيل اليوم الآخر ابتداء من الموت، فإن كل من مات فقد دخل فى حكم الآخرة لقول الرسول ﷺ إن القبر أول منازل الآخرة.

وقيل: لأنه آخر إلى أن يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار مرورا بالوقوف بين يدى الله تعالى أولا ثم بالحساب ثانيا ثم بالثواب والعقاب وما يتبعهما من ميزان وصراط وحوض.. أى آخر الأوقات المحدودة، وما بعده فلا حد له[2]. وهو وقت اجتماع الأولين والآخرين فى صعيد واحد، وهذا مما استأثر الله تعالى بعلم وقته[3].

ثالثا: الأسماء التى أطلقت على اليوم الآخر:

لقد تعددت أسماء هذا اليوم لكثرة ما ورد فيه من أحداث ووقائع فصلها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

---

(١) الإمام بديع الزمان: كليات رسائل النور مجلد المكتوبات ص ٥٤٥.

(٢) الإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازى فى تفسيره وراجع تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد جـ ٢، ص ٦٢. للباجورى. وأخرجه لإمام الترميذى فى مسنده كتاب الزهد باب رقم (٥) بدون ترجمة٤ / ٥٢٣ حديث رقم ٢٣٠٨ عن عثمان بن عفان رضى الله عنه وقال أبو عيس هذا حديث حسن ط مصطفى الحلبى تحقيق إبراهيم عطوة وغيره.

(٣) النهاية فى الفتن والملاحم لابن كثير، جـ ١ ص ٣١.

– يوم الدين: كما ورد فى قول الله تعالى: ﴿ **يصلونها يوم الدين. وما هم عنها بغائبين. وما أدراك يوم الدين. ثم ما أدراك ما يوم الدين. يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله** ﴾ (الانفطار، الآيات من ١٥ – ١٩).

– يوم البعث: لأن فيه البعث إلى الحياة الجسدية بعد الموت. قال تعالى: ﴿ **وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم** ﴾ (الروم، الآية: ٢٧).

– يوم الخروج: لأن فيه خروج الخلق من قبورهم إلى الحياة الآخرة، كما قال تعالى: ﴿ **يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج** ﴾ (ق، الآية: ٤٢).

– يوم القيامة: لقيام الخلق فيه من قبورهم إلى حساب الله تعالى وقد أقسم الحق تبارك وتعالى بهذا اليوم فقال: ﴿ **لا أقسم بيوم القيامة** ﴾ (القيامة، الآية: ١).

– يوم الفصل: لأن فيه الفصل بين الخلائق بالعدل بعد أن يجمع الله فيه الأولين والآخرين ويجازى كل مخلوق بعمله الذى حصله. قال تعالى: ﴿ **وإذا الرسل أقتت. لأى يوم أجلت. ليوم الفصل. وما أدراك ما يوم الفصل** ﴾ (المرسلات، الآيات: ١١: ١٤).

– يوم الحشر: لأن فيه جمع الخلائق وحشرهم فى موقف الحساب وأن أول اليوم الآخر يبدأ بالحشر. قال تعالى: ﴿ **يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير** ﴾ (ق، الآية ٤٤).

– يوم الحساب: لأن فيه محاسبة الخلق على أعمالهم فى الدنيا. قال تعالى: ﴿ **وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب** ﴾ (ص، الآية: ١٦).

– يوم الوعد والوعيد: لأن فيه تحقيق وعد الله للصادقين ووعيده للطالحين، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ **ونفخ فى الصور ذلك يوم الوعيد** ﴾ (ق، الآية: ٢٠).

– يوم الحسرة: لأن فيه حسرة الكافرين والعصاة على ما اقترفوه، قال تعالى: ﴿ **وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون** ﴾ (مريم: ٤٤).

– يوم الخلود: لأن الحياة فى هذا اليوم للمكلفين فى الدنيا حياة خالدة أبدية،

قال تعالى: ﴿ **ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود** ﴾ (ق، الآية: ٣٤).

* إلى غير ذلك من أسماء ملاحظ فيها التسمية "باليوم" أخذا من الظرف الزمانى الموافق لهذه الحياة الثانية.

* وقد وردت أسماء أخرى ملاحظ فيها التسمية "بالدار" أخذا من الظرف المكنى المستلزم لهذه الحياة المادية الثانية ومنها الأسماء التالية:

– الدار الآخرة: لأن هذه الحياة الثانية حياة مادية تستلزم مكانا وقد ورد النداء على مكانها اسم الدار.

– دار القرار: لأن فيها الاستقرار الدائم بلا فناء.

– دار الخلد: لأن الإقامة فيها خالدة أبدية.

* كما وردت أسماء أخرى ملاحظ فيها "معنى تحقق وقوع ذلك اليوم أو ملاحظ فيها: ما يقع فيه من أحداث جسيمة فقد وردت تسمية القيامة بما يلى:

– الحاقة: لأنها تحق كل مجادل ومكابر فى دين الله بالباطل، وهو اليوم الذى يحق فيه الحق قال تعالى: ﴿ **الحاقة ما الحاقة. وما أدراك ما الحاقة..** ﴾.

– الواقعة: أخذا من تحقق وقوعها.

– القارعة: لأنها تقرع الخلق بأهوالها وتفزعهم قال تعالى: فى حق المؤمنين ﴿ **لا يحزنهم الفزع الأكبر..** ﴾.

– الغاشية: أخذا مما يجرى فيها من غشيان للثقلين ﴿ **الإنس والجن** ﴾ بأهوالها قال تعالى: ﴿ **هل أتاك حديث الغاشية..** ﴾ أى يوم القيامة.

– الآزفة: وهى القريبة وسميت بهذا الاسم إشعارا بقربها، وتحقق وقوعها[١].

كما سميت بالصاخة وبالطامة.. والصاخة: صبيحة يوم القيامة والمراد المبالغة فى إسماعها حتى تكاد تصم أملها قال تعالى: ﴿ **فإذا جاءت الصاخة، يوم يفر المرء**

(١) راجع الشيخ سيد قطب فى مؤلف مشاهد القيامة وراجع العقيدة الإسلامية للأستاذ عبد الرحمن حسن.

من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه﴾ (عبس، الآية: ٣٧).

والطامة لأنها تطم على كل أمر هائل فى الفظاعة قال تعالى: **﴿فإذا جاءت الطامة الكبرى. يوم يتذكر الإنسان ما سعى﴾** (النازعات، الآية: ٣٥).

وهذه الأقوال لا فرق بينها إلا من حيث عموم الإطلاق واعتبار الموت كبداية لليوم الآخر كما تبين فيما تقدم.

فالموقف هو اليوم الطويل الذى يشتد فيه الهول على العباد فى ساحة العدل الإلهية.

ومن هنا اهتمت كليات رسائل النور للأخذ بيد الإنسان لتجلية أهمية ترابط أركان الإيمان، وذلك للأسباب التالية:

أولا: إن كليات رسائل النور برهان بديع للقرآن المعجز البيان، وتفسير قيم له، وترجمة معنوية نابعة من فيوضاته، المنطلقة من مقاصده الأساسية متمثلة فى:

- التوحيد.
- النبوة.
- الحشر.
- العدالة[1].

يقول: إن هذه المقاصد كالأنهار الجارية التى تنبع من قبلة واحدة، أقامها الوحى الإلهى ممثلة فى الإيمان بالله واليوم الآخر وما بينهما.

ولذا يخاطب بديع الزمان الموجودات قاطبة فى مؤلفه إشارات الإعجاز فيقول: نحن معاشر الموجودات نجئ بارزين من ظلمات العدم بقدرة سلطان الأزل، إلى ضياء الوجود.. ونحن معاشر بنى آدم بعثنا من بين إخواننا الموجودات بحمل

---

(١) الإمام بديع الزمان النورسى إشارات الإعجاز فى مظان الإيجاز، جـ٥، ص ٢١، ط ١٩٩٤م وراجع مرشد اهل القرآن إلى حقائق الإيمان ص ٦٧.

الأمانة.. ونحن على جناح السفر من طريق الحشر إلى السعادة الأبدية، ونشتغل الآن بتدارك مفاتيح تلك السعادة وتنمية الاستعدادات التى هى رأس مالنا..[1].

كما يوجه بديع الزمان حديثه للإنسان فى المثنوى العربى النورى فيقول: أعلم: أيها السعيد الشقى: أن القبر باب باطنه الرحمة وظاهره من قبله العذاب.. وأداؤك ومن تحب أكثرهم - حتى كلهم - ساكنون خلف هذا الباب ألم يأن لك أن تشتاق إليهم وإلى عالمهم.. فتنظف؟ وإلا استقذروك.

ثم يدلل على هذا فيقول: وكلهم خلف باب القبر فى رحمة الله ساكنون. فلا بد أن يكون نصب عينك دائما طلب الصراط المستقيم، واتقاء المخالفة ليس هذا فحسب، بل ودوام الافتقار إلى رحمة الله تعالى.

وذلك بمعنى أن كان عملك لله تعالى، كان لك كل شيء، وإن لم يكن له تعالى كان عليك كل شيء، وكل شيء بقدر، فارض بما آتاك تزد يسرا على يسر، وإلا زدت مرضا على مرض.

ثم يرتب النتيجة المبنية على تلك المقدمات فيقول: الملك له، ويشتريه منك ليبقيه لك.. بالإحسان إلى نفسك حين تساق إلى باب القبر المفتوح لك، ولا لذة للقلب حقيقة فيما لا دوام فيه، تزول أنت، وتزول دنياك، وتزول دنيا الناس.. ويستمر يدلل فى بيان استقرائى إلى أن يقول: فلا تهتم بما يبقى لك أثرا فى الفانى ويفنى عنك فى الباقى[2].

كما يأخذ بديع الزمان بيد الإنسان فى مرشد أهل القرآن إلى حقائق الإيمان فيقول: إن التفكر نور يذيب الغفلة الباردة الجامدة، والدقة نار تحرق الأوهام المظلمة اليابسة ثم يفصل هذا البيان فيقول: إذا تفكرت فى نفسك فدقق وتمهل وتغلغل وفصله تفصيلا.. وإذا تفكرت فى الآفاق فأجمل وأسرع ولا تغص، ولا تخض إلا بقدر إيضاح القاعدة[3]. والمقصد فى دائرتى: التكاليف الإيمانية..

---

(١) الإمام بديع الزمان النورسى إشارات الإعجاز جـ٥، ص ٢٢.

(٢) راجع الإمام بديع الزمان كليات رسائل النور مجلد المثنوى العربى النورى جـ٦، ص ٢٣٢.

(٣) الإمام بديع الزمان سعيد النورسى: مرشد أهل القرآن إلى حقائق الإيمان ص ١٧ ترجمة الأستاذ إحسان الصالحى ط الأولى ١٩٩١م وراجع المرجع السابق ص ٢٥٦.

والتكاليف العملية. إلى أن يقول: وليكن نصب عينيك أنه لا خلاص إلا بالإخلاص، وأهم طريق لكسب الإخلاص، وأعظم وسيلة مؤثرة للمحافظة عليه هو: رابطة الموت، فكما أن طول الأمل يفسد الإخلاص ويسوق الناس إلى حب الدنيا وإلى الريا، فإن رابطة "الموت" تنفر من الرياء، وتجعل المرابط معه يحرز الإخلاص، إذ تخلصه من دسائس النفس الأمارة، وذلك بتذكر موته وبملاحظة فناء الدنيا وزوالها. قال تعالى: ﴿ **كل نفس ذائقة الموت** ﴾. وأمام تحقق اليقين بهذا النداء يزول توهم البقاء وحلم الأبدية الذى يولد طول الأمل فى الدار الفانية[١].

إذ الإنسان يمكنه مشاهدة جنازته وهى ثمرة محمولة على شجرة عمره القصير، وإذا ما حول نظره قليلا لا يرى موته وحده، بل يرى أيضا موت عصره، حتى إذا جال بنظرة أكثر يرى موت الدنيا ودمارها، وعندها ينفتح أمامه الطريق إلى الإخلاص التام، حتى يكتسب الإنسان حضورا وسكينة بالإيمان التحقيقى وباللمعات الواردة عن التفكر الإيمانى فى المخلوقات. وهذا التأمل يسوق صاحبه إلى معرفة الخالق سبحانه، فتنسكب الطمأنينة والسكينة فى القلب، وبهذا ينجو الإنسان من الرياء ويتخلص منه، فيظفر بالإخلاص بإذن الله تعالى[٢].

ويعمق بديع الزمان هذا الإدراك فى ذات الإنسان فى كل زمان ومكان فيقول: "إن بذرة واحدة تحت التراب تنشئ بموتها حياة سنبلة وتتقلد من الحبات الوظيفية بدلا عن حبة واحدة"[٣].

نعم فالجنة ليست رخيصة، كما أن النار ليست زائدة عن الحاجة. ولهذا وذاك ينادى بديع الزمان الإنسان حامل الأمانة ويقول:

اعلم: يا طالب الدنيا!!! لابد أن تركها لأمور أربعة:

أولا: فلأنها سريعة الزوال.

---

(١) راجع كليات رسائل النور للإمام بديع الزمان النورسى مجلد اللمعات، جـ٣، ص ٢٤٦ وما بعدها.

(٢) راجع الإمام بديع الزمان النورسى كليات رسائل النور مجلد اللمعات جـ٣، ص ٢٤٧.

(٣) راجع المرجع السابق مجلد المكتوبات جـ٢، ص ٥٤٩.

وثانيا: فلأن لذائذها منغصة بآلام مقارنة وأكدار متعاقبة.

وثالثا: فإن ما ينتظرك وأنت تذهب إليه.. باب إلى الآخرة.

ورابعا: فلأن الموازنة بين العمر المحدود والعمر الممدود، تقتضى أن العمر الأول المحدود بين الأعداء والمؤذيات المضرة، والعمر الثانى الممدود بين أحبابك وكل ما تحب، وفوق هذا وذلك لينعم بأن يكون فى دائرة الخطاب الإلهى وجوه يومئذ إلى ربها ناظرة.

وفى ضوء هذا البيان يحلل بديع الزمان بثاقب فكره وقوة حجته فى كليات رسائل النور مقاصد القرآن الأساسية، وأنها درس قرآنى يوافق أفهام العصر وكل عصر، كما أنها تفسير شهودى للقرآن الذى يبعث الأمل للحياة فى الناس والبعد عنه يقتلهم.

- إن معطيات العصر من فيوضات المادة والذين يبحثون عن كل شيء فى المادة يضعون عقولهم فى عيونهم، والعين لا تبصر المعنويات ولا غيبيات الدين[1].

- إن إحياء الدين، إحياء للأمة، وحياة الدين نور الحياة[2]. التى مبناها وأساس تحققها أركان الإيمان الستة.

نعم! فما دامت الحياة هى حكمة خلق الكائنات، فلا تنحصر تلك الحقيقة السامية فى هذه الحياة الدنيا الفانية وإنما فى الحياة الآخرة[3].

- إن الأمة الوسط من حيث العموم وبسبب معطيات العصر ودعوى المدنية قد برد إيمانها بالآخرة، فلم يعد أبناؤها يهزهم خبر اليوم الآخر، ولم يعودوا يعملون لذلك اليوم العظيم فابتعدت حياتهم عن أن توازن بميزان الإسلام والفطرة التى فطرهم عليها خالقهم، فألهم الله بديع الزمان النورسى بتحديد الداء والدواء ليذكرهم بنور الحق.

---

(١) راجع بديع الزمان النورسى كليات رسائل النور مجلد إشارات الإعجاز فى مظان الإيجاز، وراجع مجلد المكتوبات جـ ٢، ص ٦٢٢.

(٢) المرجع السابق مجلد المكتوبات جـ ٢، ص ٦٠٦ ونفس المجلد ص ٦٠.

(٣) المرجع السابق مجلد اللمعات ص ٥٦٤ بتصرف مع تقديم وتاخير.

ومن هنا كانت كليات رسائل النور، وفى مقدمتها الحديث عن الإيمان بعقيدة اليوم الآخر، ليوقظ فى نفوسهم ربط الإيمان بالله بالإيمان باليوم الآخر[1]. وليكشف لهم عن ضرورة الإيمان بهذا اليوم فى تفسير شهودى كأنهم يرونه قائلا: أيها المبعوثون إنكم مبعوثون ليوم عظيم، وأن باب القبر باب رحمة وليس باب إعدام لمن تحقق بأركان الإيمان، وامتثل لنداء المعصوم ﷺ جددوا إيمانكم بلا إله إلا الله — قيل: يا رسول الله كيف نجدد إيماننا؟

قالوا: أكثروا من قول لا إله إلا الله [2].

فالإيمان نور لحياة كل إنسان، كما أنه ضياء للعوالم التى يدخلها، وما "لا إله إلا الله" إلا مفتاح يفتح ذلك النور[3].

ومن هنا كانت الحاجة إلى تجديد الإيمان فى كل يوم، بل فى كل ساعة وفى كل لحظة ليكون المؤمن متسلحا بنور الإيمان من جانب وليكون مستعدا لآخرته من جانب آخر.

والإمام بديع الزمان فى إثباته وبيانه لماهية الإيمان باليوم الآخر يلجأ إلى استقراءات تفصيلية من حياة الناس اليومية، ومشاهد الطبيعة المنظورة والتحليلات الفكرية التجريدية ليبنى منها بلغة العصر ومصطلحاتها بيانا ليوم الحساب وأهمية الإيمان باليوم الآخر، مستلهما البيان من قول الله تعالى: **﴿ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره. ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إلا أنتم تخرجون﴾** (الروم، الآية: ٢٥).

حيث تشير هذه الآيات الكريمة إلى أن السماوات والأرض بمثابة معسكرين فى أتم طاعة وانقياد. ليس هذا فحسب، بل وعلى أتم نظام وانتظام، وما فيهما من

---

(١) المرجع السابق للإمام النورسى مجلد اللمعات وراجع دكتور محسن عبد الحميد النورسى متكلم العصر.

(٢) رواه الإمام احمد والحاكم والنسائى والطبرانى بسند حسن عن أبى هريرة راجع كشف الخفا للعجلونى.

(٣) راجع الإمام بديع الزمان النورسى مجلد المكتوبات ص ٤٢٧ وما بعدها.

مخلوقات راقدة تحت غطاء الفناء وستار العدم تمتثل بسرعة تامة، وطاعة كاملة أمرا واحدا، أو إشارة من النفخ فى الصور لتخرج إلى ميدان الحشر والامتحان..

فانظر كيف عبرت الآية الكريمة عن الحشر والقيامة بأسلوب معجز رفيع، وكيف أشارت إلى الدليل الإقناعى فى ثنايا المدعى، مثلما تخرج البذور التى تسترت فى جوف الأرض كالميتة، والقطرات التى انتشرت مستترة فى جو السماء وانتشرت فى كرة الهواء، وتحشر بانتظام كامل وفى سرعة تامة، فتخرج إلى ميدان التجربة والامتحان فى كل ميلاد (ربيع) حتى تتخذ الحبوب فى الأرض والقطرات فى السماء صورة الحشر والنشور، كما هو مشاهد، وهكذا الحشر الأكبر.

ولذا تبرهن كليات رسائل النور على أنه لا ينكر ضوء الشمس إلا من فى عينيه رمد، فمن شاهد هذا لا يقدر على إنكار الحشر واليوم الآخر. وعلى المسلم الالتزام بما ورد فى الوحى الإلهى، ولا يعطى عقله الفرصة ليحلق بعيدا عن النقل لأنه لا يملك وسيلة التحليق فى أمر غيبى[1]. كالحشر: الذى هو سوق الناس جميعا بعد إحيائهم إلى الموقف الذى يقفون فيه من الأرض المبدلة للفصل بينهم وهو الموقف الطويل.. الرهيب.. العصيب.. الذى يقضيه الخلائق فى ساحة العدل وقبل أن يشفع رسول الله (وقبل أن يبدأ الحساب حيث مراتب الخلق متفاوتة فيه:

فهمنهم من يحشر راكبا وهو المتقى.

ومنهم الماشى على رجليه وهو قليل العمل.

ومنهم المنبطح على وجهه وهو الكافر[2].

وفى هذا الوقت الرهيب، تنال الخلائق شدائد تتلخص فى:

أولا: طول الوقوف المختلف باختلاف أعمال الخلائق كما قال الحق تعالى: ﴿**يوم يقوم الناس لرب العالمين**﴾ (المطففين، الآية: ٦). وفى هذا المقام يقول أئمة العلماء: يقومون فى يوم مقداره ثلاثمائة عام بل قال عبد الله بن عمر. تلا رسول الله ﷺ

(١) الإمام بديع الزمان النورسى كليات رسائل النور، مجلد المكتوبات، جـ ٢، ص ٥٠٥.
(٢) راجع شرح الخريدة للشيخ أحمد الدردير وأم البراهين للسنوسى.

هذه الآية ثم قال: كيف بكم إذا جمعكم الله كما تجمع النبل فى الكنانة خمسين ألف سنة لا ينظر إليكم[(١)].

ثانيا: إلجام الناس بالعقر: قال ابن عمر قال رسول الله ﷺ يوم يقوم الناس لرب العالمين حتى يغيب أحدهم فى رشحه إلى أنصاف أذنه[(٢)].

ثالثا: سؤال الملائكة للعباد عن أعمالهم قال تعالى: ﴿**وقفوهم إنهم مسئولون**﴾ (الصافات، الآية: ٢٤).

رابعا: شهادة الألسنة والأرجل والأيدى والسمع والبصر والجلد.. والأرض والليل والنهار والحفظة الكرام على المذنبين وتنحية المتقين قال تعالى: ﴿**ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون. حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون. وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا. قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون**﴾ (فصلت، الآيات من ١٨ - ٢١).

خامسا: رؤية جهنم وزبانيتها قال تعالى: ﴿**يوم يتذكر الإنسان ما سعى وبرزت الجحيم لمن يرى فأما من طغى، وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هى المأوى. وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. فإن الجنة هى المأوى**﴾ (النازعات، الآيات من ٣٥ - ٤١).

سادسا: بعث الناس حفاة عراة قال تعالى: ﴿**يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه**﴾ (عبس، الآيات من ٣٤ - ٣٧).

وقال رسول الله ﷺ إنكم تبعثون حفاة عراة غرلا. فعجبت عائشة - رضى الله عنها - وسألت: أينظر بعضهم إلى عورة بعض؟ فأجابها المصطفى ﷺ بقوله: لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ويفر المرء من أمه وأبيه[(٣)].

---

(١) رواه الإمام الطبرانى فى الكبير. والإمام البخارى فى صحيحه فتح البارى كتاب الأنبياء باب قول الله تعالى واتخذ الله إبراهيم خليلاً ٦/٤٧٦ حديث رقم ٣٣٤٩ ط دار الكتب العلمية ببروت.

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان وراجع إحياء علوم الدين للإمام الغزالى.

(٣) رواه الإمام مسلم فى صحيحه.

وينجو من هذه الشدائد والأهوال الأنبياء والأولياء والصالحون كما قرر القرآن الكريم في حقهم قال تعالى: ﴿**إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها. وهم في ما اشتهت أنفسهم خالدون لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون**﴾ (الأنبياء، الآيات من ١٠١ - ١٠٣).

ولذا يخاطب بديع الزمان الإنسان في مجلد الإعجاز قائلا:

أعلم أن قول الله تعالى: خلق الموت والحياة "تدل على أن الموت ليس إعداما وعدما صرفا، بل تصرف وتبديل موضع، وإطلاق للروح من المحبس[١]. هذا من جانب ومن جانب آخر أن الذين لا يؤمنون بالآخرة، لن يتخلصوا من الأزمة المتولدة من إحساسهم بالفناء الأبدى أو الفناء المكتوم الذى لا نور بعده[٢].

وأن المؤمنين سيتحققون بأن الموت إعفاء وإنهاء من كلفة وظيفة الحياة ومشقتها وتسريح من العبودية التى هى تعليم وتدريب في ميدان ابتلاء الدنيا.. كما أن الموت باب وصال لمن سبق من الأحبة الراحلين إلى العالم الآخر.

ويؤكد هذا البيان في مجلد اللمعات فيقول: إن الموت باب للدخول في رحاب الوطن الدائم والمقام الأبدى للسعادة الخالدة.. كما «**أنه دعوة للانتقال من زنزانة الدنيا إلى بساتين الجنة وحدائقها.. وهو الفرصة المتاحة لتسلم الجائزة من خزينة فضل الخالق الرحيم**»[٣].

ومن هنا كانت الحكمة في أن يكون الموت مجهولا وقته، إنقاذا للإنسان من اليأس المطلق، ومن الغفلة المطلقة، وإبقاء له بين الخوف والرجاء، حفظا لدنياه وآخرته من السقوط في هاوية الخسران. أى أن الأجل متوقع في كل لحظة، فإن حل بالإنسان وهو سادر في غفلته يكبده خسائر فادحة في حياة الأخروية الأبدية[٤].

(١) الإمام بديع الزمان كليات رسائل النور مجلد الإعجاز ص ٢١٧.
(٢) المرجع السابق للإمام النورسى.
(٣) الإمام بديع الزمان، كليات رسائل النور، مجلد اللمعات ص ٣٢٣.
(٤) المرجع السابق ص ٣٢٦.

وهكذا يعدد بديع الزمان مراحل الاستعداد لليوم الآخر الذى هو بداية الحياة الحقيقية الدائمة ثم يقول:

"نعم إن الموت لأهل الإيمان باب الرحمة وهو لأهل الضلالة بئر مظلمة ظلاما أبديا"[1]. ولذا كانت الحكمة من الحساب لبيان مراتب الخلق وتفاوتهم فى المنازل وحين تشتد هذه الأهوال السالفة على الخلق يتجهون إلى الأنبياء ويلتمسون منهم الشفاعة عند الله تعالى فيعتذر كل نبى حتى يصل الجميع إلى خاتم النبيين سيدنا محمد ﷺ ويقبل الله شفاعته[2].

- **حكمة الإيمان باليوم الآخر فى مفهوم كليات رسائل النور:**

أما الحكمة الإيمانية لليوم الآخر فى مفهوم كليات رسائل النور فإن الإمام بديع الزمان النورسى ينظر إليها بمنظار إيمانى، وبغير المنظار الذى ينظر به عامة الخلق، إنه ليس متشائما ينظر إلى الموت بالمنظار الأسود، إنه لا يعتبره نهاية لحياة عزيزة، بل يعتبره مقدمة لحياة خالدة باقية، ومقدمة لرقى دائم ومستمر.

وذلك لأن العمران لا يكون إلا بعد الخراب، وأن الكنز لا يعثر عليه ولا يستخرج إلا بعد حفر الأرض وإثارتها، وكما أن الشجرة لا تعطى الثمار حتى تتفتح وتسقط الأزهار كذلك الروح لا تقوى ولا تجد، ولا تلبس كسوة جديدة حتى يتهدم الجسم الفانى، ويخلع العمر البالى.

---

(١) المرجع نفسه ص ٣٢٣.

(٢) والشفاعة فى ضوابط اللغة تعنى: الوسيلة والطلب، وفى الاصطلاح الشرعى هو سؤال الخير من الغير للغير، وقد ورد ذكرها فى القرآن الكريم فى مواطن عديدة قال تعالى: "يايها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا فى سبيله لعلكم تفلحون" المائدة ٣٥، وقال تعالى: "يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون" الأنبياء ٢٨، وقال تعالى: أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أولو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون قل لله الشفاعة جميعا له ملك السماوات والأرض ثم إليه ترجعون" ٤٤ الزمر، وقال تعالى: "إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء" ١١٦ النساء.

وفى هذا المقام يقول الرسول ﷺ فى كلمته الجامعة: (**إن الدنيا خلقت لكم، وإنكم خلقتم للآخرة**)[1].

وهذا البيان الإيمانى يوقفنا على أن المؤمن يجمع فى حياته بين العمل للدنيا واستخدامها كمنح خلقت لأجله وسخرت له، وبين السعى للآخرة والإعداد لها كغاية خلق لأجلها.

ولذا يقول بديع الزمان سعيد النورسى فى صورة سؤال لهؤلاء وهؤلاء الذين يخالفون حكمة الخلق. لماذا هذا الإشفاق من الموت، ولماذا هذا الأمل المفرض للحياة الفانية؟

وهنا يجيب بديع الزمان الإنسان قائلا له: إنك لم تزل فى انتقال من مرحلة إلى مرحلة، ومن عدم إلى وجود، ثم من وجود إلى عدم، ولم تزل تخلع لباسا وتلبس غيره حتى سويت بالقالب الإنسانى، فإذا أبيت الانتقال وبقيت على بدايتك لم تصل إلى درجة الإنسانية، ليس هذا فحسب بل إنك لم تنل البقاء إلى عن طريق الفناء، فلما ذا تفر من الميلاد الجديد الذى هو مقدمة للبقاء المزيد، ولماذا تتشبث بهذه الحياة وتلتصق بها مع إنها تخلف حياة لا زوال لها ولا خوف فيها ولا حزن.

ويجلى هذا البيان العام فيقول: إن البشرية قاطبة إنما هى كالنفس الواحدة، فلا بد أنها ستموت ويصيبها البوار كى تتخذ هيئة البقاء وصورة الخلود، وأن الدنيا هى الأخرى نفس وسوف تموت وتنقضى كى تتشكل بصورة الآخرة[2]...

ثم يلخص هذا لعشاق الدنيا والذين ابتلوا بها فيقول: إن هناك ثلاث دنا كلية قد تداخل بعضها فى البعض الآخر:

الأولى: هى الدنيا المتوجهة إلى الصدق فى الطاعة وهى كالمرآة للنفس.

---

(١) رواه الطبرانى فى الأوسط، وأورده البيهقى فى شعب الإيمان ٧ / ٣٦٠ بإسناده عن الحسن البصرى أنه سال رجلا عن أصحاب النبى ﷺ عما كان يقوله فى خطبه فقال له كلاما جاء فى آخر: "فإنكم خلقتم للآخرة والدنيا خلقت لكم، والذى نفسى بيده ما بعد الموت من مستعتب، وما بعد الدنيا من دار إلا الجنة والنار واستغفر الله لى ولكم".

(٢) الإمام بديع الزمان النورسى، كليات رسائل النور، مجلد اللمعات ص ٣٥٦.

الثانية: هى الدنيا المتوجهة نحو الآخرة وهى كالمزرعة للنفس.

الثالثة: وهى الدنيا المتوجهة إلى أرباب وأهل الضلالة فهى لعبة أهل الضلالة ولهوهم[1].

ثم يقول: إن أهل الصدق قد تعقبوا بإرادتهم أساسين مهمين للوصول إلى الحق تبارك وتعالى نجاة من الأخطار التى ترد من الدنيا من جانب وضمانا للسعادة الأبدية من جانب آخر.

وهذا الأساسان هما:

أولا: رابطة الموت، ودوام التفكير فى فناء الدنيا

الثانية: إماتة النفس الأمارة بالسوء بالمجاهدات والرياضات الروحية، لأجل الخلاص من مهالك تلك النفس، والأحاسيس التى لا ترى العقبى"[2].

وعلى هذا وذاك فإن هناك فرقا بين موت وموت، فالصادقون لا يقاس موتهم على الجهلاء والعامة، إن العارفين لا يتوجعون ولا يحزنون لمفارقتهم هذه الدنيا ويستقبلون الموت مسرورين فرحين.

إن الموت فى حقهم نفحة حياة، ورسالة فوز ونجاة، لقد كانت الريح التى أرسلها الله على أمة هود لفحة وجحيما على الكافرين، ونفحة ونعيما على المؤمنين، كذلك الموت للمشركين سموم وبلاء، وحرمان وشقاء.. وللمؤمنين نسيم عليل، وهواء بليل، وكوثر وسلسبيل قال تعالى: ﴿**فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنت نعيم. وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين. وأما إن كان من المكذبين الضالين. فنزل من حميم وتصلية جحيم. إن هذا لهو حق اليقين. فسبح باسم ربك العظيم**﴾ (الواقعة، الآيات من ٨٨ - ٩٤).

ومن هنا كانت رؤية كليات رسائل النور لحكمة الإيمان باليوم الآخر كما اقتضت الحكمة الإلهية أن يكون الأجل مجهولا وقته كما مر إنقاذا للإنسان من

(١) المرجع السابق ٣٥٨.

(٢) راجع بديع الزمان النورسى، كليات رسائل النور، مجلد اللمعات ص ٣٣٦.

اليأس المطلق ومن الغفلة المطلقة، وإبقاء له بين الخوف والرجاء، حفظا لدنيا وآخرته من السقوط فى هاوية الخسران[1].

نعم إن الإيمان قد حقق بعلم اليقين ما سيقع بحق اليقين، وإن المستقبل الذى يتراءى لنا بنظر الغفلة، كقبر ما هو إلا مجلس ضيافة رحمانى أعد فى قصور السعادة الخالدة، حيث حقق نور الإيمان أن القبر الذى أحدق بالإنسان ناظرا ومنتظرا ليس بفناء مكتوم، وإنما هو باب وصال لعالم النور وطريق لسرادق الجنة[2].

وهكذا أبانت كليات رسائل النور للإمام بديع الزمان النورسى عن الحكمة الإيمانية لليوم الآخر، مستهديا بقول الله تعالى: ﴿**لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة. أصحاب الجنة هم الفائزون**﴾ (الحشر، الآية: ٢٠).

• الإيمان باليوم الآخر بين النقل والعقل:

المتأمل حول قضية الإيمان باليوم الآخر كما تناولتها كليات رسائل النور للنورسى على هذا الوجه المدعم بالبراهين العقلية، المنبثقة من دراسة آيات الكون المقروء كما هى فى آيات الكون المنظور، يدرك بيقين ماهية الإيمان باليوم الآخر، وهذا ما نبهت النصوص الدينية عليه، وأعطت المفاتيح العقلية للوصول إليه[3].

قال تعالى: ﴿**أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون. فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم**﴾ (المؤمنون، الآية: ١١٦).

---

(١) المرجع السابق للنورسى ص ٣٢٦.

(٢) المرجع نفسه ص ٣٥٣ بتصرف مع تقديم وتأخير.

(٣) ببراهين متعددة، حيث قرر الخالق حقيقة هذه الحياة الآخرة فى اليوم الآخر والدار الآخرة فى جميع الأديان السماوية، وأنزلها على جميع رسله عليهم الصلاة والسلام، كما أعلنها فى القرآن الكريم فى كثير من آياته وبصور متعددة، فتارة بالأمر بالإيمان بذلك اليوم، وأخرى بالنهى عن الكفر به، وبالتصريح الذى لا شبهة فيه، فى مقامى الترغيب والترهيب لأهل الكفر، وبالإشارة والتلميح فى مقام حث المؤمنين على العمل الصالح، والتوضيح بالمثال لتقريب هذه الحياة الثانية إلى الأذهان، وبإقامة البراهين والحجج المنطقية الدامغة فى مناقشة منكرى الدار الآخرة وما فيها من نعيم، وعذاب، وجنة ونار، وعرض وحساب، وميزان وصراط.. راجع العقيدة الإسلامية للشيخ عبد الرحمن حسن ص ٦٢٧ ط دار القلم ٤٨٨.

فهذا النداء الإلهى يحقق للإنسان، وراء هذه الحياة التى تنتهى بالموت حياة أخرى، للحساب والجزاء، وإقامة محكمة العدل والفضل الإلهية، فالله هو الملك الحق لا إله إلا هو.

ومن هنا فقد حمل هذا البيان الإيمانى للفكر الإنسانى مفتاح البحث والنظر الموصل إلى هذه الحقيقة، ولذا يخاطب بديع الزمان الإنسان قائلا:

اعلم أنه جئ بك من العدم إلى الوجود، ثم رقاك موجدك من أدنى أطوار الوجود حتى أوصلك بإنعامه إلى صورة الإنسان المسلم، فما تخلل بينك وبين مبدأ حركتك من المنازل الكثيرة المتعددة كل منها نعمة عليك.. حتى صرت كقلادة منظمة، وعنقود نضيد بحبات النعم، وسنبلة منضدة من الرأس إلى القدم[1].

وفى ضوء هذا النداء يحلل بديع الزمان الآيات الإيمانية التى أسبغها الخالق على المخلوق كما هى مبثوثة فى آيات الكون المنظور فيقول: إن الإنسان نوع كسائر الأنواع، فما يجرى فى نوع الحيوان من القيامات المكررة النوعية المشهودة.

وفى ضوء هذا النداء يحلل بديع الزمان الآيات الإيمانية التى أسبغها الخالق على المخلوق كما هى مبثوثة فى آيات الكون المنظور فيقول: إن الإنسان نوع كسائر الأنواع، فما يجرى فى نوع الحيوان من القيامات المكررة النوعية المشهودة فى رحلة الوجود ينطبق على جميع المخلوقات، ولذا يأخذ بديع الزمان بيد الإنسان فيقول: فإن شئت فانظر إلى آثار رحمة الله فى كل الثمرات المتجددة الأمثال كأنها أعيانها، وإلى حشر أنواع الهوام والحشرات..

وقد دل كتاب العالم فى هذه الآيات التكوينية على قيام القيامة الكبرى لأنباء البشر، كما دل القرآن الكريم عليه بالآيات التنزيلية[2]. فى شأن المبدأ والمعاد كما فصلته كليات رسائل النور، وأن من نظر فى آيات هذه الحياة، وتدرج بنظره إلى الأطوار المترتبة إلى أبسط صور الجسم، يرى أجزاء منتشرة فى عالم الذرات، ثم

---

(١) راجع الإمام بديع الزمان سعيد النورسى، كليات رسائل النور مجلد المثنوى العربى النورى جـ ٦، ص ٢٤٢.

(٢) المرجع السابق ص ٢٤٦.

بيصرها قد تلبس فى عالم العناصر صورا أخرى، ثم يجدها فى عالم المواليد فى وضعية أخرى.. ثم يلاقيها فى نطفة، ثم فى علقة، ثم فى مضغة، ثم يراها دفعة بانقلاب معجز قد لبست صورة، مبينة لماهية المخلوق.

كما يرى فى هذه الانقلابات حركات منتظمة على دساتير معينة يتراءى منها:

أن كل ذرة كانت معينة فى أول الأطوار، كأنها موظفة للذهاب إلى الموضع المعد من جسد المخلوق، فيتفطن الذهن أنها بقصد تساق وبحكمة ترسل[1].

ومن يستقرئ الآيات المبثوثة فى كتاب الكون المنظور ويقف على خريطة السنن الكونية الثابتة فى برنامج الوجود، لإقامة كمال العدل وكمال الحكمة فى الحياة الثانية، وتحقيق الجزاء الإلهى كما دعت إليه النصوص القرآنية وحملته المفاتيح العقلية؛ يوقن بها قلبه ويقرر أن وجود هذه الكائنات يوجب وجود الله الخالق، كما أن وجود الله يوجب وجود الحياة الآخرة.

ومن هنا نادت كليات رسائل النور بما نادى به القرآن بتوحيد قبلة الفكر وأنه ما دامت فى الدنيا حياة، فلا بد أن الذين يدركون سر الحياة من البشر، ولا يسيئون استعمال حياتهم، يكونون أهلا لحياة باقية، فى دار باقية، وفى جنة عالية[2].

• ضرورة الإيمان باليوم الآخر:

إن المستقرئ لآيات الخلق المتعددة والمتنوعة كما رصدتها كليات رسائل النور للنورسى يهتدى إلى أن حكمة الخالق – سبحانه وتعالى – تدفع إلى أنه لم يكون خلق هذا الكون عبثا، وأنه لم يخلق الإنسان بآياته التى هو عليها باطلا، ليس هذا فحسب، بل لم تكن رحلة وجود الإنسان محدودة بظروف هذه الحياة الدنيا بكل ما يقع فيها من أعمال تصدر عن هذا الإنسان أفرادا وجماعات.

---

(١) راجع الإمام بديع الزمان النورسى المرجع السابق، مجلد إشارات الإعجاز جـ ٥، ص ٢١٧، وراجع مجلد اللمعات جـ٣، ص ٥٦٤.

(٢) راجع بديع الزمان النورسى، كليات رسائل النور، مجلد اللمعات ص ٦٥. وراجع مجلد المكتوبات ص ٤٥٩، وراجع مجلد الكلمات الكلمة التاسعة والعشرين والكلمة العاشرة.

وهذا وذاك يمثلان المفتاح الذى فتح للفكر باب الإيمان بالجزاء فى اليوم الآخر، وأن وراء هذه الحياة، حياة أخرى يتم فيها الفصل الأوفى وفق ما تقتضيه الحكمة الإلهية، كما يقول صاحب كليات رسائل النور: أن نور الإيمان بالله واليوم الآخر كالشمس التى تبدد كل ظلام، وذلك لأن الإيمان، حقيقة نابعة من ستة أركان متحدة وموحدة، لا تقبل التفريق ولا التجزئة ولا الانقسام، هذا من جانب، ومن جانب آخر لأن كل ركن من تلك الأركان الإيمانية يثبت بقية الأركان، فيصبح كل ركن حجة قاطعة لكل من الأركان الأخرى[1].

وهذا ما نادت به النصوص القرآنية، التى اقترن فيها الإخبار عن الإيمان باليوم الآخر بالكلام والإخبار عن الإيمان بالله تعالى، مع إثباته لسائر الأركان الإيمانية الأخرى، وأن هذا التلازم البيانى ينتقل إلى الجزاء الربانى كما توجيه حكمة الخالق المقرونة بواسع علمه وكامل قدرته.

وهذه الضرورة الإيمانية النابعة من أعمال العقل "الفكرية" تهدى الإنسان إلى ربط الإيمان بالله تعالى بالإيمان باليوم الآخر، ممثلة فى البراهين التالية:

أولا: دراسة الكون.. والحياة.. والإنسان.. حيث تهدى كلا منها إلى ضرورة الإيمان بالله واليوم الآخر.

ثانيا: البحث عن الغاية المنوطة بالخلق، والتى تهدى إليها ملاحظة الكون وتغيراته المتعددة من جانب وقوانينه الصارمة وسننه الثابتة من جانب آخر.

ثالثا: دراسة العلاقة الأخلاقية والتكوينية بين حكمة الخالق القادر والإنسان المخلوق صاحب الغرائز والأهواء والشهوات، والتى تمكنه أن يتوجه إلى فعل الخير والطاعة أو فعل الشر والمعصية، وهذه وتلك توقفنا على أن الإنسان خلق فى هذه الحياة الدنيا للامتحان، الذى يستلزم الجزاء فى ضوء قوانين الخلق وسننه الثابتة، ومقتضيات حكمة الخالق وعلمه وقدرته الشاملة.

رابعا: دراسة الظواهر الجزئية فى هذا الكون المنظور تدل على كمال مقتضيات

---

(١) راجع الإمام بديع الزمان النورسى، كليات رسائل النور، مجلد الشعاعات، ص ٢٩٤.

الحكمة، وأنهما لم تتحققا فيها بين بنى البشر كما نلاحظ صفات الخالق التى منها العدل والحكمة، والعلم والقدرة من جانب قوانينه القاطعة وسننه الثابتة من جانب آخر حتى نهتدى إلى أن حياة أخرى قد أعدت لإقامة كمال العدل وكمال الحكمة الإلهية قال تعالى: ﴿ **فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها. إن ذلك لمحى الموتى وهو على كل شيء قدير** ﴾ (الروم، الآية: ٥٠).

وحول هذه الضرورة الإيمانية يخاطب بديع الزمان الإنسان مبرهنا عليها فيقول: إننا نرى بأعيننا رحمة الخالق الكاملة، ورأفته المحيطة والشاملة على وجه الأرض، فما أن يحل فصل الربيع حتى ترى الرحمة تزين الأشجار والنباتات، وتلبسها ثيابا خضرا كأنها حور الجنة، وتسلم إلى أيديها أنواعا مختلفة من ثمار شتى، وتقدمها إلينا قائلة: (**هاكم كلوا وتفكهوا**).

وتراها تطعمنا عسلا مصفى شافيا لذيذا بأيدى حشرة سامة

وتلبسنا حريرا ناعما تنسجه حشرة بلاد يد.. وتدخر فى حفنة من بذيرات وحبوب آلاف الأطنان من الغذاء، وتحولها إلى كنوز احتياطية لنا..

ثم يقول: فالذى له هذه الرحمة الواسعة، وله هذه الرأفة العامة، والكرم السابغ، لا ريب أنه لن يفنى ولن يعدم عباده المؤمنين المحبوبين لديه، أولئك الذين رباهم ومن عليهم، وكرمهم إلى هذه الدرجة من اللطف والرفق والعناية.. بل سينهى وظيفتهم فى الحياة الدنيا ليهيئهم لرحمات أوسع وأعظم"[(١)].

وكما يخطو الإمام بديع الزمان خطوة أخرى فى تناول البراهين المتتالية حول ضرورة الإيمان باليوم الآخر فيقول: إن وظائف المخلوقات تنسبح على منوال الحكمة، وتكال بميزان العدل..

حيث الحكمة الأزلية قد وهبت للإنسان قوة حافظة - كحبة الخردل حجما. وكتبت فيها تفاصيل حياته ما يمسه من أحداث لا تعد، وكأنها مكتبة وثائقية

---

(١) الإمام بديع الزمان النورسى، كليات رسائل النور مجلد الشعاعات - الشعاع الحادى عشر، ص ٢٦٣.

مصغرة جدا، وضعها الخالق فى زاوية من دماغه، لتذكره دوما بيوم الحساب، يوم تنشر ما فيها من صحائف الأعمال.

كما نرى العدالة المطلقة تضع كل عضو من الكائن الحى فى موضعه.. وتنسيق بموازين دقيقة حساسة.. كما تمنح كل عضو تناسقا لا عبث فيه، وموازنة لا نقص فيها، وانتظاما لا ترى إلا فى الإبداع.

كل ذلك ضمن جمال زاهر وحسن باهر، حتى تغدو المخلوقات نماذج مجسمة للإبداع والإتقان والجمال.. فضلا عن أنا تهب لكل ذى حياة حق الحياة، فتيسر له سبل الحياة، ليس هذا فحسب بل تنصل له موازين عدالة فائقة قال تعالى: ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره. ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره** ﴾ (سورة الزلزلة).

فتلك الحكمة الأزلية، وتلك العدالة السرمدية لن تتحققا تحقيقا كليا إلا بحياة أخرى خالدة، لإحقاق الحق، تلك هى الموت الذى لا بع بعده، والذى لا يتساوى فيه الظالمون العتاة مع المظلومين البائسين فلا بد إذن أن تكون وراء هذه الحياة الدنيا، حياة أخرى خالدة كى تستكمل الحكمة والعدالة حقيقتهما[1]. ويسبغهما على كل مخلوق فى هذا الكون المنظور كما يقول بديع الزمان النورسى: أن كل كائن حى توفر له حاجاته التى ليس فى طوقه الحصول عليها، وتستجاب جميع مطالبه التى يسألها "بالدعاء" والامتثال للصراط المستقيم.

سواء بلسان حاجاته الضرورية، أو بلغة استعداداته الفطرية، وتسلم إليه من لدن رحيم واسع الرحمة، وسميع مطلق السمع، ورؤوف شامل الرأفة.. بكافة الخلق فى الحياة الدنيا وما كل هذا إلا لبيان واف لإيجاد الجنة الخالدة، وميلاد الحياة الآخرة تماما كإيجاد الربيع وخلقه[2].

كما نادت النصوص القرآنية بضرورة الإيمان بالآخرة.

---

(١) المرجع السابق للإمام بديع الزمان مجلد الشعاعات ص ٢٦٤.

(٢) المرجع السابق: نفسه ٢٦٥.

• الثمرات العملية للإيمان باليوم الآخر:

المتأمل حول ماهية الثمرات العملية الإيمان باليوم الآخر يقف على أنها متعددة منها ما يعود إلى سعادة الإنسان فى الدار الآخرة، ومنها ما يعود إلى سعادته فى الدار الدنيا.

أما ما يعود إلى السعادة الأخروية فقد حملته الآيات القرآنية بأجلى بيان وأسطع برهان. وأما ما يعود إلى السعادة الدنيوية من ثمرات يحققها الإيمان بالآخرة لإسعاد الإنسان فى حياته الشخصية والاجتماعية[1]. كما يقول: الإمام بديع الزمان النورسى وتتخلص فى عدة ثمرات:

الثمرة الأولى: أن الإنسان يتمتع بانه ذو علاقة بما يستأنس به، ولذا كان له ارتباط وثيق مع الحياة الدنيا مثلما أنه مرتبط بأقاربه بروابط ووشائج ليس هذا فحسب بل له ارتباط ونسب فطرى بالجنس البشرى.

وكما أنه يحب البقاء فى الدار الدنيا الفانية، فهو يتوق إلى بقائه فى الدار الآخرة الباقية، ولذا يعد الإيمان بالآخرة كنزا يدفعه إلى تحقيق الآمال التى لا تنتهى فى مواجهة هموم الدنيا غير المحصورة حتى يكون أوثق بما عند الله مما فى يده.

ولذا يقول بديع الزمان النورسى أن الحياة هى حكمة خلق الكائنات، كما أنها تثبت أركان الإيمان الستة التى هى بمثابة الرحيق للحياة، فإذا فارق الإنسان الحياة الدنيا نال الحياة الخالدة التى لا موت فيها[2]. ولذا كانت الدار الدنيا وسيلة، للترقى الذاتى فى الحياة الآخرة.

الثمرة الثانية: أن الإيمان باليوم الآخر وما فيه يورث الإنسان طمأنينة النفس، وذلك لأن ما يتعلق بالإنسان دوما وينغص حياته، هو تفكيره الدائم فى مصيره، وكيفية دخوله القبر، مثلما انتهى إليه مصير كافة بنى جنسه، وتصوره لمن يسبقونه إلى السفر بالموت المنبئ بآلام جنهم.

---

(١) راجع بديع الزمان سعيد النورسى، كليات رسائل النور مجلد الشعاعات ص ٢٧٧.

(٢) المرجع السابق، مجلد اللمعات ص ٥٦٤.

وهنا يكون الإيمان بالآخرة فاتحا لبصيرته، مزيلا الغشاوة عن عينه، فينظر بنور الإيمان فيكسبه نماء روحيا ينبئ بلذة الجنة، إيقانا من نجاة أحبته وخلاصهم من الموت والفناء لبقائهم خالدين فى عالم النور الأبدى منتظرين قدومه إليهم.

وهذا ما تصوره كليات رسائل النور للنورسى حيث يقول فى مجلد اللمعات: "إنه بالإيمان يتجلى حقيقة القبر الذى يحدق بكل مخلوق ناظرا ومنتظرا، وأنه ليس بفوهة بئر، وإنما هو باب لعالم النور وعالم الوجود والسعادة الخالدة، إلى أن يقول حتى أصبحت هذه الأحوال دواء لدائى ومرهما له"[1]. وفى كل من هذا وذاك يثرى عمل الإنسان فى كنه وكيفه، فتعمر به حياته فى الدنيا والآخرة.

الثمرة الثالثة: وذلك لأن الإيمان الصادق يدفع إلى تهذيب وتقويم السلوك، ويتلخص فى تزكية النفس فيما بين الإنسان وخالقه، وفيما بين الإنسان ونفسه، وفيما بين الإنسان ومجتمعه قال تعالى: ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة** ﴾ (التوبة، الآية: ١١١).

وقال تعالى: ﴿ **يأيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون** ﴾ (الحشر، الآية: ١٨).

وقال تعالى: ﴿ **وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يأولى الألباب** ﴾ (البقرة، الآية: ١٩٧).

وقال تعالى: ﴿ **وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها، وكى بنا حاسبين** ﴾ (الأنبياء، الآية: ٤٧).

ومن هنا تنادى كليات رسائل النور الإنسان الذى تحلى بالنداءات الإلهية السالفة بأنه الإنسان الذى استوعب الماضى والمستقبل معا، بسعة تمتد من الأزل إلى الأبد – كما يقول بديع الزمان: وهنا تتعالى إنسانية الإنسان.. حتى يصبح أحب مخلوق وأكرم عبد عند رب الكون ومالكه[2]. لتكامل أركان الإيمان فى نفسه

---

(١) المرجع السابق للإمام النورسى، مجلد اللمعات، ص ٣٥٣.

(٢) الإمام بديع الزمان النورسى كليات رسائل النور مجلد الشعاعات، ص ٢٧٩.

هذا من جانب ومن جانب آخر لأن الإيمان باليوم الآخر فيه سلوى وأمل للذين يكابدون مغريات الحياة، ويلتزمون الصراط المستقيم الذى يعينهم على مواجهتها تشبيها بمفتاح النور الذى يضئ المكان بمجرد لمسه تحقيقا لما أعد فى الدار الثانية فتتزكى النفس ويستقيم السلوك لإدراكه أن الموت ليس إعداما، بل تصرف وتبديل موضع ليس هذا فحسب، بل وإطلاق للروح من المحبس المحدود الذى هو مقدمة للسعادة الأبدية فى الدار الآخرة[1].

الثمرة الرابعة: تعميق الإيمان بعدل الله تعالى فى ذات المؤمن، وذلك لأن المؤمن بالله واليوم الآخر يكتسب يقينا بقول الله تعالى: ﴿ **يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره** ﴾ (الزلزلة، الآية: ٨).

ولذا فالقارئ لدائرة معارف كليات رسائل النور للنورسى فى عطائها يقف على أنها تأخذ بيد البشرية لإيقاظ منبهات الفطرة والدين، ويدلل على هذا فيقول: إن القرآن الكريم الذى هو رحمة للبشرية كافة إنما يقيم المدنية التى تكفل سعادة العموم، حتى تمد القارئ والسامع بتحليلات فكرية استقرائية لمعالم الحياة الإيمانية والعملية التى تشمل الوجود بكافة دوائره بين الخالق والمخلوق، كمصابيح للهداية، وتحديد لمعالم السلوك التى ينبغى أن يكون، للأخذ بيد المخلوق للصعود إلى الدرجة التى أرادها الخالق سبحانه وتعالى للإنسان فى مراحل وجوده المتعددة، حتى يحظى بالمكانة التى أعدها له كما هى فى حديثه عن الإيمان باليوم الآخر.

بينما المدنية الحاضرة متمثلة فى معطيات العصر، قد تأسست على أسس سلبية، وفى هذا المقام يوقفنا صاحب كليات رسائل النور على خواطره لماهية اليوم الآخر وما يشتمل عليه من الحشر والبعث بعد الموت، ويوم القيامة والآخرة التى غدت تصور من قبل الدوائر الملحدة وكأنها خرافة وأسطورة لا سند لها من دليل عقلى أو علمى، فبدأ يردد فى جيشان روحى كبير قول الله تعالى: ﴿ **فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها، إن ذلك لمحيى الموتى وهو على كل شيء قدير** ﴾ (الروم، الآية: ٥٠). ثم يقول:

---

(١) راجع المرجع السابق للنورسى، مجلد إشارات الإعجاز فى مظان الإيجاز ص ٢١٧.

"إن كل حقيقة من الحقائق التى اشتمل عليها النداء الإلهى تشت أمورا ثلاثة فى آن واحد: وجود واجب الوجود. وأسمائه وصفاته. والإيمان باليوم الآخر ثم يقول: يستطيع كل شخص من أعتى المنكرين إلى أخلص المؤمنين أن يأخذ حظه من كل حقيقة من الحقائق التى حملها النداء الإلهى، لأنها تلفت الأنظار إلى الموجودات والآثار وتقول:

فى هذه الموجودات أفعال منتظمة، والفعل المنتظم لا يكون بلا فاعل، لذا فلها فاعل. ولما كان الفاعل يفعل فعله بالانتظام، والنظام يلزم أن يكون حكيما عادلا، وحيث إنه حكيم، فلا يفعل عبثا، وحيث إنه يفعل بالعدالة فلا يضيع الحقوق. فلابد إذن من محشر أكبر ومحكمة كبرى للحساب والثواب والعقاب.

ولذا فالماهية التى تضمنتها الشريعة الإيمانية قد تأسست على مراقى الكمالات الإيمانية، بخلاف المدنية المدنية التى أعدت على مغالطات سلبية كما مر[1].

ومن هنا فلا يكتفى الإمام بديع الزمان فى كلياته بالأدلة العقلية، وإنما يلجأ إلى استقراء قانون الهدم والبناء فى حياة المخلوقات – ومنها الإنسان – ليستخلص منها البرهان القاطع على أن المجتمع الإنسانى يستحيل أن يشذ عن القاعدة لأنه جزء من الوجود الذى حوله، ويدل على هذا وهذا بأدلة متعددة حملتها كليات رسائل النور للإنسان الذى من أجله كان القرآن.

وصدق الله العظيم حين قال: ﴿ **وفى ذلك فليتنافس المتنافسون** ﴾ (المطففين، الآية: ٢٦).

رحم الله الإمام بديع الزمان رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

بقلم الدكتور سامى عفيفى حجازى

---

(١) راجع كليات رسائل النور، مجلد المكتوبات ومجلد اللمعات، ص ٣٥٨، ومجلد الملاحق ص ٧٢.

المصادر والمراجع

١ – إبراهيم؛ (الدكتور) زكريا إبراهيم: مشكلات فلسفية، ط مكتبة مصر. الفجالة.

٢ – إقبال؛ (الفيلسوف) محمد إقبال: تجديد الفكر الدينى فى الإسلام، ط. القاهرة.

٣ – ابن منظور؛ ابن منظور الإفريقى: لسان العرب، ط. لسان العرب. بيروت.

٤ – حوى؛ الأستاذ / سعيد حوى: الأساس فى التفسير، ط. دار السلام. القاهرة.

٥ – زقزوق؛ الدكتور / محمود حمدى زقزوق: تمهيد للفلسفة، ط. الأنجلو المصرية.

٦ – زقزوق؛ الدكتور / محمود حمدى زقزوق: المدخل إلى الفكر الفلسفى ط. الأنجلو المصرية.

٧ – السايح؛ الدكتور / أحمد عبد الرحيم السايح: معالم إسلامية. تحت الطبع.

٨ – السايح؛ الدكتور / أحمد عبد الرحيم السايح: قضايا فكرية. تحت الطبع.

٩ – السايح؛ الدكتور / أحمد عبد الرحيم السايح: بحوث فى فكر الإمام النورسى، ط. مركز الكتاب. القاهرة.

١٠ – السايح؛ الدكتور / أحمد عبد الرحيم السايح: المعرفة فى الإسلام، ط. دار الطباعة المحمدية، القاهرة.

١١ – السايح؛ الدكتور / أحمد عبد الرحيم السايح: أضواء حول الثقافية الإسلامية. ط. الدار المصرية اللبنانية. القاهرة.

١٢ – السايح؛ الدكتور / أحمد عبد الرحيم السايح: هذا هو الإسلام، ط دار الثقافة، قطر.

١٣ – السايح؛ الدكتور / أحمد عبد الرحيم السايح: مستقبل الحضارة الإسلامية، ط الأزهر.

١٤ – السايح؛ الدكتور / أحمد عبد الرحيم السايح: الحوار الحضارى ضرورة إنسانية. مجلة الدارة السعودية.

١٥ – السايح؛ الدكترر / أحمد عبد الرحيم السايح: الفضيلة والفضائل فى الإسلام، ط مركز الكتاب. مصر.

١٦ – السايح؛ الدكتور / أحمد عبد الرحيم السايح: فلسفة الحضارة الإسلامية فى المجلس الأعلى، القاهرة.

١٧ – السايح؛ الدكتور / أحمد عبد الرحيم السايح: أضواء حول الحضارة الإسلامية، ط دار اللواء. الرياض.

١٨ – سمث؛ هارولد ب سمث: الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ط. مؤسسة فرانكلين.

١٩ – صليبيا؛ الدكتور / جميل صليبيا: المعجم الفلسفى، ط دار الكتاب اللبنانى، مصر.

٢٠ – العشرى؛ الأستاذ / جلال العشرى: نظرة العقاد إلى الإنسان، مجلة الفيصل السعودية.

٢١-العقاد؛ عباس محمود العقاد: المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد، ٣١ مجلد ط. دار الكتاب اللبنانى.

٢٢ – عبده؛ الإمام محمد عبده: رسالة التوحيد، ط دار الهلال، مصر.

٢٣ – كرم؛ يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة، ط دار المعارف بمصر.

٢٤ – مدكور؛ الدكتور / على أحمد مدكور: الثقافة والحضارة فى التصور الإسلامى. مجلة الدارة، الرياض.

٢٥ – النورسى؛ الإمام بديع الزمان سعيد النورسى: صيقل الإسلام، ط. القاهرة.

٢٦ – النورسى؛ الإمام بديع الزمان سعيد النورسى: الكلمات، ط القاهرة.

٢٧ – النورسى؛ الإمام بديع الزمان سعيد النورسى: المكتوبات، ط القاهرة.

٢٨ – النورسى؛ الإمام بديع الزمان سعيد النورسى: المثنوى العربى النورى، ط القاهرة.

٢٩ – النورسى؛ الإمام بديع الزمان سعيد النورسى: اللمعات، ط القاهرة.

٣٠ – النورسى؛ الإمام بديع الزمان سعيد النورسى: الشعاعات، ط القاهرة.

٣١ – النورسى؛ الإمام بديع الزمان سعيد النورسى: إشارات الإعجاز فى مظان الإيجاز، ط القاهرة.

٣٢ – النورسى؛ الإمام بديع الزمان سعيد النورسى: الملاحق فى فقه الدعوة، ط القاهرة.

٣٣ – النشار؛ الدكتور/ على سامى النشار: نشأة الفكر الفلسفى، ط دار المعارف. مصر.

٣٤ – الندوة؛ الندوة العالمية للشباب: أصول الحوار، ط الندوة. الرياض.

* * *



فهرس الكتاب